



# الطين الأبيض

- ◀ الكتاب: الطين الأبيض  
◀ المؤلف: جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس  
◀ التصنيف: رواية  
◀ الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع  
◀ ترجمة: أنور الشيخ - تحرير: منير عليمي  
◀ الطبعة الأولى: مارس 2023  
◀ التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-795-02-5

◀ إذن طباعة: MC-10-01-8326256


**ملهمون**  
دار النشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

◀ الطباعة: AL MASAR PRINTING

   darmolhimon

 www.darmolhimon.com

 0097165551184

 SILICON OASIS, 20TH  
FLOOR ( SIT TOWER ) -  
OFFICE 2004, Dubai, UAE

جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس

# الطين الأبيض

الرسومات بريشة  
جيمي كورتيز

ترجمة  
أنور الشيخ  
تحرير  
منير عليمي

المحزون  
للنشر والتوزيع MOKHIMONI





## فهرس

---

٧.....	مقدمة
١١.....	الدكتور جون لويس سيكاتشيني
١٣.....	توطئة

---

### الجزء الأول: الأرض البوار

---

١٧.....	الفصل الاول: ما البحارةُ سوى بحارةٍ
٣٧.....	الفصل الثاني: الحب
٤٥.....	الفصل الثالث: ماكاو
٥٧.....	الفصل الرابع: العيد
٨٣.....	الفصل الخامس: الرقص
١٠٣.....	الفصل السادس: العجوز ملاحاي
١٢١.....	الفصل السابع: قصة شيكو الثور
١٥١.....	الفصل الثامن: الجفاف
١٧٣.....	الفصل التاسع: من لا يتوقفون

## الجزء الثاني: الطين الأبيض

- ٢٠١..... الفصل الأول: دوم ميغل
- ٢١١..... الفصل الثاني: قصة جوانينيا ماريسيا
- ٢٢١..... الفصل الثالث: القديد البشري
- ٢٤١..... الفصل الرابع: مجنونة بورتو دو روكادو
- ٢٦١..... الفصل الخامس: البحر
- ٢٦٩..... الفصل السادس: يختُ السيد داماسينو
- ٢٧٧..... الفصل السابع: القط
- ٢٩٩..... الفصل الثامن: الظمأ
- ٣٣٣..... الفصل التاسع: الطين الأبيض
- ٣٣٧..... ملحق



## مقدمة

**يشكل** أدب جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس (١٩٢٠-١٩٨٤) اليوم مفارقةً عجيبة: فرغم أن أعمالَ كاتبنا أعمالٌ وصلتْ - من بين كمِّ قليلٍ من الإنتاج الوطني - إلى عددٍ كبيرٍ من القراء البرازيليين؛ فضلاً عن ترجمتها إلى العديد من اللغات الأخرى، ونجاح مبيعاتها في الداخل والخارج - إلا أنها لم تحظْ بما تستحق من نقدنا الأدبي؛ إذ لا تزال الدراساتُ حول أعماله محدودةً جداً، سواءً أكانت دراساتٍ لعملٍ بعينه، أم لعموم أدبه، وهذا بالتأكيد ثمرةٌ حُكْمِ ظالمٍ ومجحفٍ بحق المعايير المرتبطة بفكرة الخروج عن التقليد الأدبي بوصفه قيمةً؛ فينبغي أن يؤخذ هذا الظلم بعين الاعتبار بشكلٍ خاصٍ.

إنَّ من الأصوات الاستثنائية التي كانت حاضرةً للدفاع



عن فاسكونسيلوس، صوتُ الشاعر والمترجم والناقد الأدبي العظيم خوسيه باولو بايس (١٩٢٦-١٩٩٨) الذي شجب «قصر نظر نقادنا حيال المسائل التي تتجاوز إطار الإمام الأدبي»، وذلك بفحص أداء الكاتب «من منظور المحسنات الأدبية فقط، بدلاً من تحليله من منظور اجتماعي مرتبط بالذائقة والاستهلاك».

إنّ من خدمات خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس المعتبرة حيالً لثقافة بلاده خطّه المتمثّل في «الرواية الاجتماعية» (والتي غالباً ما تكون ذات طابعٍ حميميٍّ أيضاً)، والتي بدأ بإنتاجها منذ ظهوره لأول مرة في رواية «الموزة الشجاعة» في عام ١٩٤٢، حيث ساهم بشكلٍ استثنائيٍّ في خلق أجيالٍ متعاقبةٍ من القراء البرازيليين؛ فكان قادراً على جذبهم بطريقةٍ فريدةٍ من نوعها لعملٍ لا يزال حاضراً متعدد الأوجه، إذ يحدث في مناطقٍ مختلفةٍ من البلاد، ويتعامل مع أكثر القضايا إثارةً، وذلك من منظورٍ شخصيٍّ مشبعٍ بالمعنى الجدلي.

إن من أكثر ما يلفت الانتباه في رؤية الكاتب للعالم هو تلك الأهمية التي يوليها في مؤلفاته للعلاقة الوثيقة بالبيئة، وقربُه الوجودي الجليّ منها.

يسكب فاسكونسيلوس في شخصياته مزيجاً من روح المغامرة والحيوية الجسدية مع أبعادٍ استبطانيةٍ؛ فيتناول الموضوعات المحلية والحضرية؛ ويحلل المجتمع المعاصر من وجهة نظرٍ نقديةٍ عقلانيةٍ دون أن يستبعد سبرَ



الجوانب العاطفية والشاعرية للشخصيات والمشكلات؛ فتراه يسلط الضوء على العقول المحبطة تارةً، والمشبعة بالأمل والمنغمسة بالشرور تارةً أخرى، كما يركز على رذائل وفضائل الكائنات التي ينفخ فيها من روحه؛ لتجسد هذه العناصر وغيرها أدباً الذي لا يمكن لنا تجاهله.

لإيلاء عمل الكاتب هذا قراءة عادلةً ماتعةً، علينا أن نتذكر أن أدب فاسكونسيلوس يحتاج أن يفهم في السياق الاجتماعي لعصره، لا أن يتم تقييمه من خلال رؤية إثنية ثقافية حالية؛ فإذا ما وقعنا على تعبير لغوي هنا أو آخر هناك، أو على ترجيح أو توصيف لم نستطع إسقاطه على قيم الحاضر، فلا ينبغي أن يصرف هذا انتباهنا عن قيمة الكاتب، والأهمية الكبيرة الذي يستحقها عمله من منظور إنساني عميق.

تأتي إعادة إصدار أعمال فاسكونسيلوس في وقتٍ اختيرَ بعنايةٍ بما يسمح للقراء المخلصين لأدبه أن يعيدوا جميعاً النظر في العناوين التي تشكل فسيفساءً هذا الفضاء الأدبي النابض بالحياة، ويتيح للأجيال الجديدة فرصة التعرف إليه.

يعيد «الطين الأبيض»، وهو عملٌ نُشر عام ١٩٤٥، التأكيد على قوة نثر خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس، والذي تكشّف قبل ثلاث سنوات في عمله الأول «الموزة الشجاعة». إن كان قد حافظ في روايته الثانية على النبرة الإقليمية التي انتهجها في



القصة السابقة، بيد أن البيئة الجغرافية والفضاء الاجتماعي اللذين تجري فيهما الأحداث مختلفان: فيغادر المشهد عالم المنجم وسط البلاد ليفسح المجال للفضاء الساحلي الذي تجري فيه أعمال الملح في ريو غراندي دو نورتي، ولا سيما مدينة ماكاو. من خلال الشخصية المركزية، شيكو، تتجلى في عين القارئ حياة المعاناة والإثارة لسكان تلك المنطقة في النصف الأول من القرن الماضي.

في بنية سردية إبداعية تخطف لبّ القارئ دون تقييده بالترتيب الزمني للأحداث، يمكن لهذا القارئ اقتفاء مسار بطل الشعب شيكو إذ يتخذ بعداً شبه ملحمي، في توصيف يبرز فيه ثباتاً لا يتزعزع، وشجاعة وقوة بدنية ومعنوية كبيرة أمام العديد من المحن، وقدرة هائلة على الإغواء، وخاصة مع النساء. وهكذا، يتعرف القارئ على هجرة شيكو من الداخل إلى الساحل فراراً من الجفاف الذي راح يدمر الريف؛ وعمله الشاق في أهوار الملح التي استنزفت صحته بقسوة وسرعة؛ ونشاطه كبحّار أدى به، بين ميناء وميناء، وبغي ونديم في الحانات، إلى التخلي عن نفسه شغفاً بمواجهة التحديات وجمال البحر؛ فشكّل هذا مجتمعاً لوحه مؤثرة للمنطقة.

الدكتور جون لويس سيكاتشيني



## الدكتور جون لويس سيكاتشيني

**حصل** الدكتور جون لويس سيكاتشيني على إجازة في الآداب عام ١٩٨٧ من جامعة ولاية باوليستا (UNESP) «خوليو دو ماسكيتا فيليو»، الجامعة التي عمل فيها منذ عام ١٩٨٨؛ فنال في نفس الكلية درجة الماجستير في عام ١٩٩٣؛ والدكتوراه في الأدب في عام ٢٠٠٠. يعمل في قسم الأدب البرازيلي، وتطوير الأبحاث بشكلٍ أساسيٍّ حول الموضوعات التالية: أدب الأطفال والنَّاشئة، والقراءة، وتدريب القراء، والأدب والتدريس، وأدب مونتيرو لوباتو، والأدب البرازيلي المعاصر بشكلٍ عام. يعمل حالياً دكتوراً وأستاذاً مساعداً في UNESP ومنسقاً للمجموعة البحثية «القراءة والأدب المدرسي».



والتي تضم أساتذة من عدة جامعات في البلاد.  
وهو أيضاً ناخبٌ في المؤسسة الوطنية للكتاب للأطفال  
والشباب (FNLI): وقد نفذ العديد من مشاريع البحوث  
التطبيقية التي ركزت على تدريب القراء وتطوير معلمي  
المدارس الابتدائية.



## توطئة

كانت مدينة ماكاو الغابرةُ تتربع على جزيرةٍ تسمى مانويل غونسالفيس؛ وفي عام ١٨٢٥، بدأت هذه الجزيرة بالفرق؛ فنقلوا المدينة إلى الساحل الذي لا تزال قابضةً فوقه حتى يومنا هذا. قد يبدو الأمر غريباً، إلا أن الجزيرة اليوم تطفو على السطح فعلاً... أما هذه الرواية فهي قصة تلك الجزيرة، وجفافٍ وملحٍ وبؤسٍ ريو غراندي دو نورتي الكبير.



01

---

الجزء الأول  
الأرضُ البوار





## الفصل الاول ما البحارة سوى بحارة

أنشد يا بيشيغينيا. ألم تقل إنك محظوظ؟

**المتكلم** هنا هو روسو؛ روسو الذي له اسمان: الأول بيدرو والثاني روسو. كان روسو مستلقياً على بكرة الحبل يدخل لفافة سجائر، نافثاً من فمه دخاناً يدخل في عينيه اللتين لم تكونا عينين اثنتين حقاً؛ فقد فقد روسو إحداهما في معركة من المعارك منذ فترة طويلة في أريا برانكا. كان صبوراً جداً وراغباً في الوصول قريباً؛ فتراه من حين لآخر يخلل شعره الأحمر بيده في علامة منه على انزعاجه الشديد، وفي أوقات أخرى كان يغمض عينه الزرقاء في ضيق.

- بيشيغينيا! أنشد هيا!



- إلى المقدمة يا روسو. أظن الرياح قادمةً.  
ولكنَّ بيشيغينيا نفخ خديه، مما زاد البثور التي ملأت  
بشرة وجهه السمراء. وأنشد ببطءٍ:

«هَبِّي يا رياح، يا بلح البحر

كلبٌ من الأدغال

يريد أن يعضني...

هَبِّي يا رياح، يا بلح البحر

كلبٌ من الأدغال

يريد أن يعضك...»

كانتَ أنظارُ الجميع مصوبةً نحو أشرعة اليخت؛ بيدَ  
أنَّهُ لم تكن ثَمَّة إشارةً على أي تحولٍ للريح، فالأشرعة  
ساكنةٌ معلقةٌ دون أدنى مبالاةٍ.

قال السيد أنتاو:

- أراهن بنظارتني أن لقيطة الشمال الشرقي تلك لن  
تأتي.

وإذا ما راهن السيد أنتاو على نظارته، فإنَّ الأمرَ أكثرُ  
من أكيدٍ.

- هذا سيءٌ، هذا سيءٌ. قال دورسيلينو. يُستحسن بنا  
أن نصنع ما صنع شيكو الذي لا يشعر بالنعاس. إن لم تهبَّ



رياح الشمال الشرقي بعد نصف ساعة، فلن نصل غداً إلا بعد مدّ الظهر.

كانوا سبعة رجالٍ أعياهمُ الصبر في انتظار ريح تهبُّ من تلقاء البحر؛ ريح تهب من جوف البحر، من الجهة التي كان الليلُ فيها أحلك ما يكون.

من جهة اليابسة؛ رسمت منارةً الأغامار على سبورة الليل خطوطاً بيضاءً بطباشير الضياء.

لكنّ الريح لم تأتِ على الإطلاق، فتهادى اليختُ متناقلًا محجوباً فوق البحر فيهتز في بعض الأحيان تحت تأثير أمواج أكبر إذ تمر من تحت عارضته بغضبٍ أشدّ.

التفت أوزيبو نحو دورسيلينو وسأله:

- كم الساعة معك؟

تناول دورسيلينو ساعةً كبيرةً من جيبه؛ ساعةً كان يقدرها جداً لأنها إرثٌ من أبيه، وردّ بانزعاج:

- إنها التاسعة.

- إذن فلن نصل إلى وجهتنا اليوم أيضاً.

- يا له من أمل!

- عمّا قريب سيُنزل الرجل العجوز الأشرعة؛ فماذا ترى؟

وبدا أن السيد أنتاوا سمعه وهو يصرخ من قمرة القيادة.



- دعونا نُنزلِ الأشرعةَ يا قوم. اليوم وغداً فقط...
- ارتقى بيشيغينيا جانبَ اليختِ فنادى شيكو الذي كان مستلقياً فوق قمرة القيادة.
- يا شيكو! أنزلِ الأشرعةَ. هل تمام في ساعةٍ كهذه؟
- صعد شيكو إلى سطح السفينة وشرع بمساعدة بيشيغينيا في إنزال الشراع الرئيس؛ ففكوا العُقد وحلّوا الحبال.
- فهممتِ الأشرعةَ مُصدِرةً أنيناً ثم انسدتْ ببطءٍ.
- لقد تكوّرت فوق الصواري.
- سنساعد الآن دورسيلينو وأوزيبينو في الشراع الأمامي.
- كان الشراع الأمامي أكثرَ أشرعة اليختِ اضطراباً؛ ولعلَّ ذلك لمكانه وسط اليختِ.
- كان دورسيلينو يتصبب عرقاً يقطر من أدنى قميصه.
- لم أر قط فتىً كهذا! ألمثل هذا الهراء يتصبب عرقاً؟
- أيها الفتيان، إنما خلُق التعرّق للرجال!
- قام الأربعة معاً بإنزال شراع المقدمة؛ وحين فرغوا من ذلك، أنزل روسو، بمساعدة مسؤول التموين لوكاس؛ ذراعَ الرافعة والذراع الأمامي.
- وثب شيكو إلى قمرة القيادة واستلقى هناك عاقداً



ذراعيه تحت رأسه ناظراً نحو السماء؛ فلطالما أحب أن يكون على هذه الحال يرقب النجوم والصاري فيرى من هنالك ما لا يراه سواه. حين راح اليخت يتّزن، شكّل صاريه دائرة صغيرة فبدا كعصا بلياردو تهّم بضرب النجوم التي تبعثرت في جميع الاتجاهات.

ولو أنه قال لصاحبه ذلك لما فهمه أحد...

قفز روسو وجلس بجانبه، وأشعل سيجارة أخرى من قش الذرة، وبدأ في الكلام.

- يا للسماء! عسانا نصل هناك قريباً؛ والآن قبل غد!

- ما ضرك لو وصلت اليوم أو وصلت غداً...

- أنت تقول ذلك لأنك تعلم أن جوانينيا ماريسيا تنتظرك هناك. فما لي أنا؟ أنا لست ذا حظٍ كحظك.

- أنا لم أفكر في الأمر أصلاً.

- أعلم أنك لم تفكر في ذلك! هل تعتقد أنني وحش؟

فما لي أراك تحديق في السماء هكذا؟

- قلت لك إنني لا أفكر في أي شيء.

- لو وصلنا اليوم لكنت...

- لألفيت مارغريدا بابو أماريلو في انتظارك هناك.

- يا إلهي. أنت مجنون!



انفجر شيكو ضاحكاً.

رسمت منارة ألغامار فوق المياه خطوطاً ضوءٍ تقترب  
من اليخت.

كان لوكاس يتحدث إلى السيد أنتاو متكئاً على  
الدرابزين!

-... لأنني أؤمن حقاً أنني سأشتريه. كانت أكبر أمنياتي  
تتلخص في شراء قميص مبهج، لأن قميصي هذا بات  
بالياً لعيناً؛ وإني كلما ارتديته، ينتابني شعورٌ مزعجٌ يثير  
حفيظتي. حين سأشترى غيره، سأختار منه اللون الأزرق.

بدأت عينا شيكو تُغلقان، وكان يسمع حديثَ روسو،  
ويود لو يشاركه الحديث، لكنه لم يجد لذلك سبيلاً، فقد  
أثقل النعاسُ جفنيه فاضطجع على شقه ونام.

بعد ذلك بقليل، حدا الجميعُ حدوه فنام سبعة رجالٍ  
على متن يختٍ فوق البحر ليلاً.

وهناك، في الأعلى، صعد السيد بيدرو ليحرس ويحمي  
الصيادين وكذا البحارة؛ فيرتب غرفته، بينما قديسة  
الملاحين تستريح.

\* \* \*

كان يخت ريكاردو باريتو أجمل قاربٍ في المنطقة؛  
إذ لم تعرف السواحلُ الشماليةُ الشرقيةُ قطً يختاً متقنً



الصنعة كهذا اليخت؛ فقد كان كبيراً نظيفاً محصناً جيداً،  
كما كان ذا خطوطٍ رشيقةٍ نحيفةٍ. كان يمتاز من بين  
المراكب بحزام يحقّه بأربع نخلاتٍ زادت من جماله. كانت  
كل أشرعتهم بيضاء لم يفلح هواء البحر ولا مياه الأمطار  
ولا نفث الرياح العاتية المألحة في جعلها صفراء.

إنه يقف هناك الآن عند مصب نهر أكو، ينتظر ارتفاع  
المد؛ المدّ وحده. ها قد بدأت الرياح الشمالية الشرقية  
الآن تهب قبل الساعة العاشرة بوقتٍ طويلٍ. عند الساعة  
الثانية، حلّ الرجال الأشرعة فتجاوز الوحش العلامات  
العائمة.

لا يعرف مصب نهر أكو سوى المراكب الشراعية؛  
وكانت مياهه تعلق عوارض السفن العابرة؛ لكنه يغدو  
في بعض الأحيان سيئ النوايا؛ وسوء النوايا ذلك يسميه  
الناس بالمد والجزر، ولكنه ليس كذلك. لقد ضمن  
ملاخاي المسنّ ذات مرة، وهو أكبر معمرٍ في ماكاو، أن  
المياه تجف كمداً على قاربٍ لم يعد، أو قاربٍ يرقد في  
قاع البحر للأبد.

تربو مياه نهر أكو الآن بسرورٍ لتستقبل على ساحلها  
أجمل يخت: يخت ريكاردو باريتو.

وبينما كان المد ضعيفاً، واصل بيشيغينيا الذي كان  
ظاهياً أكثر من كونه بحاراً، صنع العوامة.

- إن رائحتها زكيةٌ يا بيشيغينيا!

وابتسم مُظهراً اعتزازه أنّ ليس لغيره ممن هم على متن القارب أنّ يصنع العوامة، ولكنه كان مرتبكاً أنّ كان عليه إرضاء الجميع.

عندما دقت ساعة دورسيلينو على رأس الثانية واثنتي عشرة دقيقة، أمر السيد أنتاو برفع الأشرعة، فهبّ الرجال هذه المرة للعمل راضين؛ بل حتى أنّ روسو غنى، وما كان ليغني لأقلّ من ذلك. وكان من عادة من يبحرون أن يتوجهوا للساحل فور وصولهم؛ فالوقوف في منطقة رمادية ليس من شيم البحارة. الأرض عاملٌ راحةٍ؛ راحةٍ سرعان ما تزول، إذ لا تكاد تمرّ لحظاتٌ حتى يحرك فيك البحرُ جذوة الحنين. للأرض فضيلةٌ واحدةٌ تتفوق بها على البحر: النساء.

عندما كانت الأشرعة جاهزةً، أتخمت رياح البحر بطونها بالقوة، وهي ذات الرياح الشمالية الشرقية التي سئموا منها بالأمس. يبدو أن يخت ريكاردو باريتو ارتفع عالياً في المياه فمضى قدماً، فتوقف للحظةٍ ليلتقط أنفاسه، ثم انزلق ببطءٍ.

تسلّم السيد أنتاو دقة القيادة. قد يكون للمرء في تلك الأثناء أقوى نبضٍ، لكنه سيحتاج إلى ما يعرفه شيخٌ ضعيف النظر حول الأنهار. لقد كان رباناً بالفعل، ويعرف بالعين المجردة، ودون الحاجة لاستخدام المسبار، كل الأرض وسط



البحر وعند مصب الأنهار.

وإنه، إذ نشأ وترعرع على طول نهر أكو، لم يترك في ذلك الوقت عجلة القيادة لأحدٍ.

ظلّ اليخت بفضل رعايته جميلاً كما كان؛ لكن القارب، لو ساء حظه، قد يجنح مراراً على إحدى تلك الضفاف الرملية عند مدخل مصبّ ماكاو... من منظورٍ إيجابيّ، كانت الفكرة السيئة أن يعلم السيد أنتاو جيداً أن العائلة كانت تنتظره بفارغ الصبر منذ شهرٍ حينما غادر ماسيو، ولم يعد إلا للتو.

راح اليخت يغدو طوعاً وأمر يدي السيد أنتاو، فيستدير إن أراد، ويتقدم للأمام إن أمر.

تخطّوا أكاليل الزهور والعلامات الإسمنتية المغروسة في الرمال.

لاحت منارة ألغامار القبيحة السوداء المنسية بارزة فوق الأرض الصلبة، ومن ورائها أرضٌ مليئةٌ بأشجار المانجو وسرطان البحر والطين النتن.

مرّت بعض زوارق الصيادين وقوارب الصيد بجوار اليخت فسألوا عن أخبارٍ من ناتال وريسيفي وماسيو. كان اليخت يتقدم، ومدينة ماكاو تقترب.

من بعيدٍ لاحت كذلك المنازل؛ وبالاقترب أكثر؛ ظهر



الشارع المقابل، والميناء بسفنه المألوفة. هنالك كانت بوتينجي وماريا نينا وديدو دي ديوس، وهي باخرةٌ مجنونةٌ مشهورةٌ، لم تحترم الزمان فتداعت أركانها تماماً؛ وكانت مُلكاً لشركة ماستر داماسينو التي طرحتها للبيع مراتٍ عدة، إلا أن أحداً لم يرغب في شرائها.

باتت المدينة الآن مختبئة خلف آلاف الصواري ذات الأشعة المنسدلة.

يمر يخت ريكاردو باريتو قبل أن يرسو بأمرٍ محزنٍ للغاية: حمولة المياه؛ المياه التي تصل على متن القوارب من شاطئ باريرا، فتوزعها على السكان البائسين؛ فترى الفقراء يهرعون نحو المكان تباعاً؛ حاملين عبوات الكيروسين في أيديهم، والصبر في عيونهم. نعم؛ يكاد نقص المياه يكون أكبر بؤسٍ لماكاو؛ لكن البؤس الأكبر هو أبعد بقليل: أعمال الملح.

إنها كتلٌ بيضاء رهيبة، قاتلةٌ تلتهم الأرواح والمناظر، مجرمة. ها هي ذي منابع الملح في جيوب المسطحات المائية المالحة وهي تعرج في السماء فتكاد تتحدى رؤية الملكوت الأعلى. ولمّا أن زاغت عيون الرجال سريعاً إذ لم تستطع مقاومة شدة سطوع الضوء؛ تبتسم شيكو؛ فنظر إليه روسو.

- حسنٌ. حين ينتهي هذا، قل إنك لا تفكر بها.

- ستكون ليلة سعيدة هذا اليوم...



كان روسو حزيناً؛ بل سيئ الحظ وحسب؛ إذ ليس له أن تكون له زوجةٌ كجوانينيا ماريسيا؛ فلو أن له مثلها لتزوج.

\* \* \*

في تلك الأثناء، ذهبت جوانينيا ماريسيا إلى حانة دوم ميغيل لشراء الكيروسين.

نظر إليها دوم ميغيل، وخمّن أن الأمر أكثر من ذلك، إذ كان على علمٍ بخبر وصول ريكاردو باريتو.

- هل أنت راضيةٌ إذن يا جوانينيا؟

- لستُ في تمام الرضى.

- نعم. أنتن هكذا معاشر النساء. تقلن دائماً خلافَ ما تشعر به قلوبكنّ.

ضحكتُ؛ وتناولتُ زجاجة الكيروسين وغادرتُ تخط الأرض مفعمةً بالحياة والنعمة والشباب.

واتخذتُ طريقَ روا كايكو عائدةً إلى المنزل.

ووضعتُ الزجاجة في المطبخ وذهبتُ إلى غرفة النوم.

لقد شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ حقيقيةٍ؛ فقد كان شيكو في طريقه إليها. ويا له من رجلٍ!

إنها الآن تبتسم لكل شيءٍ، فعمّا قريبٍ ستملّس يداها شعرَ شيكو الأسود المهفّف، وبعد الشعر، تنزل يداها خلفه



فتستمر في النزول إلى ما لانهاية؛ متجاهلةً الأخلاق والأحكام  
المسبقة. ما أراداه كان الحب؛ الحب جسدًا لجسد؛ ولحمًا  
للحم؛ فالحب تاج الملذات...  
وتبسمت بحبور.

خمنت العمة كريستينا شيئاً وهي تصنع الدانتيل في  
غرفتها.

- ماذا حدث يا جوانينيا؟

- خمّني.

- هو وصل.

- من هو؟

- من يكون! ريكاردو باريتو، طبعاً.

- هل ذا هو سبب سعادتك؟...

- أفلا أكون؟

لقد عرفت العمة كريستينا فرحةً جوانينيا إذ كانتا  
تعرفان بعضهما جيداً. هي أيضاً كانت ذات يومٍ صغيرةً  
مرتعشةً جميلةً.

كانت قد أعربت أنفأً عن رغبتها في الرجال أيضاً؛  
فقد أحبّت من قبلُ بحاراً كان يرتادها من وقتٍ لآخر، ثم  
مرت السنوات، والزمان كفيلاً بإفساد كل ما هو جميلٌ في



الحياة! أما الآن فقد باتت عجوزاً تصلي وتصنع الدانتيل؛  
 وغدت سعادتها تتمثل في التجسس على الآخرين،  
 وأن تستعيد سرّاً ذكريات صباها التي تبقّيها مكتومةً  
 في صدرها؛ فكثيرٌ ممن سيَرون الدهون الرهيبة على  
 جسدها سيشكّكون في قصص الملذات التي قد ترويهَا  
 عن ماضيها. مع ذلك، لم تستطع إلا أن تتنهد بهدوءٍ.  
 دنت جوانينيا من المرأة.

- استعدي يا فتاة. كوني جاهزةً؛ فالرجال لا يحبوننا  
 إلا والجمالُ شमितنا. فيما بعد...

بدأت جوانينيا في خلع ملابسها التي كانت منسجمةً؛  
 انسجام أظهر كل شيء تقريباً؛ فتبدّى هنالك جسداً بكثيرٍ  
 من العطور والقليل من القماش؛ فكأنما هو كنزٌ من  
 اللحم الدفين المخبأ على بعد أمتارٍ قليلةٍ من الأراضي  
 الزراعية الرخيصة.

برزت البشرةُ الشاحبةُ غيرُ اللامعةِ بجوار الانسجام  
 الأصفر.

رفعت ذراعيها وبدأت بتتعيم شعرها. «على أية هيئةٍ  
 سيحبّه؟ بربطه عند الجانبين؟ أم بخصالٍ؟ أم برده للخلف؟  
 أم بفرزه إلى قسمين؟... لا شيء من هذا! سيحبه على  
 أية حالٍ...»

وأسبلت يديها فجأةً وداعبت ثدييها القاسيين بفرحةٍ



ورعدةً، وتتهدّت. آه! شيكو!

نظرتِ العمّة كريستينا للأعلى بحسرةٍ فرأتَ جوانينيا تلمس نفسها؛ فضحكتُ، فاستندتُ بيديها على وسادةٍ من الدانتيل، وقالتُ:

- نعم جوانينيا! ارفعي يديك إلى السماء؛ فلديك برتقالتان؛ أما أنا فلأعانٍ كثيراً مع ثمرتي الكاكايا هاتين!

ضحكت جوانينيا.

وأضافت العمّة كريستينا:

- أنت تضحكين الآن؛ لكنك حين تبلغين ما بلغت من العمر، ستدركين معنى تحمّل الأمر مع كل هذه الحرارة...

المساءً على الأبواب. لم تعدِ العمّة كريستينا قادرةً على كسب عيشها. نهضتُ بدهنها الهائل، وذهبتُ لإضاءة المصباح.

تركتُ جوانينيا ترتدي ملابسها استعداداً لرجلها.

كان شعرها مفروزاً عند المنتصف. تبقى لها الآن بعض مسحوق الأرز وقطرتان من المستخلص هذا. نعم... ضحكتُ؛ فكان جمالها قدسياً حريّاً بجشع الرجال ونظراتهم الطويلة. لماذا الرجال! لو جُمع لها كلُّ من عرفتُ من الرجال في حياتها لما شكلوا شخصاً كشيكو. غادرتِ



الغرفة ووقف في المدخل.

مرّ بها السيد داماسينو القادم من برايا دوس بيسكادوريس،  
فنظر إليها باهتمامٍ وعلّق:

- مرحباً أجمل فتاة في بورتو دو روكانو! رباها! كم أنت  
فاتنة يا جوانينيا!

- آه! لطالما كنت كذلك.

- لكنك اليوم أكثر فتنةً بكثير.

خرجت بشباك الصيد وخيط السمك المتدلي فوق  
كتفها...

كانت ستائر الليل قد بدأت تتسدل.

عمّا قريب تضاء جميع الفوانيس أو المصابيح.

رجال آخرون يعودون من الصيد.

عاد عمال الملح المتعبون إلى زوجاتهم وأطفالهم؛ وكان  
هؤلاء أشدّ تعباً من الصيادين والبحارة الآخرين.

أحضرت العمّة كريستينا المصباح إلى غرفة المعيشة  
فظهر القديس بطرس على الحائط الخلفي والمفتاح في  
يده، وظهرت أعدادٌ كبيرةٌ من ورق بايار فوق الخزانة ذات  
الأدراج؛ كما ظهرت في الجدار بعض القطع المتصدعة.

دخلت العمّة كريستينا غرفتها الصغيرة للصلاة لملاك



الرب.

ودتّ جوانينيا لو تفعل شيئاً يوارى قلقها الذي سيطر  
عليها.

لا بد أن شيكو انتهى الآن إذ هم يوم الوصول لا يُفرغون  
اليختَ مطلقاً؛ بل يتركون كل شيءٍ لليوم التالي؛ فلماذا  
لم يأتِ إذن؟ ولمَ استغرق وقتاً طويلاً؟ ربما التقى بأحدٍ  
يعرفه، أو لعله يحتمي كوباً في واحدةٍ من الحانات؛ أو  
من يدري، قد يكون بصدد شراء شيءٍ من السوق؟ أو لعله  
يجيب من يسألونه عن أخبار الأراضي التي مر بها...

استطالت ساعاتُ الليل، واستفحل ضيقُ صدر جوانينيا.

في التاسعة تقريباً، توجهتْ نحو النافذة، ونظرتْ  
للخارج تستقصي خبرَ الليل، وتتخذ قراراً.

فتحتِ الباب فصراً؛ وتهادتْ توهجاتُ الفانوس، وسُمع  
حديثٌ في الداخل:

- أيتها العمّة كريستينا، إنني أشعر بدوارٍ.

خرجتْ؛ وكان المساءُ قد حلّ بالمكان مظلماً جداً،  
فكان سجسجاً لا بارداً ولا حاراً.

مشّت جوانينيا مغتمّةً شبه غاضبةٍ تفكر فيما لا يسرّ.

ربما كان شيكو بصحبة امرأةٍ ما في زقاق «المصبات

الأربع».



لا بد أن اللقيط يشرب البيرة مع روسية بلا خجلٍ.  
ربما كان في نُزل عائلة مارغريدا بابو أماريلو؛ تلك  
الساحرة المتبجحة كتمساحٍ...

كانت المسافة بين مرفأً روسادو وشارع النساء طويلاً،  
لكن جوانينيا لم تلاحظ ذلك.

بلغت بداية الشارع؛ فكان الشارعُ حفلةً جنسيةً بقليلٍ  
من الضوء، وكثيرٍ من الحركة.

عندما أُنزع الميناء بالسفن، أُتخمت الشوارعُ بالبجارة.

كانوا رجالاً أكثر حماساً للجنس منهم للكحول؛ فكأنما  
كانوا صائمين عن اللحوم، وفيهم رغبةٌ قاهرةٌ شرهةٌ  
حيال المومسات.

كانوا بحارةً متسخين بالملح، محترقين بالشمس،  
وُحوشاً جيعاً.

رأت جوانينيا ما رأت فلم تلق للأمر بالأ، وأكملت طريقها.

لم يتحرش بها أحدٌ إذ كانت ذائعة الصيت.

كانت طيبةً جداً، لكنها كانت سيئةً كذلك.

مرت بينهم غير مبالية.

كان الرجال في كل مكانٍ. بعضهم يقف عند الزوايا،  
وبعضهم الآخر مستندٌ إلى نوافذ بيوت النساء، وآخرون  
يدخلون ويخرجون من تلك البيوت التي تغصّ بالضجيج

والضحك الساخر ورائحة الكحول، والغالبية تنتظر مفارقة النساء...

توقفت جوانينيا أمام نُزل عائلة مارغريدا بابو أماريلو.

دفعت جانباً عدداً من الرجال، وتفحصت أرجاء المنزل.

كان الباب موارباً؛ فاندفعت بجسدها متغلغلةً أكثر داخل المنزل؛ فكان الضوء فيها يُحضر فتظلم الغرفة؛ ضوءٌ قديمٌ شهوانيٌّ ككافيتيريا تلبى اهتماماتك.

ومن فوق الطاولاتِ انزلقت على الأرض مفارشُ الموائد المنقوعة بالكحول، والنساءُ جالساتٌ في أحضان الرجال.

كانوا يدخنون ويشربون ويضحكون من أعماق قلوبهم.

لا يتطلب الأمر سوى أغنيةٍ عاطفيةٍ لاستكمال فصول هذا الجو.

بصقت جوانينيا اشمئزاً.

وقعت عينها على شيكو الذي كان جالساً على طاولةٍ ككل الطاولات، مع امرأةٍ ككل النساء. حسناً، كما سبق لها أن ظنت. إنها ذاتُ المرأة الروسية التي كانت تفكر بها. كانت متبرجةً سكرى تتباهى بفخذيها الناصعين، وبشعرٍ أحمرٍ قد تموج بعد يومٍ من لقائه بالشرائط والمشابك الورقية.



اقتربت من الطاولة، ووضعت يديها على وركيها؛ فانتصبت  
المرأة من فورها، واتجهت نحو كرسيها مذعورةً.

سخر شيكو من جوانينيا .

- كيف حالك يا جميلتي؟

- تعال يا شيكو. لقد جئت لأخذك!

- اذهبي قبلي، وسأتيك لاحقاً.

- إذا لم تغادر الآن، فلن تعود إلى المنزل...

- صحيح.

أدارت له جوانينيا ظهرها؛ فأدرك شيكو أنها لا بد  
غاضبةً حقاً... أو لعلها تفتقده جداً.

غادرت جوانينيا عائدةً إلى المنزل؛ وتفرست في  
الرجال الذين اشتهاوا شبابها، ووصلت إلى أن الرجل  
أجشع حيوانٍ في العالم.

استغرق شيكو مزيداً من الوقت، ثم مد يده في جيبه  
وأخرج كومةً من الأوراق النقدية؛ فلاحظ أن عيني المرأة  
التي بجواره تزداد بريقاً؛ فدفع ثمن الشراب ونهض.

ألقى للمرأة ورقةً نقديةً من فئة العشرين ألفاً وغادر.  
لقد كان هناك ليلهو فقط، ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يدفع  
لهذه المرأة حتى، لأنه يعلم يقيناً أنها بمجرد خروجه  
ستلثم أيّ ذكرٍ آخر.



غادر شارع «المصبات الأربع»، والذي سميت بهذا الاسم نسبةً إلى أزقة الدعارة الأربعة فيه، وتوجه إلى ميناء روسادو.

ترك وراءه رجالاً جاؤوا من البحر جياًعاً للجنس.  
يريد البحارة اللحم، لأن البحارة هم البحارة.



## الفصل الثاني الحب

هكذا هم رجال البحر؛ عريضون ما بين المنكبين، مفتولو عضلات، سُمُرٌ، صادقون حينَ يضحكون، شجعانٌ في المعارك، محبوبون للنساء، بأفواههم يشربون، وكذا بأرواحهم؛ هذا وفيهم من الخصال مزيدٌ ومزيدٌ؛ فهم يتمايلون إذ يمشون، لأنهم يرثون من البحر بعض صفات البحر، ولأنهم يرتدون سراويل ضيقةً. صدورهم القوية تتوارى تحت قميصٍ شبكيٍّ مخططٍ أو آخرٍ منقوشٍ رخيصٍ. عن أيديهم، تتحسر الأكمام، فتترك الشمسُ في جلودهم أثراً، وفي الحزام، صياد أسماكٍ يتطلع للقتال.

اتسم شيكو بكل هذا لأنه كان بحاراً، والبحارة هم هكذا. إنه الآن يفكر. يفكر في جوانينيا. في جيب سترته

المصنوعة من الجينز دسّ لها هديةً اشتراها من متاجر عيد الميلاد. قبض على جيب حقيبته المتدلية على كتفه الأيسر وابتسم رضىً بوجود الهدية فيها؛ فقد كان يعلم أن جوانينيا كانت غاضبةً حقًا أو «كارهةً»، وأنها بحاجةٍ إلى الهدوء.

بالطبع كان يحبها بكل ما في البحار من ولاءٍ.

صحيحٌ أنّ لكلِّ بحارٍ زوجةً في كل ميناءٍ؛ لكنه في ميناءٍ من تلك الموانئ يفضل امرأةً على من هنَّ سواها؛ وذي هي حاله مع جوانينيا.

كان ذلك عن جدارةٍ ولردحٍ طويلٍ من الزمان. كانت تسمى ماريسيا<sup>(١)</sup> لأن جوانينيا<sup>(٢)</sup> تفسد الرغبات كالهواء المالح الذي يبصقه البحر على الأرض. لجوانينيا طعمُ الملح، وهي تحب ملح في جميع أنحاء جسدها. في كل مكانٍ. ثدياها القاسيان شامخان كأهراماتٍ من ملحٍ يعلوها منقارٌ داكنٌ، بل داكنٌ جداً، يحرس مذاقها المالح. تبسم شيكو. الليلةُ ليلتك؛ ولطالما كان الليل ميقاتاً لممارسة الحب والتفكير فيه. على هذا النحو يفكر البحارة.

حتى إذا بلغ بابَ منزلها الذي كان مغلقاً؛ وجد أن المصباح في الداخل لم يكن مضاءً.

(١) ماريسيا: رائحة المحيط. المترجم.

(٢) جوانينيا: الدعسوقة. المترجم.



نعم، لقد كان مغلقاً، لكن الأمر لا يحتاج منه أكثر من دفعة بسيطةٍ بواحدٍ من كتفيه فيستسلم؛ وحتى لو كسر القفل، فإنه يغيره في اليوم التالي بعد أن يضع خلف الباب كرسيّاً يبقى الليل بطوله.

هذا ما جرى فعلاً. لقد احتاج القفل لطريقةٍ قبل أن يفسح لشيكو المجال؛ فدخل فأشعلَ عود كبريتٍ، ودنا من الفانوس، ولفَّ الفتيل فأضاءتِ الغرفةُ، فنظر بشوقٍ إلى صورة القديس بطرس ذاتها وابتسم؛ والبحارة يحبون التبسم لصورة القديس بطرس.

استمعتِ العمّة كريستينا من داخل الغرفة إلى كل شيءٍ دار بينهما. كانت على أملٍ وثقةٍ من أن الكثير سيحدث في تلك الليلة، وانتابتها سعادةٌ بالغةٌ بالاستماع.

وبذا سمعت أن شيكو كان يشعر بالعطش إذ تحرك الكأس داخل الإبريق، وانسكب الماء على الأرض.

ثم طرق باب جوانينيا الذي كان مغلقاً أيضاً.

فأصاحتِ العمّة كريستينا السمعَ أكثر.

ربما ينفد صبر شيكو فيكسر الباب.

وذا بالفعل ما جرى.

هوى بكتفه على الباب. يبدو أنه اليوم مضطّرّ لكسر

كل شيءٍ.

وهبت جوانينيا بشراسةٍ لدى دخوله، وقالت:

- اخرج من هنا، عليك اللعنة!

لكنه لم يلتفت لمقالها، بل خلع قميصه بهدوءٍ وحشيٍّ وابتسم لها متمعناً بجسدٍ أسمرٍ تفوح رائحةٌ سخطة من تحت مترين من قماش المزرعة الرخيص. أكانت تظن حقاً أنه سيفوت فرصته لمجرد جلوسه مع امرأةٍ ليرويا عطشهما بقدحين من البيرة؟ كان على جوانينيا أن تفهم أن الرجال، إذ يأتون من جهة البحر، يجلبون طعم المد في أفواههم، وأن الجعة وحدها هي ما يمكنه إزالة هذا الطعم؛ فتعيّن عليه غسلُ فمه بأن شرب مع تلك المرأة. ثم إن الأمر لم يكن بذاك السوء أصلاً! فقد كان يعلم سلفاً أن جوانينيا ستعرف بمواعده للفتاة، وقدومه الآن للاغتسال ها هنا.

لكن ذلك لم يكن. حتى لو لم تفهم، فإنه لن يفوت هذه الليلة التي طال انتظاره لها.

انقضت عليه جوانينيا كقطعةٍ مسعورةٍ؛ فبدت أسوأ من قرشٍ اصطدم بشبكة روبيان.

- اذهب بعيداً أيها الشيطان!

- لا تكوني متوحشةً هكذا جوانينيا. لقد جئتُ لأمكث هنا، وسوف أمكث.



- هذا آخر مكانٍ قد تقيم فيه .
- سأنام هنا .
- اذهب ونمّ في زاويةٍ أخرى أيها المقرف . لا هنا .
- مهلاً جوانينيا . لقد أخبرتك توأً أنني سأنام هنا .
- اقترب منها فكشّرت له عن نابٍ ومخالبٍ، وهمّت به أن تصفعه فتحمشه؛ لكنه أمسك بمعصمها وأخذ يضحك .
- لا تكوني متوحشةً، جوانينيا .
- كان في صوت شيكو حنانٌ كبيرٌ وشيءٌ ما يشبه الاعتذار .
- لكن جوانينيا لم تفهم . حسناً، وإنّ شعرتٌ بذلك؛ فهي في النهاية امرأةٌ كأني امرأةٍ، ولن يقبل كبرياؤها الجريحُ تفهم شيءٍ الآن .
- إنّ كلّ ما تتذكره هو أن شيكو فضل مجالسة امرأةٍ أخرى على المجيء معها .
- شيكو؛ ارحلْ حباً بالله والقديسة لوزيا . اذهب بعيداً، وإلا سأقتلك .
- لكنه لم يغادر ولم يترك ذراعيها؛ فراحتِ الدموعُ تتدفق من عينيها البنيتين . لقد بكتٌ لأنها لم تعد قادرةً على كيل الشتائم له .
- أشفق شيكو عليها وأرخی قبضته فانفضت جوانينيا



محزرةً نفسها، وسرعان ما دستَّ يدها اليمنى تحت ذراعه  
شيكو فأمسكتْ بسكين الصياد، ثم ابتعدت عنه وضحكت.  
ضحكتْ ووجهها غارقٌ بالدموع.

لمع في ضوء المصباح الخافت نصل.

- حذار يا جوانينيا. هذا سيءٌ.

- اذهب بعيداً، شيكو.

- سبق ورفضتُ لك ذلك.

- سأقتلك، شيكو.

- تعالي الى هنا.

لكنه كان من دلف نحوها.

- الغضب يملكني!

نكست جوانينيا بعيداً نحو زاوية الجدار.

لكنه استمر في المضي قدماً، وأخفى عينيه متظاهراً

بالاستغراب.

وأشار بأصبعه إلى أسفل السرير:

- انظري إلى الصرصور يا جوانينيا.

- لا تكن حيواناً شيكو. لا ينبغي لك ذلك بعد الآن.

غادر.

- مهلاً جوانينيا. لن أطيّر لأنني إنَّ طرْتُ فلن أعود

أبداً. لهذا السبب نحن...



وقبل أن ينهي جملته، وثب على جوانينيا، فهوتِ السكين  
برفقٍ لتصيبَ ذراعه الأيسر مرةً أخرى.

لم يزعجه الأمر، وذو حالٍ البجارة.

ضغط على معصم الفتاة إلى أن أسقط السكين أرضاً.  
أما العمّة كريستينا القابعة في غرفتها كانت تحبس  
أنفاسها لتسمع جيداً ما يدور بينهما.

كانت في حالاتٍ كذي الحالات عاجزةً حتى أن تذكر  
الصلاة. بحق الجحيم! لقد كانت هي الأخرى فتيةً جميلةً  
ذات يومٍ.

ثم نفذ صبر شيكو؛ فاحتضن جوانينيا بين ذراعيه  
وألقى بها فوق السرير.

قاومت في بداية الأمر، لكن قوّتها خانتها بعد ذلك  
فرضخت. ذات يومٍ؛ كان يفصل بينهما انسجام مترين من  
الملابس الرخيصة.

أحبها شيكو بكل ما غرسه البحر فيه من حنينٍ للماضي.

كانت جوانينيا سعيدةً جداً، والدموع منها راحت تجف.

توقفت يداها عن الخدش، وراحتا تتحسسان ظهر  
شيكو المحترق.

ومارسا الحبّ.



بعد برهةٍ، أدركَ التعبُ شيكو فاستدار جانباً. كان مُضنئاً من أيام عمل فيها على متن السفينة في تحميل الرزم وتفريغ الأكياس في موانئ الشمال الشرقي؛ مُضنئاً من العمل راضياً بالحب الآن. كانتِ الجفون الكسلى تتسدل فتغلق العيون.

أما جوانينيا، فقد غفرت له كل شيءٍ، ونظرت إلى رجلها الذي ينام الآن كطفلٍ؛ وراحت تملس شعره الأسود الطويل؛ فقد تاقَت يداها للمس هذا الشعر. فتح شيكو عينيه وابتسم، وصوب يده نحو الأرض يفتش عن شيءٍ ما حتى وجده أخيراً. إنه السكين. رفع يده، وسلّمه إلى جوانينيا.

وضحك كاشفاً أسناناً شديدة البياض ليضع السكين على ثديي جوانينيا القاسيين ويقول لها بصمتٍ شبه تامٍّ:

- اقتليني الآن إن أردتِ...

أدار لها ظهره ونام.

لكنها لم تقتله. لا...



## الفصل الثالث

### ماكاو

كان الوقت لا يزال مبكراً جداً حين فتح شيكو عينيه.  
لقد تسرّب الضوء من خلال السقف وشقوق الألواح  
المستطيلة.

تمطى واستدار جانباً ليجد جوانينيا ماريسيا ترنو إليه  
فضحك كثيراً.

- ظننتُ أنك غاضبة!

- لا؛ أنت في مأمنٍ فعلاً؛ لكننا - معشر النساء -  
ضوارٍ أحياناً؛ فالمرأة هي المرأة.  
وداعبَ يدها.



- أنا لا أحب امرأةً أخرى، جوانينيا. لو أني ذهبتُ حينها، لكان ذا حُماً كبيراً.

- هذا لأنك تفتقدني حقاً.

- نعم؛ هو ذاك؛ فأنا لم أنسكِ على الإطلاق أصلاً.

ونهض فالتقط بعنايةٍ بالغةٍ ذاتِ العلبة التي أحضرها بالأمس، وأخرجها من جيب سترته، وأفرغ ما فيها ببطءٍ؛ فدنّت جوانينيا بفضولٍ.

- ما هذا؟

- إنهما لك.

كانت عينا جوانينيا تأتلقان فوق ثغرها الذي علتة ابتساماً.

- كم هما جميلاً، شيكو!

كانا قرطيين مزخرفين اشتراهما شيكو من متجرٍ خاصٍّ بعيد الميلاد.

- دعيني أزيّن بهما أذنيك.

اقتربت منه حتى باتت في متناول يديه؛ فوضع الأول والثاني حين استدارت فظهرت الأذن الأخرى، ثم استلقى على السرير ينتظر أن تشكره، ففهمت جوانينيا الإشارة، فارتمت فوق شيكو لاثمةً مقبلةً.



- أنت طيبٌ جداً شيكو. كيف لي أن أكرهك أصلاً.  
 وطفقاً يداعبان الفُروج، وأجمل ما في الحبِّ الفُروجُ؛  
 فهما آخرُ ما يداعبه أي حبيبين.
- سأشتري لك فستاناً آخر يا جوانينيا.
- ما لونه؟
- أتحبين لون اليقطين؟
- لا، شيكو. لون اليقطين يستخدمه التقليديون.  
 هل ترى أنني مجرد تقليدية؟
- فأشتري واحداً بلون الزيتون.
- لا أريد هذا أيضاً. ستبدو كملابس «حامل الصليب».
- أخضرٌ بحريٌّ إذن؟
- وذا أيضاً غيرٌ مناسبٍ. لا أريد واحداً أخضرَ لأنني  
 سأبدو به سمراءً جداً.
- اللعنة! لقد أصبحتِ مولعةً جداً بالموضة. لذلك لا  
 أعرف أيّ فستانٍ أشتري لك... ما خطبك؟ ماذا تريدان؟
- أنا؟
- وتضحك بمكرٍ.
- أريد الآن.
- فهم شيكو الآن. جوانينيا كانت تريد المداعبة...



- لكنّ إفراغ اليخت ينتظرنى .

- قليلاً فقط، شيكو .

وامتثل لها؛ فالبحارة يعلمون أنّ أحسنَ الحبِّ  
المداعبةُ ...

في وقتٍ لاحقٍ، عند الساعة الثامنة، نهض شيكو لتفريغ اليخت بينما كانت جوانينيا في المطبخ تشعل النار لقلبي قطعيتين من الأفودو لتناولهما مع عصيدة الطحين وصلصة جوز الهند. الهيجان طعامُ الفقراء، والجميع يعرف ذلك. ذهب شيكو راجلاً إذ كان اليوم صافياً ساطع الأضواء .

إنها ماكاو بضوئها الباهر؛ ضوء تخشاه العيون حتى تكاد تُغلق. كان يوماً حاراً جداً، والصيادون قد قصدوا البحر فجراً لأجل أعمال الملح.

كان الناس في ذهابٍ وإيابٍ، والنساء يغسلن الملابس في برايا دوس بيسكادوريس .

وآخرون اجتازوا بساتين المانجو على كتف النهر لإطعام الماشية؛ فيما لزم جلوس الشاطئ العديد من كبار السن الفاقدين للشجاعة والقوة لمواجهة يومٍ بحريٍّ مشمسٍ هناك، وهم يصلحون الأراجيح التالفة بوجوه برونزية خشنة ذات تجاعيدٍ خطّها النضالُ ضد الحياة والشمس. وجوه برونزية تتباين مع اللحي البيضاء. لقد شهدت عيون هؤلاء



الرجال من الحياة الكثير؛ وعرفت وروت أفواه هؤلاء الكثير  
من قصص الشاطئ والمد والجزر والرياح والأسماك.

هذا الجزء من ماكاو جزءٌ مختلفٌ، لكنه يُعتبر من  
مدينة ماكاو أيضاً.

فيه ترى أفقر جوانب حياة الأحواض الملحية. إنه  
ميناء روكادو.

قال العجوز ملاخاي، أكبرُ معمرٍ في مدينة برايا دوس  
بيسكادوريس، والتي تُسمى ميناء دو روسادو هناك، أن  
بستاناً كبيراً كان موجوداً في تلك المناطق، أما اليوم،  
وعلى الرغم من عزوف أهل ماكاو الغريب عن زراعة  
الأرض، إلا أنها لا تزال تسمى بميناء دو روسادو.

كان شيكو يمشي سعيداً إذ لا تزال في رأسه عذوبةُ  
ذكريات مداعبات الليل والصباح.

شعر بشيءٍ ما يدغدغ ساقيه، فنظر إلى الأسفل ليرى  
ليو، كلب السفينة الفحل الشرس.

- أنت سعيدٌ يا ليو؟

هز الكلب ذيله.

- يبدو لي أنك قضيت ليلةً كليلة شيكو، أليس كذلك؟

فهز الكلب ذيله أكثر.



- أين روسو؟

لم يكن ليو يمشي أبداً دون روسو؛ وسرعان ما نادى روسو على شيكو معصوب العين، فجاء بعين زرقاء منكمشة جداً.

- مرحبا روسو.

دمدم الآخر من الإجابة.

- أي وجه وجهك هذا؟

- لا يهم.

- يبدو أنك على ميعاد...

- كنتُ.

كان روسو مستاءً جداً أن أمضى الليل المنصرمة في مطاردة امرأة عاد منها بحُقي حنين.

- أنت امرؤٌ محظوظٌ جداً، شيكو...

كان شيكو مبتهجاً فسأل مازحاً:

- ومارغريدا بابو أماريلو؟

- ذهبتُ لموعدها، ولكن...

- كانت هناك؟

- نعم، ولكنها زعمتُ بأنها لا تستطيع تلبيتي.

شعر شيكو بالأسف على صديقه روسو الذي لا يتقن



سوى الحديث عن النساء، فتراها شاغلاً فكره الرئيس. لا بد أنه يائس حقاً؛ ولذا غير الموضوع:

- هل سيبدأ السيد أنتا في التفرغ اليوم؟  
- فلنذهب لنصل في الوقت المناسب.

دخلا شارع فرونت والأسد يمشي بجوارهما، أما الميناء فكان مكتظاً بالقوارب والمراكب الشراعية التي وصل بعضها إلى الميناء، ونشر بعضها الآخر أشرعتة مغادراً.

كانت القوارب في كل الأوقات تصل حاملةً للسكان المياه من شاطئ باريرا؛ فترى حشوداً من نساء متسخات متعرقات ملفوحات، بصدورٍ مترهلة، وأيدي ووجوه متجمدة، يقتربن من القوارب للحصول على نصيبهن؛ وكذا يفعل الفتية والأطفال، بل لعلك ترى ذات كبار السن الذين سبق أن أحجموا عن الذهاب إلى البحر قد احتشدوا هنالك طلباً للماء.

ماكاو: كلابٌ وأطفالٌ وملحٌ. ماكاو: نقص مياهٍ ومخللاتٌ وفقراً.

يعرف هذا الكلام كل من خبر السواحل الشمالية الشرقية، فهي أكثر المقاطع تكراراً في أبجدية المدينة؛ تلك الأبجدية المترعة بالبؤس، المحرومة من التعويضات. إنها مكانٌ تحاول فيه حكومة المدينة الفقيرة جداً القيام بشيءٍ



ما، شيءٍ لا تفعله في الغالب.

عندها سمع شيكو العجوزَ سويًا تغني. من في الشمال  
لا يعرف أسطورة سويًا؟

يقال إن سويًا كانت قديمًا سمكةً جميلةً جداً وجريئةً جداً  
كذلك.

وفي يومٍ من الأيام، أرادتِ السيدةُ العذراءُ الإبحارَ،  
فنزرتُ للمياه وسألتُ:

- سويًا، أمرتُفُ المدُّ أم هو منخفُضُ؟

دارتُ عينا سويًا المتبجحةً متهكمةً من السيدة العذراء،  
متحدثةً بنيرة ساخرة:

- سويًا، أمرتُفُ المدُّ أم هو منخفُضُ؟

فعوقبتُ أن ظلتُ عيناها على ذات الجانب، وأن بقي فمها  
ملتويًا إلى الأبد. عموماً؛ لم تعد تتمتع بذات الأناقة السابقة؛  
فباتت سمكةً صغيرةً ذليلةً بائسةً. إنه الجزاء.

لكن سويًا التي سمعها شيكو لم تكن كذلك بالضبط؛ بل  
كانت شيئاً آخر. إنها امرأةٌ عجوزٌ هاجرت من مدينة ناتال،  
وظهرت هناك تبيع أعشاباً برية تشفي من كل داءٍ. على  
رأسها سلّةٌ ضخمةٌ تتدلى منها الجذور وأوراق العشب ولحاء  
الشجر. إنها سويًا العجوز التي عرفها الجميع حانيةً الظهر،  
جعداً الجلد، جافةً الساقين؛ ولذا فمدھشٌ أن تحمل مثل



هذا الوزن الثقيل على رأسها . كان لعينيها الصغيرتين ضوءٌ  
لا حياة به؛ ضوءٌ ذابلٌ كعيون الموتى؛ أما الوجه فكان منقبضاً  
كأنما هو حبة كاجو، والشعرُ منها متسخٌ عديم اللون تقريباً،  
وقد انتهى بكعكةٍ رقيقةٍ في مؤخرة رأسها .

كان لسويا العجوز صوتٌ تمتاز به؛ صوتٌ صلبٌ جميلٌ  
موسيقىٌ ينضح بأغنيةٍ ذات طابعٍ محلي؛ فما أن تفتح  
فمها الأدرمَ حتى ينبعث من الحنجرة الجافة صوتٌ دافئٌ  
يتردد صدهاء في كل ركنٍ من أركان نهار ماكاو الأبيض  
الناصح:

من يشتري ... كاتينجويرو

جوا ... سفرجل ...

لحاء ... كومارو ...

كوبينا-كوبينا ... مولونجو ...

أنجليكا ... سيمينتي دي إمبيرا ...

موتامبا ... أميسكا ...

انجيكو ... لحاء الصنوبر ...

أعشاب التخدير

فلفل ... فيلام ...

ليمون ... موسامبي ...

رأس العبد ...



بطاطا مهروسة و

صمغ... كزبرة...

تبيبي كاتوكا

توقفت عن الغناء ونظرت حولها. لقد باعت العجوز  
الصحة بالأعشاب البرية.

- من يشتري الصحة؟

الكل يشتري. اقترب زبونٌ من السيدة العجوز وسألها:

- أنا، أيتها العرابة، هل لديك بطاطا مهروسة؟

فراحت تغني مجدداً حتى إذا ما وصلت إلى البطاطس  
المهروسة توقفت.

- نعم عندي.

ولو صادف أنها كانت في منتصف القائمة، فطلب  
الزبون عشبةً في بدايتها، لأوقفت العجوز بهدوءٍ تام كلَّ  
شيءٍ، لتبدأ في التوقف مرةً جديدةً عند اسم العشبة  
المطلوبة. تلك كانت سويًا العجوز. عند كل توقفٍ لها  
كانت تبحث عن زبائن فتري التوقفات توافق ذات العشبة،  
أما الإيقاع فكان كما هو، لأن الأغنية أغنيتهَا، ولحنها  
لحن حياتها. نظر شيكو إلى المرأة العجوز التي ضاعت  
في نهار ماكاو شديد السطوع. للضوء الزائد في ماكاو  
نعمةٌ أبديةٌ. لا يمكننا الآن أن نميز من بعيدٍ أكثر من



صورتها الظليلة الغربية: أرجلها النحيلة، والسلة الضخمة  
فوق رأسها، وصوتها الذي كان ذا صدًى ضعيفٍ يختفي  
في نهاية الشارع تقريباً...

سودورو

كاتينغو... رو

ماميد... لي... رو

كوما... ر... و.

واختفت سويًا العجوز، واغرورقت عينا شيكو بالدموع.

سودورو، كاتينغورو، فيلام، أنجيكو، كومارو... سيرتاو...  
تربةٌ جافةٌ... لكن شيكو لم يرد أن يتذكر... قال له السيد  
أنتاو:

- كيف حالك شيكو؟ أفلنْ نهونْ الأمر؟

نزع قميصه وأدار للشمس ظهره، وشرع في تفريغ  
اليخت، فطرح الرزم والأكياس على كتفه لينزلها أرضاً  
على لوح خشبي. كانت مياه نهر أكو حاضرةً تراقب كل  
شيء؛ فتعكس صوراً لأجساد الرجال القوية المنحنية  
تحت أكياسٍ تزن ستين رطلاً. نعم؛ لقد ظلت تراقب  
الرافعات البشرية وهي تحرك عضلاتها، فتتلقى أحياناً  
قطراتٍ من عرقٍ يقطر من أجسادهم فيختلط بمياهه  
النقية. وعندما تعبت المياه، انصرفوا يغيرون أماكنهم،



فنزّلوا إلى أحواض الملح داخلين ممراته، متجولين حول  
البرك ليشهدوا الحياة الرهيبة. كان الرجال الآخرون  
أكثر بؤساً ممن يحملون الأوزان على ظهورهم. إنهم رجال  
الملح؛ ولذا فهم يصورن مشهداً طبيعياً مختلفاً؛ قمماً  
بيضاءً وأهراماتٍ صلبةً من ملح، بل حيواتٍ بيضاءً بيضاءً  
لا يضاهاه بيضاءً، حيواتٍ بيضاءً لرجالٍ سفعتِ الشمسُ  
جلودهم...

من بعيدٍ، تُسمع لطواحين الهواء إذ تسحب المياه  
من أحواض الملح أصواتُ عواء الرياح حين تهب على  
شفراتها...

كذا كانت ماكاو...



## الفصل الرابع العيد

**كانت** مارغريدا متحمسةً للغاية. إنها مارغريدا بابو أماريلو، أو مَنْ كانت تسمى روا داس كواترو بوكاس. في شارع الخطايا السبع وبعض الخطايا الأخرى.

كانت سعيدةً أنّ سيصادفُ غدُها يومَ سانتا لوزيا في ١٣ ديسمبر. إنه يوم العيد. كانت القواربُ تتوافدُ بأعدادٍ كبيرةٍ حتى غصَّ المرفأُ بالأشعة المجهزة، وهي علامةٌ على احتشاد الكثير من الرجال على الشاطئ، وذا كلُّ ما تحتاجه هي وبناتها الصغيرات: الرجال. رجالٌ أتوا من البحر والنقودُ في حوزتهم.

لكل شخصٍ على تخوم البحر قصةٌ؛ أما قصةُ مارغريدا بابو أماريلو فكانت طويلةً وشائعةً جداً.

لكنها؛ بطبيعة الحال، أضفت على قصتها شيئاً فانتازياً بلطخاتٍ رومانسيةٍ خفيفةٍ؛ وبينما هي تحصي اللطخاتِ تلك، كانت تضي على صوتها نغمةً مؤثرةً، وتدير عينيها الكبيرتين بشكلٍ مقنعٍ، فتدحرجهما داخل الجفنين المنتفخين كأنما هما صفارا بيضتين يطفوان فوق بياضيهما. إنها بالأصل من ترازومونتس، وقد تزوجت من برازيليّ (في ذلك الوقت كانت تنظر إلى محيطها بطريقةٍ توحى بأنها تقول: «آه! البرازيليون هم الجناة المسؤولون عن سوء حظ وكآبة مارغريدا اللطيفة!»)، ثم جاءت إلى البرازيل؛ لكن زوجها لم يقبل أية صلةٍ بعملٍ شريفٍ؛ فقد كان شخصاً همجياً جهاراً نهاراً، أما في الليل المظلم فهو أكثر بربريةً من ذلك؛ وبذا جاء يومٌ أخذته فيه الشرطة بعيداً؛ فنقله إلى العالم الآخر سجنُ الشتاء البارد ورائحةُ الزنزانة الرطبة، ثم توقف وصاح في مستمعيه: «فليرمكم الشيطانُ في أعماق جحيمه! أيها الأوغاد!».

لذا فقد ناضلت في سبيل معاشها بضراوةٍ؛ فعاشت فقيرةً أرملةً عزلاءً بلا تأمينٍ؛ ثم عانت إلى أن حصلت على وظيفة في مستشفى عملت فيه ثلاث سنوات؛ لكن الأمر لم ينجح تماماً. لا بد أن مارغريدا قد اكتسبت كل الكسل البرازيلي من زوجها، وكل شحوم الخنزير البرتغالي. لكن الأمر استغرق منها ثلاث سنواتٍ لاكتشاف أنها كانت تستمتع طوال الوقت، وأنها



كانت تناصب الجميع العداة. وأية لغة لها! يا لها من سرعة في الكلام! لم يكن لأحد أن يغلبها في ذلك. إنها فظيعة. فتحت لها الحياة الباب مرة أخرى فشعرت بالوحدة؛ بل بكامل الوحدة والعجز في عالم بدا كبيراً جداً بالنسبة إليها. أن تعود إلى البرتغال؟ ولكن كيف؟ أعود بحياة ملطخة كتلك الحياة؟ لا. أبداً. الموت خير لها من أن تناضل مرة أخرى. ثم إنها لم تكن مسنة جداً؛ وذا كان سبب ظهور رقيب إطفائي في حياتها، ومن بعده... بائع خضار محلي... وما الداعي لاغتيابنا حياة الآخرين؟ ومع ذلك، أقل ما يمكننا قوله هو إن عددًا كبيراً من الرجال جاء، كل على حدة، ليثبتوا أن مارغريدا لم تكن في الحقيقة عجوزاً.

وجدت نفسها في شوارع مانجو - كأبي أجنبي - بلا عمل ولا بطاقة احترافية؛ سلطعوناً؛ سلطعوناً؛ أي شيء يبدأ بحرف السين؛ ثم مبتدلة؛ ويا لها من طريقة ابتدال! وعلى هذا النحو، عملت بشكل جيد؛ وإن لم تعمل، فقد كانت على الأقل منتجة بشكل مرض. لقد حاربت بالطبع نصف العالم؛ فخلف هذا العديد من الرجال برضوض سود حول العيون، والعديد من النساء بلا شعر، فلم تتلق شتيمه في غرفتها إلا انتصفت نفسها بضربة لا ترد.



وفجأة، اندلعت في مانجو آخرُ صيحات الموضة؛ فكانت الأناقَةُ في الهجرة إلى الشمال؛ فهناك، وفقاً لمصادرٍ مختلفةٍ، موطنُ الرجالِ المتسكعين، والنساءِ المثقلاتِ بالذهب. للجنوب تنتمي جميع بيوت الدعارة الكبيرة، وله ينتسب الأغنياء لأن النساء الجنوبيات حتماً هن الأقدَرُ على التواصل الاجتماعي والانخراط في الأعمال.

في أحد الأيام، غادرت مارغريدا ملوحةً بحزمتين وشيءٍ آخرٍ إضافيٍّ. إنه حزمةٌ ثالثةٌ محشورةٌ بين الاثنتين الأخيرين. لقد وصل إلى ريسيبي ذات صباحٍ مغبرٍ صنفٌ ثالثٌ لا يكلُّ من سفن لويد القديمة.

ها هناك الكثير من الكافيتريات على عكس ما يُشاع. إنَّ كانتِ امرأةٌ جديدةً... وباتت هنا، فإنَّ عليها أن تدافع عن نفسها؛ كما سرت أيضاً شائعةٌ أخرى تقول بأنها إنَّ ذهبَت لعيد الميلاد... فسيكون عليها ذلك أيضاً. هو ذات السيناريو. ولاختزال القصة؛ إنها قصةٌ عاهرةٍ عجوز انتهت بها المطاف في ماكاو بعدما منحها وأقحمها الرب الرحيم في ذي الحياة المبهرجة.

هنالك اتخذت قرارها بأنها لن تخرج من ذي الحياة مرةً أخرى؛ فالحياةُ تمضي، وعليها أن تحصل على شاطئٍ آمنٍ لشيخوخةٍ تستحق الراحة؛ وإذ لا شيء أفضل من الميناء، فقد رست هناك.



لديها الآن أفضل راتبٍ للنساء في ماكاو. لقد قاتلت بضراوةٍ وصارعتٍ وضربت؛ وتشاجرت مع رجالٍ مصابين بحروق الشمس. بيد أن لها بناتٍ صغيراتٍ قادتتهن إلى هوةٍ رهيبيةٍ. إن كان عليها أن تتعاطى مع إحداهن على طريقتها، فإنها تضربها بشدةٍ وتستخدم معها كلماتٍ نابيةً، أو تخنقها، أو تركل الفتاة على مؤخرتها.

إنّ الزمن الذي يجعل من هنّ فوق الأربعين أكثر ذكوريةً، قد منحها بضعة أرطالٍ إضافيةٍ من الشحم، وزغباً حول شفيتها، وذقناً دهنيّةً مزدوجةً أكثر، وبفضل قوة تسمير الشمس الاستوائية، فقد اكتسب كتفاها الأبيضان الأوروبيان لوناً باهتاً مصفراً.

لقد كانتٍ مخيفةً؛ لكنهم قالوا إنّ قلبها طيبٌ. لم يرضع حليبها الرغويّ أحدٌ لأنها كانت أسوأ من وحشٍ. كانت تمساحاً؛ تمساحٍ بحيرةٍ أصفر الصدر. وإنّ هنالك من وجد تشابهاً بين صدر التمساح وصدر مارغريدا، وهذا شبهٌ آخر بين الاثنين؛ تعلق بها هذا اللقب إلى درجة أنه لو ذكر شخصٌ ما مارغريدا بدون إضافة «أصفر الصدر»، فلن يعرفها أحدٌ.

تتجول مارغريدا ذاتها الآن في كل مكانٍ. سيحمل الغد احتفالاً بيوم سانتا لوزيا إذ سيتوجون ملكة نادي النجوم في بورتو دو روكادو، وسيكون الحفل راقصاً، والمهرجانُ

اليومَ مزدحماً للغاية. باختصارٍ، سيكون هنالك رجالٌ كثيرٌ.

كانت بحاجةٍ إلى تنظيفٍ نزلها بشكلٍ لائقٍ حتى يكون كل شيءٍ جاهزاً عند توافد الرجال؛ فالرجال يقدرّون النزل الذي يُعتنى به جيداً. هم؛ على أقل تقديرٍ، سيحبون هذا الانطباع الأول عنه، لكنهم سيكونون أول من يُحدث فيه الفوضى.

استدعتِ الفتياتِ وتفحصتهن بعنايةٍ مفصلاً مفصلاً.

- أنت يا بيلينيا؛ تحتاجين لرفع شعرك؛ ففي الرجال، كما تعلمين، ضعفٌ خاص أمام الأذان والرقاب!

- اللعنة! ماريتا، تحتاجين إلى النوم أكثر قليلاً، واستخدمي ليلاً مزيداً من مسحوق الأرز لإخفاء تلك الهالات السوداء...

- تشينينا، تعالي إلى هنا. اسمعي: أنت ابنة اثنتين وعشرين ربيعاً! أبهذا العمر وثدياك يلطمان ركبتك؟ العمر الذي تصبح فيه المرأة بقرةً حلوباً هو عمري؛ أما أنت ففي الثانية والعشرين، فارفعيهما، فإنّ الرجال ليسوا ثيراناً...

كارلوتا. نعم، أنت في الذروة!

- ليلي المسكينة! عليك أن تخففي من العمل؛ فأنت نحيفةٌ جداً...



ثم استأنفت بعد التفتيش خدماتها. كانت أولئك الفتيات ملائكة؛ لقد دفعن أجر المسكن، ومع ذلك ما زلن يدفعن عشرة بالمئة من مردود الإثارة.

بينما كانت تقوم بإعداد حوض الاستحمام بطستِ اليقطين، أحضرتْ منشفةً وصابونة ليفر، ماركةِ النجوم، وأشياء كهذه. كانتِ اليومَ هادئةً إذ ستجني من ذلك دخلاً جيداً وربحاً وبيعاً. سيأتي الرجال بالتأكيد؛ ولذا كان معاشها التقاعدي المعاش الأكثر تميزاً في ماكاو. كانتْ معروفةً بنظافتها وممارساتها الصحية، وبالنساء الطبيبات عندها. لم تدخل كل النساء منزل مارغريدا؛ بل اختارتْ منهن الكثير وطالبتْ بالمزيد. لم تأتِ السوداء، ولا المرأة التي في ساقها ندبةٌ جرح، ولا النحيفة وذات فقر الدم. هؤلاء كنّ غالباً ما يبدين موافقاتٍ للمطلوب، ويتلقين راتباً أعلى، لكنهن نُبذن بلا رحمةٍ تقريباً. لقد أرادتْ الكاملاتِ منهن فقط؛ بل اللاتي تجاوزن الكمال؛ ولأن معاشها التقاعدي هو الأفضل في ماكاو، كان عليها أن تفعل كل ما في وسعها للحفاظ على سمعتها الجيدة...

بدخولها الحوض أحدثتْ مداً وأوشكتِ المياهُ أن تفيض، ثم اتخذتْ أفكاراً مارغريدا منعطفاً مختلفاً؛ ففي الغد يومٌ سانت لوزيا. سانتا لوزيا التي كانت تحمي أعين الصيادين وعمّال الملح. كان الرجال على امتداد شواطئ



الشمال الشرقي من الورعين المخلصين لسانتا لوزيا. غداً تذهب مارغريدا إلى الكنيسة لتتلو صلوات كثيرة، وتضيء شمعة كبيرة جداً للقديسة كي تظل عيناها في حرز لا ينقطع. من المحزن جداً أن يفقد المرء بصره؛ فكثير ممن نسوا الصلاة لسانتا لوزيا، وعملوا في أحواض الملح ظلت عيونهم ترتجف إلى الأبد.

عندما حلّ الظلام، جرّب العاملون في أهرامات الملح، ومعظمهم من سكان المناطق النائية الفارين من الجفاف، حظهم. لقد عاش هؤلاء الرجال بأجسادهم فقط، أما حينهم إلى الوطن فقد حطّ الرحال في الريف؛ من المناطق النائية الخضراء بالكامل؛ من المناطق النائية التي تُسبّ خضرتها للون شجر الكيشابا والراديشي. ثم يجلبون بعد ذلك حجارة ملح صغيرة من ذات الحجم؛ فتكون هنالك اثنا عشرة قطعة ملح؛ واحدة لكل شهر من شهور السنة؛ فيضعونها على ورقة موز أو جريدة ويتركونها وشأنها؛ وذلك اقتداءً بأسطورة سانتا لوزيا، وتفتح قلوب البسطاء بإيمانٍ راسخٍ في ليلة الأمنيات.

كانوا في اليوم التالي ينظرون إلى الصخور الملحية التي حطمها ندى الليل؛ فقالوا إن هذا الشهر سيكون جيداً.

لم يفسلوا في ذلك قط.

في سنوات الجفاف الرهيب الذي اجتاحت المناطق



النائية بلا رحمة، لم تكن عشيّة سانتا لوزيا تُفوّت أبداً. كانت الأحجار تظهر بذات الطريقة التي وُضعت بها؛ وكانت عيون البسطاء تنهمر بكاءً؛ فالريفي المحاصر في أحواض الملح وعبودية الجسد البعيدة عن حياة الريفي الحرة والمجهولة، هو من يرسم ملامح قدر سانتا لوزيا بحبه لمن لا يزالون يعيشون على جحود الأرض، وبرغبته في أن يكون الآخرون سعداء، لأنهم لا يملكون زمام سعادتهم تلك. لقد بكوا عندما قالت سانتا لوزيا إن الجفاف آتٍ.

خرجت مارغريدا بابو أماريلو من الحمام، ونشفت جسدها وشرعت بارتداء ملابسها وتسريح شعرها الأسود تقريباً بفضل مستحضر يوفنتود ألكسندر لصبغة الشعر؛ ثم أسدلت على بدنها ثوباً أخضر فبدت كضفدع وغادرت.

عبرت مارغريدا بابو أماريلو الغرفة مرتديةً فستان الضفدع الأخضر، في استعراضٍ منها للوطنية البرازيلية، وقالت للفتيات:

- أيتها الفتيات الصغيرات، كنّ مستعدات؛ فاليوم سيكون يوماً رائعاً.

- كم أنت جميلة، مارغريدا!

- أهلاً بكنّ أيتها الفتيات! لطالما كنتُ كذلك يا فتيات.



- نعم؛ لكنك اليوم أبهى!

ضحكت وحدقت في النساء بحنانٍ.

- انا ذاهبةٌ إلى المهرجان لأطلب المزيد من البيرة،  
وألقي نظرةً عليه، وأتضرعُ ببعض الدعوات اللطيفة.  
أراكنّ لاحقاً أيتها الفتيات.

في الخارج، كان النهار ساطعاً بشكلٍ رهيبٍ. أيامٌ ماكاو  
هي ذات الأيام المفعمة بالضوء المؤذي للعيون، والكثير  
من الشمس التي تسفع الجلود؛ بل تحرق القلوب؛ فبشكلٍ  
غير محسوسٍ، تُتعب العينان الحاجبين وتسببان تجاعيد  
الوجه؛ فتلك الشمس هناك صفراءً ثابتةً غيرٌ مباليةٍ،  
كأنما هي تصب الرصاص المُذاب على النهار والحياة.

كانت مارغريدا في طريقها إلى مهرجان بورتو دو  
روسادو، وهي تعلم أن جميع البحارة اجتمعوا هناك، وأن  
كل الرجال أتوا من البحر لعيد سانتا لوزيا.

كان المهرجان مكتظاً بالناس.

ظهرت العجوز سويًا والسلةُ على رأسها، ووقفت جانباً  
تبيع. حطّت السلةُ على الرمال البيضاء وبدأت بتوزيع  
الأعشاب الطبية على القماش المشدود، وبقيت هناك بحيث  
ترى فتشارك علاجاتها ليرتاد مجلسها من خذلتها العافيةُ  
فيشتري منها الدواء الناجع.



كانت من حينٍ لآخر ترفع رأسهاً تريصاً بالعابرين.

- مرحباً أيتها العرابة.

أجابت ونظرت مجدداً إلى الناس، وغتت هذه المرة  
بصوت من ناهز الثمانين عاماً:

من يشتري...

جوا...

جوكا...

كوينا كوينا...

انجيليكا...

موتامبا...

بدا كأنما الصوت الحاد الذي ملأ المهرجان بأكمله  
يمنتزج بسطوع الشمس في الأعلى.

ونُصبت الخيام التجارية، ودخل الناس يجزّون حميراً  
تحمل الصلصال؛ ومن الخيام تتدلى مزارعُ فهودٍ رخيصةٍ  
ذات ألوانٍ زاهية تتمايل في مهب الريح؛ فترى الناس  
يحملون آلاف الحلّي.

كان السيد أدريانو هناك يحمل فوانيسَ بمصابيح  
محصنةٍ قد طُليت أرجلها بلونِ كلون الأفوكادو الأخضر؛  
واختلطت الأصوات اختلاطاً الناس.



- فولٌ أسمرٌ؛ ثلاثة ظروفٍ في اللتر!
- طحينٌ صمغيٌّ مجاني، أيها الزبون!
- انظروا إلى التابوكا الجيدة!
- من يريد شراء غرابيل بأليافٍ برية؟
- ها هنا أرجوحةٌ من خيوطِ نخيلٍ سيارا. لدينا دانتيل أيضاً أيتها الشابة. الدانتيل الذي يجعل العروس جميلةً كلوحة القديس!
- وتوغلت في الدانتيل يدُ الفتاة النحيلة فرأت في الشمس رقتها.
- وكانت يد تاجر الملح تصل إلى كيس الفاصوليا ليرى ما إذا كانت فاسدةً.
- كانت الأكياس الملفوفة تفرغ، فكأن فوهاتِها شفاهٌ بارزةٌ كأفواه الجراح.
- انظر إلى البيغاء!
- من سيحالفه الحظُّ مع الفجر؟
- ققازاتٌ منسوجةٌ!
- قرعٌ! قرعٌ! قرعٌ كابوكو لشرب الحليب!
- إنه هجينٌ. حسناً سيدتي. إنه مجانيٌّ. من يشتري مروحةً يدويةً.



وكانت طيور الرمل تمر بضعفائها المربوطة، وشعرها  
المعطر بزيت الجوا الذي ذاب بفعل أشعة الشمس  
الحارقة.

كانت رقعة الشطرنج قد مُدَّت.

- العبوا يا قومي! العبوا!

اللعب هو العمل.

السحلية خلف الأفعى.

جُنَّ الصبي.

عندما تشاهد لعبة ولا تلعب...

- مئتا ريالٍ في الستة!

- واحدٌ من إثنين متصالبين!

- انتهت اللعبة!... واو... الثلاثة... لم يلعب أحد!

ويمر الناس فيصطدمون بكل شيءٍ، وترى رجالَ  
الشرطة بالزّي الأصفر يموتون رغبةً في الامسك بأحدٍ  
ووضع الأصفاد في يديه.

مرت مارغريدا بخيمةٍ.

- هيه! مارغريدا بابو أماريلو!

توقفت واستدارت وكانت على وشك أن تصلي للوحة  
الأم الجدارية، وإذ بها أمام شيكو وجهاً لوجه.



- أنت هنا! يا لطاعون الشيطان!
- تعالي هنا، اتبعيني، تعالي نحتسي مشروباً معاً.  
ضمّ مارغريدا وربّت على كتفها.
- انت جميلةٌ كالكسكس! أعطها إصبعين لتلعهما، سيد غابرييل.
- لعتّ مارغريدا قطرتي شراب بإصبعيها، وتحسسته  
بلسانها، فبرقت عيناها.
- إصبعاً صغيراً آخر؟
- أنت وحشٌ، بل شيطانٌ يا شيكو! قطعةٌ للمنزل! متى  
ستزورني في منزلي؟  
فقهقه شيكو ضاحكاً!
- ألا يكفي ما حدث بالأمس؟
- هل أخذت منها الكثير، أيها الوغد؟
- قالت هذا لأنها استطاعت أن تخمن تماماً ما حدث  
بينه وبين جوانينيا ماريسيا. نظرت إلى ذراعي شيكو  
المفتولين القويين فكادت تنسى حيناً كانت فيه فتيةً.
- لقد تعرضت للضرب بسكين، ولكنني وجهت لها ضربةً  
قاسيةً بعد ذلك؛ وهذا نزولاً عند رغبتها طبعاً.
- الأمر كذلك؛ فالمرأة عندما تهوى رجلاً تغدو أشرس



من « كلبٍ وُكز بعصاً »!

- لكننا نعرف ما يردن فنعالج الأمر حالاً.

فجأة، حدقتَ مارغريدا بابو أماريلو في شيءٍ ما فأضأت مكرراً لما رأَتْ عيناها؛ فأتبعت أنظارُ الشاب جهةً نظرهما فرأى ما ترى.

حبس شيكو أنفاسه.

كان فايانو يقف شابكاً يديه على مسافة أقل من خمسة أمتار في الجهة المقابلة.

نعم، فايانو، ملك مصارعة الأيدي، وأقوى رجلٍ عرفته موائى الشمال الشرقي. لا يزال على مرأى من الجميع يحمل على خصره سكينه ذا القبضة التي تشبه البوق، والتي تحمل تصميماتٍ محفورةً بالنار. إنها السكين التي انتقلت عبر الزمن من يدٍ ليدٍ، مروراً بجميع أبطال مصارعة الأذرع الحديدية.

لقد احتفظ به فايانو لخمس سنواتٍ إذ مرت سنواتٌ عدةٌ منذ أن أراد أي شخصٍ تحديه، لأن على من يتحدى ملك مصارعة الأذرع أن يوافق على شروطه، وهذا معلومٌ للجميع، فلم يرغب أحدٌ في أن يوصف بالمجازفة بما تبقى من عمره.

قام شيكو بمسح يده اليمنى ونظر إلى الكتلة التي



أحدثتها الجمرة التي تركت فيها فراغاً لسنواتٍ عديدةٍ. بدا الأمر كما لو أن ألم الكيّ بُعث مجدداً؛ لكن الحرق الأكبر كان شيئاً آخر؛ شيئاً يتعلق بحرقه الهزيمة، وذل تحدي ملك مصارعة الأيدي، والتعرض للأذى بهذا الشكل. لقد صاحبه شعورٌ باستياءٍ رهيبٍ ظلّ يذكّره بعبارة فاييانو: «والآن، يا صغيري، لا بد أنك بتّ تعرف قدر الرجال!...»

أقسم بألم الحرق أنه سينتقم فيغدو ملك مصارعة الأذرع، وأنه سيضع السكين ذا المقبض القرني حول خصره لسنواتٍ. دمعت عيناه؛ لا دموعٌ ألمٍ بل دموعٌ غضبٍ.

كانت مارغريدا بابو أماريلو ذاتها، والتي هي الآن إلى جانبه، قد وضعت حينها روث بقرٍ طرياً على حرقه اتقاءً للعدوى.

قال شيكو لمارغريدا:

- أعلم أنك تنظرين، أيتها اللعينة! وأعرف ما تفكرين فيه! هل تعلمين ما سأفعل؟ سأكويه بدوري. وكشفَ الندبة الداكنة. سيدفع ذاك اللعين الثمن حتى لو فقدت يدي.

مشى نحو فاييانو بعينين تتألقان.



أما مارغريدا بابو أماريلو فكانت متوترةً إذ تعرف أن  
في أمر مفتول العضلات ذاك حيلةً. مكثت للحظةٍ ثم  
تبعثت شيكو.

توقف أمام فاييانو، ووضع يده على وجهه وسأله  
بسخرية:

- هل تذكر من أكون؟

حذق فاييانو في وجهه؛ ثم نظر إليه من أعلاه إلى  
أدناه؛ وبصق على الرمال كرة تبغ كان يمضغه ثم مسح  
بقبضته اللعاب عن فمه وسأل:

- ألم تتعلم بعدُ يا ولدي؟ ألم تتعلم ألا تلعب مع مفتول  
العضلات؟

- لا، فاييانو. الان حان دورك! حين أصلك تصيرُ ذي  
السكين من نصيبي.

تسبب هذا الأمر في تجمّع الناس وتجمهرهم. شق شيكو  
طريقه بين الحشود متجهاً نحو طاولة كانوا يلعبون عليها  
لعبة بوزو، ودون أن يطلب الإذن، وصل فتناول القماشة التي  
تحمل النرد فألقى بها كلها على الأرض؛ وحمل الطاولة على  
كتفه واتجه نحو فاييانو.

وضع الكرسي على الأرض، ومزق القميص فبدا  
للجمهور التمثال العاري المحترق المفتول. وبفعل العاطفة



بدا الأمر كما لو أنّ عضلاته الكبيرة تكاد تمزق الجلد لتقفز من جسمه. كان شيكو جاهزاً قوياً كثورٍ صغيرٍ غاضبٍ من الندبة؛ وكانت عضلات عنقه تهتز. لا بد أن روحه كانت تحترق بنيران جميع النفوس القابعة في قعر الجحيم.

كان فاييانو صامداً هادئاً، فتمتم وقال:

- لا عليك يا ولدي. لعلك ترتجف خوفاً؛ ولذا سأمنحك دقيقةً لتتوب...

- اخلع قميصك يا فاييانو. لا بد أنك الخائف. كلامك غير مقنع!

حينها صرخ الناس:

- هل أنت مسترخٍ يا فاييانو؟ لقّنه درساً آخر!...

نظر فاييانو حوله وقال:

- حسناً.

بدأ في فك أزرار قميصه، واستؤنفت صرخات الحشود، فكأن كل مرتادي المهرجان قد اجتمعوا هناك، ثم تلاشت صرخات الناس ونداءات التجار والباعة المتجولين. لقد أراد الجميع أن يشهدوا تلك المواجهة؛ فترك الخيام وتناثر كل شيءٍ. في نزالٍ من هذا القبيل، ليس هنالك خاسرون. تراحم حضور المهرجان كلهم في نقطةٍ واحدةٍ،



ووقفوا بالكامل في صعيدٍ واحدٍ: هي نقطة الالتقاط.  
وتزاحم الناس فوق بعضهم البعض، وفتحوا ثغراتٍ في  
الحشد المزدهم للمتابعة:

- عشرة آلاف ريالٍ في الديك شيكو!

- عشرون في الديك فايبانو!

- عشرون أخرى في فايبانو.

- موافق!

- عشرة أخرى في الديك شيكو!

- عشرون في فايبان!

وتدفقتِ الرهاناتُ. كان الجميع يراهن. مؤكِّدٌ أنهم  
أرادوا فوز فايبانو الذي يحمل لقب البطولة، وكان قد  
هزم شيكو ذات مرةٍ في نفس المكان.

سقط قميص فايبانو على الرمال وظهر صدره المشعر.  
لقد كان وحشاً في القوة؛ فعضلاتُ أذرعهِ العقدية تجعل  
أي رجلٍ عاديٍّ يرتجف؛ كما يبدو أن الرقبة اكتسبت  
أبعاداً هائلةً؛ ثم إن ظل جسمه قد شكّل فوق الرمال  
وحشاً كبيراً.

قام بتدليك شعر صدره، كما لو أنه يقول لشيكو:

- أتريد شعرةً منه يا ولدي؟

في الشمال الشرقي شائعةٌ مفادها أن الرجل، لا يكون رجلاً حتى يكون مصاباً بمرضين تتاسليين، أو أن يغزر شعر صدره. بهذه اللفتة، اعتقد فايانو أنه قد يوقظ الخوف في لاوعي الفتى. لقد فكر في خلق عقدةٍ في نفس خصمه بتذكيره حينها بفشل المرة السابقة.

استمرت المراهناتُ.

- من سيكون الحكم؟

خبطت مارغريدا بابو أماريلو على صدرها وصرخت في الناس.

- أنا الحكم!

- عاشت مارغريدا بابو أماريلو!

لم تُصلِّ هذه المرة للوحة الأم الجدارية.

تم ضربُ طوق عزلٍ يتمكن به المتنافسون من القتال دون أن يزعجهم أحدٌ؛ وتحول شيكو إلى فايانو:

- في المرة السابقة كويتني بمكواةٍ مسخنة فوق جمرٍ؛

أما هذه المرة، فينبغي أن يكون هنالك شيءٌ جديدٌ؛

فالجمر الساخن لا يكفي! لمَ لا نستخدم حد السكين

الآن؟

- حد السكين! حد السكين!



صاح الناس موافقين على حد السكين.

ثم تقدمت مارغريدا بابو أماريلو نحو المساعدين،  
ودعت رجلين لجلب سكينين.

كان فايانو قد اتخذ مكانه بالفعل على الطاولة...  
واقترب شيكو بدوره؛ فوضع كلُّ منهما ذراعه على الطاولة،  
والتزم الناس تمامَ الصمتِ، وقاستَ مارغريدا ذراعيهما؛  
فرفعتهما ببطءٍ وكشطتُ بالفحم الأماكن التي يجب أن  
يكون فيها المرفقان، ومن يتزحزح كوعه عنها سيخسر  
النزال. ضُمت اليدان، وتقاطعت قبضتان حديديتان.

نصب الرجلان المدعوان رأسَي النصلين على جانبِ  
كلِّ منها؛ إذ ستخترق إحدى الشفرتين واحدةً من ذي  
اليدين...

سحبت مارغريدا الوشاح عن رقبتها وصرخت:

- استعداد!...

التهمت عيون الحشد المشهد، فلم يتنفس منهم أحدٌ.

- واحدٌ... اثنان... و... ثلاثة!...

وبدأ النزال وتحول الرجلان إلى آلتين رافعتين؛  
والعضلاتُ إلى عوارض فولاذيةٍ مشدودةٍ. بدأ الذراعان  
يترنحان في رعشاتٍ طفيفةٍ، وباتت الرقاب مقببةً، وطرز  
العرق صفحتي جبهتيهما، وتقلص ظهراهما في انقباضٍ



كبير زاد فزاد ...

كل شيءٍ تمَّ في دقيقةٍ؛ دقيقةٍ تعادل الأبديةً.

بدأت ذراع فابيانو تتراجع؛ فصرخ الحشد بخيبة أملٍ.  
كان هذا بمثابة حافزٍ للبطل.

واستطاع تعديل وضع يده بعدما بذل جهداً هائلاً،  
فتشجعت العضلات أكثر، وراحت اليدان ترتجفان، وكذا  
ارتجف الناس؛ فاهتزت الطاولة لدقيقةٍ، وسُمع دوي  
خبطةٍ كأنما هو تحطم خشبٍ. نعم؛ لقد تداعت الطاولة  
على نحوٍ غير متوقعٍ.

فمازَ الرجال على الرمال، وارتعدت الحشود صراخاً.

- أحضرَ طاولةً أخرى! طاولةً أخرى ...

ونهما يتصببان عرقاً لأخذ استراحةٍ لم يتوقعها  
أحدٌ. لم تقاوم الطاولة صدام الثورين أولئك.

قام كلُّ منهما بتظيف الرمال التي التصقت بجسده  
بضجيجٍ ثقيلٍ، وقدمت مارغريدا منديلها إلى شيكو  
ليمسح به وجهه المتعرق.

- أحضر طاولةً أخرى! ...

وظهرت الطاولة في الهواء دون أن يُفسح لحاملها  
الطريق؛ لكنَّ الطاولة كانت تتهادى في الهواء فتمرَّ من  
يدٍ إلى يدٍ كما لو أنها نقالة إسعافٍ؛ ثم وُضعت مكانَ



الأخرى فُرِّسَتْ عليها العلاماتُ، ووُضِعَتْ عليها اليَدان  
والسكاكينُ أيضاً، وكذا الوشاح فوقها.

- واحدٌ... اثنان... و... ثلاثة!

تَشَنَّجَتِ العضلاتُ مرَّةً أُخرى، وعادتِ الأبديةُ بلباسِ  
الدقيقة، وارتجفتِ الأعناقُ، واهتزتِ الطاولة، وارتجف  
الناس، ومارتِ حوافُّ المُدَى. وحدها الشمسُ الملتهبةُ  
هنالك ما ارتعشت. بدأت يد فاييانو تتراجع، وزعق  
الحضور مجدداً بانسجام تامٍّ. وبجهدٍ مفاجئٍ، جمع شتات  
نفسه واستعاد تماسكه قبل خسارته. توقع شيكو هذا؛  
فاستجمع كذلك أقصى قوته، وألقى بكل ما في عضلات  
ذراعه من مقاومةٍ... فارتجفت يد فاييانو وسقطت فجأةً  
على حد النصل فاخترق النصلُ الحادُّ أنسجتها وثقب  
وطمس رمق القوة الأخير... وانساب الدم يتلألأ في  
راحة يده.

سُمِعَ عويلٌ.

لقد أغرقت صرخاتُ الناس أنينَ آلام فاييانو؛ فخلَّى  
تشيكو سبيلَ يد المهزوم، وجلس على الرمال في ذهولٍ.  
ثم نهض فدنا من فاييانو في بادرة أذى وحشيٍّ؛ فقبض  
بيده على صدر فاييانو المشعر وانتزع بها خصلةً من  
شعره؛ فضحك، وتمتم للناس:



- ضعوها لعنزة، لأنها لا تساوي شيئاً على هذا الذكر!  
كان الناس في هديان، وكان من في المهرجان برمته  
يهتفون باسمه.

- شيكو! شيكو، ملك مصارعة الأيدي الجديد. شيكو!  
شيكو!

نُقل فابيانو إلى الصيدلية ويده ملفوفةً بقطعةٍ من  
قميصه.

التقط شيكو قميصه من على الرمال، وضحك للناس،  
والتفت إلى مارغريدا بابو أماريلو وغمز لها بعينه.

فكرت مارغريدا في الرجل العظيم. أيّ مثالٍ عن الذكر  
العظيم شيكو ذا! ولم تنزل تتبع بعينيها الظل الطويل الذي  
كان يبتعد باتجاه الشمس... كان ظلّ رجلٍ يبتعد مترنحاً  
فوق الأرض؛ رجلٍ ككل الرجال الذين يعيشون بجوار  
البحر.

عندما حل الأصيل وأشرفت الشمس على الغروب،  
جلس شيكو فوق قمرة قيادة اليخت الذي كان فارغاً.  
كانت أحواض الملح تتألق من بعيدٍ، بينما لم ينته في  
الجوار طابورُ الفقراء المتجهين لجلب المياه.

سمع صوتَ خطى فوق ممر اليخت؛ فرفع بصره فألفى  
فابيانو. فابيانو المسنّ الذي سيُنادى الآن بالبطل السابق، أو



بملك مصارعة الأيدي السابق. دلف فاييانو، فقفز شيكو من فوق قمرة القيادة على الممر.

لانفعاله؛ بالكاد استطاع الآخرُ التحدث، وبدا أن احتضار شمس أصيل المسكين قد أوجد في عينيه تواضعاً. مدّ يده إلى خصره وأخرج السكين ذا القرن المزين بأنماط النار.

وبيده الملفوفة بالشاش، والتي لا تزال ملطخةً بالدماء، سلم شيكو ذلك السكين الرائع ونبس له بصوتٍ هتّئ:  
- هولك... لم أعد قادراً على الاحتفاظ به... معي...  
فقد بتّ مسناً!...

وأدار له ظهره مطأطئ الرأس، فعبر اللوح الخشبي المتأرجح الذي يربط اليخت باليابسة.





## الفصل الخامس الرقص

أزقت أخيراً ليلة سانتا لوزيا

**إنه** الثالث عشر من ديسمبر. كان رجال ماكاو القادمون من المناطق النائبة متأنقين. حين ذهبوا في الصباح لرؤية الصخور الملحية، ألقوها قد تلاشت تماماً في أشهر يناير وفبراير ومارس بسبب ندى الليل. تكهنت سانتا لوزيا بأمر عينيها المباركتين أنّ لن يكون هناك جفاف في ذلك العام، وأنّ ستمطر بغزارة في المناطق النائبة من ريو غراندي دو نورتي.

ابتهج الناس الذين تركوا المناطق النائبة، وتشاركوا ذات الفرحة، فأسعدهم جداً أن إخوانهم في الريف لن



يعانوا من قسوة الجفاف هذا العام.

كانت مارغريدا بابو أماريلو سعيدة جداً هي الأخرى لاختيارهم لها في اليوم السابق للتحكيم في المباراة التي انتصر فيها شيكو انتصاراً ساحقاً؛ بل لعلّ الفتى قد نال من إعجابها العميق كلّ منال؛ وذلك لقوته أولاً، وشبابه ثانياً، ولعنفه ثالثاً. لم تكن سعادة مارغريدا موقوفة على هذه الأسباب فقط؛ بل كان لها أسباب أخرى: فمن دواعي سعادتها أيضاً أنّ علمت أنّ أحجار سانتا لوزيا كانت مناسبة للأرياف، وذلك أنّ حفلاً سيُقام اليوم فيُحققون بعده ربحاً كبيراً، وهي ستحقق شخصياً ربحاً أكبر بكثير. لقد منحها كل جزءٍ من هذا يقيناً بمستقبلٍ أكثر طمأنينةً وأقل قلقاً؛ ولذا ظنّت أنها لطالما كانت عالمةً بالتزاماتها. خرجت لتشتري شمعةً كبيرةً جداً لتضيئها في الكنيسة تكريماً لعيني سانتا لوزيا المقدستين. كان الجميع يفعل ذلك في ذلك اليوم؛ حتى أنّ عمال الملح لم يكونوا يحبون العمل فيه.

بدأت الاستعدادات للحفل مبكراً جداً في بورتو دو روسادو، وكانت المنصة التي تغني عليها الراقصات الرعويات الستة جاهزة تقريباً.

كانت صفوف الأكشاك الخاصة بلعبة الكايبيرا أو البوزو تعمل منذ الصباح، وكانت الخيام المحظوظة تدق



آخر مساميرها؛ فتم الانتهاء من تعليق آخر الأعلام وأوراق جوز الهند، ثم مُلئت الرفوف بأجمل الهدايا: من مزهرياتٍ ودمىٍ وأوانٍ وكراتٍ وأطباقٍ وغير ذلك...

كانتِ المثجاتُ تُباع في كل مكان؛ وكذا أطباق حلوى جوز الهند، ولفائف قصب الحلوى، والسّمك المقلي، والبطاطا الحلوة المشوية في الفرن، وكانتِ التابيوكا منتشرةً في كل مكانٍ، وتباع في الليل على ضوء موقد الأسيتيلين؛ وكانت رائحة الكرييد تتغلغل في الأنوف دون إذنٍ فلا يستغرب لها أحدٌ. كانت هذه الروائح من سمات أعياد الشمال الفقير.

كان هنريك فوكس تروت قد اشترى الأيس كريم؛ وفي المساء، باع في متجره الكثير من العصير. كل ما على الزبون فعله هو أن يختار فيحصل على العصير المجدد بالزبيب أو الليمون أو الفاكهة التي يحبها... وعندما تبرد أجواءُ الحفلة في الشارع، أو تنفذ معدات العصير، كان هنريك يغير ملابسه فيرتدي زياً أبيض ناصعاً، ويصقل شعره بمواد التجميل، ويرتدي ربطة عنقٍ سوداء، ثم يذهب إلى صالون استريلا دو بروغريسو.

وهناك في الداخل تراه؛ طالما كانت الموسيقى مناسبةً، يخاطب السيدات بكل ما يملك من فروسية النثر، وينمق بعناية نبرة نطقه، ويدعوهن بوضع رأسه



بحذاء ركبهن، ويده اليمنى على صدره.

- هل ستمنح السيدة شرف الرقص معها لهريك  
فوكس تروت هذا؟

كان هنريك فوكس تروت أحد الشخصيات الأساسية  
في أية حفلة رقصٍ لما فيه من ذوقٍ راقٍ، وثقافةٍ وسعة  
اطلاعٍ...

حينها تكون الفتيات في بيوتهن، يجهزن فساتينهن  
بعنايةٍ. كانت هذه الحفلة السنوية الراقصة بلا شكٍ  
أكثرَ الحفلات انتظاراً على الإطلاق، ففي ليلها يتم  
انتخابُ ملكة استريلا دو بروغريسو؛ وكلُّ واحدةٍ منهنَّ  
تتطلع للتويج، وتتمنى أن يحظى رأسها بإكليل ليلة  
العهد...

يضع مديرو النادي اللمساتِ الأخيرةً على الصالة،  
فيزينونها بشكلٍ جيدٍ قدر الإمكان.

ثم تنتشر الشرطة في كل مكانٍ، فتكون في أقصى حالات  
اليقظة. كيف لا، وكل عيدٍ من أعياد الفقراء بجانب البحر  
ينتهي بأعمال شغبٍ، وفوضىٍّ؟!... فأينما وُجدت البحارة،  
وُجدت السكاكين، وأينما وُجدت السكاكين وُجدت نساء،  
وأينما وُجدت النساء وجد القتال، وحيثما سالتِ الدماء  
ينبغي أن تحضر الشرطة. حتى في السنوات الأخرى، لم  
ينته حفل سانتا لوزيا قطً بسلام الرب المقدس...



حل العصر وبدأتِ الحفلة، وجاء الناس أيضاً للتلصص.

تمرُّ الفتيات بين صفوف الأكشاك مثرثراتٍ يستمعن أقوال ونكاتِ الفتيان الذكية. كان الفتيان يشترون الحظ وعيونهم تركز منجذبةً نحو الكرة المطاطية التي لم تفز قط بأية جائزة؛ فيقولون لبعضهم حين يربح أحدهم جائزةً لم يخترها: يا له من ذوقٍ سيءٍ!

في كل ركنٍ من أركانِ الحفلة يتردد صدى صوت الدلال الذي يبيع لصالح الكنيسة. نعم لصالح الكنيسة؛ ولكنه يحصل على سبعين بالمائة، والباقي للقديسين. له الحصاة الكبرى، وللكنيسة التغييرُ...

إذا حدث أن خدشت قشَّة عينَ شخصٍ ما، فإن النصائح كانت تنهمر عليه.

- إنه يوم القديسة لوزيا!...

فيتذكر المصاب أن يصلي:

من هنا مرت سانتا لوزيا

على صهوة حصانها الصغير الذي يأكل العشب

أعدك أن أصلي وأصلي

إذا ما خرجتِ القشة

وتخرج القشة بأعجوبةٍ فيصلي المخلص على الأرض



ثلاثاً بغزارة.

وكلما زادت حلقة الليل، زاد ضجيج الحفلة؛ فترى الناس في ذهابٍ وإيابٍ طيلة الوقت. في ذلك اليوم، يتوافد سكان الشواطئ البعيدة والقريبة وكذا من المنتجعات المجاورة والمناطق النائية؛ بل تغتمه النساء في ارتداء الفساتين الأساسية بلون الدباء؛ فيُعرفن من بعيدٍ، لا من خلال لون أرديتهن وحده، بل من خلال ضفائرهن المترنحة، والعقد الزرقاء في نهايتها، ومن أحذيتهن الجلدية اللامعة، ومن مسيرهن في مجموعاتٍ كالحمام. تخلت الأخرى الأكثر تقدماً عن لون الدباء وبدأن في استخدام اللون الوردي أو الأخضر البغائى.

أضاءت مصابيح الأسيتيلين كل شيءٍ.

في ركنٍ من الأركان ينحني راعي بقرٍ مسنٌ ذو عينين صغيرتين، يرتدي الجلد ويمضغ التبغ، ويتمتم من وقتٍ لآخر:

- رباه! يا لها من جلبة! يا للحشود! يا له من تبديد! كم من وقاحةٍ في ذي الخيام! يا له من شعبٍ وقح!  
كان بحارٌ من البحارة يلهو مع صاحبتة ويتجولان بين الناس.

- أنت جميلةٌ كسحلية!



ضحكت وصرخت بصوت عالٍ:

- مهلاً، أنا لا أستسيغ الحرية مع الرجل! إن كنت لا تزال تعاني تصدعاً في المعدة، فربما...

في المجموعات يُناقش كل شيء؛ فيضحك البعض لحكايات مليئة بالخطايا والأسماء القبيحة؛ ويبيدي آخرون شجاعة هائلة:

- إذن فأنا لم أسئ لمانى، فليس من طبيعتي...

وهناك، تتحدث عجوزٌ درماً لصديقتها عن مرض زوجها لتختم حديثها بالقول «كان مرضه بسبب التين»...

واستمرت الحفلة، جميلة، ملونة.

صاح رجل الكايبيرا أو الكايبورا نفس الخطاب القديم:

... السحلية خلف الأفعى

أصيب الصبي بالجنون

عندما شاهد لعبة ولم يلعب...

والفتيان المفلسون يحدقون فيهم بعيون الرغبة في اللعب.

رجلٌ على الجيتار كان يعزف عزفاً مختلطاً:

بذور الموسامي،

بذور الموكونا،



في مزرعة جوز الهند،

غورياتا تغني...

بالإضافة إلى السكاكر والكراميل المصنوع من السكر  
الأسمر المخفوق غير المجدول؛ كانت العجائز يحملن على  
الصواني عصيدة كريما وكعكة وسكاكر الذرة.

بدت المزادات أكثر تنوعاً.

- لفيضة من قصب كيانا!...

وليات أولئك اللاعبين ليلعبوا. في خيمة النجوم لا  
يخسر أحداً!...

- افرك! افرك!

- عصير قصب السكر اللذيذ!

- ميو الذرة والحليب!

- دبس سيارة ميريم. من يتذوق دبس السكر؟!...

- عصيدة الكريما اللذيذة!...

وهكذا تمتزج آلاف الأصوات معاً تمازج الألوان. الناس  
يأتون ويذهبون، ويتدافعون، ويحتكّون معاً، ويستمعون  
إلى الكلمات، ويضحكون، ويتدمرون، ويندمجون في كتلة  
متماسكة حية صاحبة.

من كان على حقّ هو راعي البقر المسن الذي ضاق



ذرعاً بكل هذه الضجة.

\* \* \*

وعندما بدأ الحفل يخمد؛ كان أوان الرقص يقترب،  
فغادر الناس ليحضّروا أنفسهم لذلك.

دخل شيكو المنزل؛ وكانت العمة كريستينا ترتدي  
زياً جديداً مكوناً من بلوزةٍ منمقةٍ جداً، وتورةٍ خاصةٍ  
بالاحتفال.

- ماذا، العمة كريستينا متأنقة!

ابتسمت العجوز.

- ادخلْ وشاهدْ من الأنيق!

فدخل وإذ بجوانينيا ماريسيا ترتدي ملابسها، فنظرت  
إليه وابتسمت فدنا شيكو منها وضمها بين ذراعيه، وسبر  
بشفتيه خدّها الأسمر، وتحسس أنفه رائحة اللحم الفتى.

فدفعته بعيداً منزعةً قليلاً.

- أخشى أن تسحقني. إليك عني فإنني أريد الاستعداد.

استلقى على السرير وحدّق في غرور المرأة التي  
كانت ترتدي ملابسها.

كانت جوانينيا ماريسيا جميلةً بفستانها الأبيض الضيق  
عند الخصر، وانتفاخ ثدييها الصغيرين المستديرين



كالبرتقالتين كما وصفتهما العمّة كريستينا، ووركيها اللذين برز جلياً لونُ جلدهما البني الذهبي بجوار بياض القماش، وشعرها المسترسل بشكلٍ طبيعيٍّ متديلاً فوق كتفيها المتناغمين.

نظر إليها شيكو بعينين تفيضان شهوةً ورغبةً في إفساد ملابسها الجميلة... لكنها استدارت وقالت:

- ألا نمضي؟

- أعتقد أنني أفضل البقاء معك...

- هذا هراءٌ يا رجل. هيا! لنذهب.

ونفض معدلاً ثنيةً سرواله، ومرر يديه عبر شعره، وأخذ بيدها.

في الخارج، كانت النجوم تطرز ثوبَ الليل.

قصدوا ساحة الحفلة، فكان كثيرٌ من الناس ما زالوا يلعبون النرد والكايبيرا، وقلّةٌ منهم يقتربون من خيمة النجوم لشراء الحظّ.

اختفت الرعوية وبدت المنصة الفارغة مهجورةً خاليةً من السمراوات الست اللواتي رقصن لأكثر من ثلاث ساعاتٍ بثيابٍ زرقاءٍ وحمراءٍ، وغنّين أغاني الشمال الشرقي.

كانت واجهة مقرّ استيرلا دو بروغريسو الرئيس تعج بالناس.



تتاهى إلى مسامع شيكو؛ حين مرّ؛ الشتاء على جمال  
جوانينيا .

عند مدخل النادي وضعوا فانوساً نجمياً ضخماً  
مصنوعاً من ورقٍ وحريرٍ، وحوى شموعاً أو مصباحاً كبيراً .  
لقد كان جميلاً حقاً! استيرلاً دو بروغريسو!

ودخلوا؛ فكانت الموسيقى تُعزف بصوتٍ عالٍ. تجول  
الأزواج في الردهات، وكانت الفتيات بملابسٍ أنيقةٍ جداً  
وفارهةٍ. احتضن السيدُ هنريك فوكس تروت، المعصومُ  
في تميزه، السيداتِ دون أن تفوته أية رقصَةٍ. كانت الغرفة  
تكتظ شيئاً فشيئاً؛ ولا بد أن اكتظاظها سيزداد أكثر.

في الصالة الأخرى، تم تقديم المشروبات والسندويشات  
فضلاً عن الأسماك التي قُدمت هناك مقليةً زكيةً  
الرائحة.

كانت عينا شيكو مفتونتين بجمال زخارف السقف التي  
شكّلت علماً برازيليّاً ضخماً مكوناً من أعلامٍ صغيرةٍ خضراءٍ  
وصفراءٍ وزرقاءٍ وبيضاءٍ؛ فكان هذا العلم الذي شغل كامل  
سقف الصالة عملاً فنياً بامتياز.

كان الفرحة سمة الوجوه كافة؛ فالرقصة بلا شكٍّ أجملُ  
وأشهرُ رقصَةٍ في تلك المنطقة.

عند الساعة الواحدة صباحاً، صعد السيد هنريك على

كرسيّ، وصدق بيديه طالباً الصمت؛ فتوقفت الموسيقى من فورها، وانتبه الجميع وهم يعرفون أصلاً ما سيحدث؛ فقد وقع اختيارُ هيئة المحلفين على فتاةٍ، وسيناطقون الآن باسمها لتكون ملكةً هذا العام؛ ملكةً استريلا دو بروغريسو.

بلغتْ قلوبُ الفتيات الحناجرَ من فرط المشاعر. على من سيقع الاختيار؟ من هي أجمل من الحفلة؟

سيلتقط لها المصور صورةً مع باقية من الزهور في حضنها، وعلى رأسها سيبدو تاج الملكات رائعاً. إلى جانبيها، ستكون أميرتا المرتبة الثانية والثالثة، وستظهر صورتها في اليوم التالي في صفحات أوكلاريم الاجتماعية ممهورةً بكلماتٍ جميلة:

«على جائزة محلّ نزاعٍ شديدٍ، أُعلنتِ السيدةُ فلانةُ ملكةً مقدسةً لاستريلا دو بروغريسو (هنا؛ أية فتاةٍ هي سيّدةٌ؛ وإنّ كانت متزوجةً، أو أرملةً، أو عزباءً، أو عاشقةً، وذلك لكونها فتاةً باتت ملكةً جمالٍ؛ لكنّ هذا لن يظهر في الصحيفة)، وذلك لفوزها بالتاج على كلّ من فلانة وفلانة في الترتيبين الثاني والثالث.

ويقرأ الجميع في ماكاو الأخبار بحماسٍ؛ فلا يكون هنالك سوى صدىٍ واحدٍ هو: «يا لفلانة من فاتةٍ! إنها بذا جديرةٌ!...»



نظر السيد هنريك إلى الناس بجديّة، وزفر تنهيدةً  
وقال:

- وفقاً لذا الاحتفاء الذي يُقام كل عام في هذا المكان  
تحديداً، فإن لجنة التحكيم لاختيار أجمل سيّدة ستتوج بشكلٍ  
مذهلٍ... وذلك وفقاً لروح العدالة والحياد التي لطالما عُرِفَتْ  
بها قراراتُ هذه اللجنة... ستختار كملكةٍ لنادي استريلا دو  
برغريسو...

وتوقف ينظر في وجوه الفتيات القلقات محلاً برويةٍ (كان  
يفعل ذلك كل عام لتدفئة الشعور)، وتابع:  
- الأنسة...

لم يتنفس أحد.

- جوانا دي جيسوس دا سيلفا.

دوى التصفيق عالياً، وعلا الهتاف، ودوى تصفيقٍ جديدٍ؛  
فارتعدت جوانينيا ماريسيا.

اتسعت عينا شيكو وتمتم بارتباكٍ:

- أنت المقصود يا جوانينيا!...

نعم، لقد فازت جوانينيا ماريسيا باللقب.

طلب السيد هنريك صمتاً جديداً إذ سيقوم الآن بترتيب  
الأميرتين.

- وفقاً لبقية أعضاء لجنة التحكيم، احتلت الأنسة

بيلينيا براغا المرتبة الثانية.

تصفيقٌ جديدٌ وهتافاتٌ جديدةٌ.

أخيراً، أنهى السيد هنريك ما بدأه:

- أخيراً، ووفقاً لرؤية لجنة التحكيم، تم تصنيف الأنسة

ليليكا دي سيو ليوكاديو ثالثةً.

تصفيقٌ جديدٌ.

- انتباهاً! انتباهاً أكثر! فليحضر المصور لأخذ صورةٍ

للتويج الملكة والأميرات.

رافقوا جوانينيا ماريسيا إلى وسط الصالة وسط وابلٍ

من التصفيق وقصاصات الصحف القديمة. تم رصفُ

الكراسي الثلاثة؛ فجلست جوانينيا في الأوساط منها،

وإلى جانبيها الأميرتان تضعان باقاتٍ من الزهور على

ركبتيهما. لم تكن تلكما الباقتان تبلغان حتى أسفل الباقة

التي ضُمت إلى صدر جوانينيا التي توجتٌ بعدها بتاجٍ

من ورق الشوكولاتة الذهبي على رأسها.

سُمع تصفيقٌ جديدٌ عقب المراسم.

أزالوا العروش من منتصف الصالة، وأشار المايسترو

للأوركسترا.

صدحت قيثارة ليونتينو، واهتزت أوتارٌ غيتارٍ باتشيكو،

ودوى كلارينيت ميلانو فصاحبه دف لولو.



بلغ الحفل ذروته؛ وكانت الصالة تكتظ وتكتظ. تكتظ بالناس، ورائحة الكحول، ورائحة الأجساد التي تفوح منها روائح التعرق.

ولأنها كانت مزدحمةً جداً، هذا ما حدث.

نظر دورسيلينو الذي كان يرقص مع فتاة ثملة أكثر ترنحاً من خنزير غينيا إلى السيدة بيشيغينيا؛ فشاهد ردفي امرأة سمراء تهتز كزوبعة جهنمية فما درى إن كانا كذلك حقاً أم أنه رآهما بعيون الثمل. لقد أذفت ساعة الإغراء، فمد يده؛ لكن الشيطان لسكره الشديد كان ثقيل الحركة؛ فرأى الجميع تحرشه بالسيدة، ومن لم يره سمع الصرخة التي لم تترك مسمعاً إلا وطرقته.

هنا بدأ الاحتكاك؛ فبدت الصالة كأنما تزاحم جميع من فيها في زاوية واحدة، ونشب الشجار الشرس الذي حفزته رائحة الكحول؛ فاقتتل الجميع دون أن يدري كثير منهم سبب الاقتتال، ناهيك عما كان يقاتل من. فما يمكن رؤيته هو الأذرع التي تضرب، والكراسي التي تطير، والصفعات التي تدوي.

ليس عبثاً أن تتشد مغنية الخليط في المهرجان ذات مرة:

ضع يدك تلك

على كتف القريب



قل له سأصنعك

ثم لا تصفغنه

أم مخادعة

أب مخادع

ابنة مخادعة

عائلة بكاملها مخادعة

فأنا أيضاً أريد أن أكون مخادعاً

أراد الجميع التزلف؛ وكل ذلك لما رأوا من فرط اهتزاز  
ورك امرأة سمراء.

سُمعت صافرة الشرطة. كان الظلام حالكاً. جرّ شيكو  
جوانينيا من ذراعها؛ وخرجاً من وسط الجدار. كان التاج،  
تاج جوانينا الجميل، قد غار من أحد شقيها فتدلى فوق  
كتفها، وكانت بتلاتُ الزهور قد اختفت فتحوّلت الباقة التي  
كانت تحملها بين يديها إلى سيقانٍ نباتيةٍ ناعمةٍ عاريةٍ. رأى  
شيكو هذا وضحك.

- ارمها.

نظرتُ إليه جوانينيا شزراً فبدا لها شيكو بغير روح؛  
فتخطّته عائدةً إلى منزلها.

في اليوم التالي، نشرت صحيفة ماكاو تقريراً عن جمال  
حفلة التتويج، وقدمتُ وصفاً مفصلاً له، واختتمت بالقول:



«حادثةٌ صغيرةٌ فقط أفسدت ألقَ الحفل».

حادثةٌ صغيرةٌ كلفت الكثير من كسور الرؤوس، ورضوض العيون، وتورم الأنوف؛ هذا ناهيك عن الملابس الممزقة. وحين تتلاشى غشاوةُ الثمالة، لا بد أن مما يسوء جداً أن يذهب شخصٌ ما إلى حفلةٍ فيستيقظ بوجهٍ حوى كل القبح.

لطالما كانت ذي حال حفلات سانتا لوزيا، فإن لم يكن فيها ضربٌ وعيونٌ سوداءٌ فقدت كامل بُهرجها المألوف.

ليس لحفلة البحار على الشاطئ سوى نهايةٍ واحدةٍ كهذه النهاية. لحسن الحظ لم يكن هنالك سكاكين؛ فقد تم تفتيش الرجال قبل دخول الصالة تحسباً لتكرار الأحداث الماضية، وذلك كإجراءاتٍ تأديبيةٍ لتأمين الآخرين. لقد عرفت استريلا دو بروغريسو كيفية تنظيم أمسياتها...

التفت جوانينيا لترى النجمة الورقية لا تزال معلقةً مطفأةً على الباب الأمامي.

مشى شيكو خلفها إلى أن وصلا إلى المنزل، فألفيا العمة كريستينا في السرير.

توجهها نحو غرفة النوم، فعبست جوانينيا، وجلس شيكو بجانبها على السرير، وبدأ يخلع حذائه، فنظر إليها، وأمسك بيدها.



- اسمعي يا جوانينيا، لدي ما أقوله لك...

- أجّل كلامك للغد.

وراحت تخلع ملابسها فسقطت على الأرض ملابس  
الملكة البيضاء المجددة. نفخت على ضوء المصباح. دلف  
منها ومرر يده الخشنة على وجهها فألفاها تبكي.

- أتبكين؟

قالت بصوتٍ قطع البكاء أوصاله:

- كانت الحفلة جميلة جداً... أنا كملكة... ينتهي بي  
الأمر هكذا...

- هراءً يا جوانينيا.

- هراءٌ لأنّ الأمر لم يحدث معك...

كان شيكو يفكر في شيءٍ ما. هي لا تعرف إذن؟

إنّ كانت بفضلها قد توجت ملكة! صحيح أنها فاتنة  
وتستحق ما نالت؛ لكنها لو لم يفز بمصارعة الذراع  
بالأمس، ما كانت لتحقق شعبيةً كبيرةً بين عشية  
وضحاها؛ فأراد أن يتيقن ما إذا كانت ملكة حقاً... لقد  
شعر بالأسف.

- لا بأس عليك. الأمور على ما يُرام. لقد انتهت  
الحفلة واشتقت إليك...



واحتضنته بين ذراعيها.

- أردتُ أن أخبركِ بأن اليخت سيغادر في صباح بعد غدٍ الباكرِ.

ارتعدت جوانينيا وعادت للواقع. سيعود صاحبها للبحر فأحسَّت حياله برغبةٍ وشوقٍ كبيرين رغم أنه ما زال أمام ناظريها. كل زوجات البحارة هكذا؛ فهُم دائماً غائبون. إنهم يذهبون إلى هناك فيقومون بحراسة الميناء؛ أما هن فيعلمن أن رجالهن سيلتقون في موانئٍ أخرى بنساءٍ أخرياتٍ، وأنهم سيشترون للعاهرات مستحضراتٍ لصبغة الشعر، وأنهم سيستمعون إلى القصص التي سيخترعنها تحت تأثير رائحة البيرة، وأنهم، حين استماعهم لهن، سينخرطون في الحميمية؛ تماماً كيوم رأته جوانينيا في نزل مارغريدا بابو أماريلو. إنهم يبحثون عن أخريات لأنهم يفتقدون النساء اللواتي تركوهن عند الميناء؛ فإذا ما عادوا، رحبن بهم بأذرعٍ مشرَّعة وجسدٍ مشتاقٍ فلا يسألنهم عن شيءٍ من قصصهم؛ فإذا ما رَوَّها كفى ذلك أن يُغفر لهم.

علمت جوانينيا أنه سيغيب لبضعة أشهر؛ ولذا كانت تتلوى بحنانٍ بين ذراعيه القويتين.

- متى ستعود؟

- لا أعرف. ولكنني حين أعود، سأجرب حظي مع يخت ماستر دامسينو.



- في ديدو دوديوس؟

- لا. في كايديلو.

هي ذي حياتهم. إنهم لا يعرفون على وجه اليقين من  
المستقبل إلا يوم مغادرتهم؛ أما الباقي ففي علم الله،  
والريح، وعذراء البحر، والبحر ذاته، والقديس بطرس.  
دسَّتْ يدها في شعر شيكو المعطر بزيت موتامبا  
تداعبه.

فتودد لها.

فرج - فرج - فرج.

طري كأرجوحة شبكية تن... وتن...



## الفصل السادس العجوز ملاخي

سيغادر شيكو؛ ولذا حضر لوداعه كل من التقى به  
لتهنئته بفوزه بمصارعة ذراعاه.

كانت شهرته تجوب الموانئ الساحلية والمحادثات  
الشاطئية بعد أن غدا بطلاً؛ وذلك أن في ذراعاه قوةً  
يُحسد عليها؛ بحيث يمكن القول إنه يفوق في القوة كل  
رجلٍ عمل في البحر.

إنه الآن يشعر بالفخر بعدما طال انتظاره لهذا اليوم؛  
فبات بمقدوره في أي وقتٍ أن يضع يده على وركه فيشعر  
بالسكين المغمد الموشى بالنار؛ ذاك السكين الذي بقي  
في حوزة فابيانو سيبرا لخمس سنوات. لا بد أن رجال  
البحر يقولون إن فابيانو بات كبيراً في السن، وأنهم باتوا



ينادونه بالمسن فابيانو.

لقد أشفق عليه حينما قصده ليعطيه السكين، وفي  
صوته اجتمع التواضع كله. إنه الثمن الذي يدفعه من  
يفقد قوته.

ولكنه الآن ملكُ مصارعة الأذرع الجديد على أية حال،  
فأينما سافر يخته؛ لن يتجرأ أحدٌ في هذا الساحل على  
النظر إليه بازدراءٍ، ناهيك عن دعوته إلى مصارعة الأذرع.

نظر إلى أثر النار في ظاهر يده اليمنى، الأثر الذي  
لن يُمحى أبداً، وسيذكره بالهزيمة التي تعرض لها في  
الماضي على يد فابيانو المسن.

إنه يتذكر كيف أحرق يده، وكيف أحرقته هذه الكلمات  
أكثر:

- ستتعلم الآن أيها الغرُّ عدم ازدراء الرجال!...

وهذه الجملة وهذه العلامة جعلته يعتقد أنه في يوم  
من الأيام سيكون ملك مصارعة الأيدي...

- مرحبا شيكو! ملك مصارعة الأيدي!...

أدرك شيكو أن الصوت آتٍ من داخل مزرعةٍ. إنه  
ملاخاي الشيخ. التفت فرأى الشيخ متكئاً على عصاً  
من حديدٍ، ويبتسم له ابتسامة الشيخ الطاعن في السن.

- مرحباً عمي ملاخاي، كيف حالك؟



- شيكو! أقوى رجل في ماكاو! يدخل ويتحدث إلى أكبر معمرٍ في ماكاو.

في الواقع، كان العم ملاخاي أكبر معمرٍ في ماكاو. قال البعض إنه يعرف تاريخ الماضي كله، وأنه يحفظ عن ظهر قلب كل من عاش هنالك منذ سنواتٍ كثيرة، كما قالوا إنه ليس أكثر من مشعوذٍ يعرف كيف يتنبأ بمستقبل أي شخص، من خلال قراءة رمال الشاطئ.

تمعن شيكو في الشيخ وعمره! لعله ناهز قرناً من الزمان؛ فقد كان وجهه رقاً محروقاً تبهر خطوطه الحادة العيون؛ وداخل تلك التجاعيد الكبيرة سلالاتٌ أخرى لتجاعيد أصغر؛ فكأنما في هذه التجاعيد الجدة والأُم والبنات. من وراء الشفاه المتدلية الباهتة؛ ظهرت أسنانٌ اصفرت من مضع التبغ المستمر حين انفجر الشيخ ملاخاي ضاحكاً.

- شيكو! أكثر الرجال قوةً ووسامةً على هذا الشاطئ! صحيحٌ أن خطابه كان مشوشاً عابراً للزمان؛ بيد أن كلمةً منه لم تَضَع.

- ملك مصارعة الأذرع... تعال يا شيكو؛ تعال لتحدث هذا الشيخ الذي كان فتياً ذات يوم. لقد كنتُ كذلك ملك مصارعة الأيدي منذ زمنٍ طويلٍ.

أشار لشيكو نحو مقعدٍ ليجلس؛ فجلس وأنصت لحديث



المعمّر.

- لست خائفاً مني، أليس كذلك شيكو؟

- لماذا أخاف منك يا عمّاه؟ أنت أكبر معمر في  
ماكاو، لكنني لستُ خائفاً.

- حسناً! الكل يخاف من هذا الشيخ. نعم؛ هم كذلك.  
الأطفال يهربون منه! والكلاب أيضاً! تبارك الفتيات أنفسهن  
بالصليب عندما يمر بهن هذا الشيخ الماكت أمامك!...  
الشخص الوحيد الذي لا يهرب مني هو نائبى السيد هونوريو؛  
فهو طاعنٌ في السن أيضاً.

- حسناً، أما أنا فلستُ خائفاً، عمي ملاخاي.

- لطالما أردتُ التحدث معك يا شيكو. يقال إنني  
مجرد شيخٍ مجنونٍ؛ لكنني لستُ كما يزعمون. وأزيدك  
في القول إنني أرى كل شيءٍ، حتى أقدار الناس. نعم؛  
أنا أستطيع ذلك؛ وليس الشيطان (وبارك فمه بالصليب  
ليطرد الشيطان) بالقادر على أن يرفض لي أمراً. لا؛  
وعينيّ سانتا لوزيا... شيكو، كنتُ أردتُ إخبارك بشيءٍ،  
لكنك لم تكن تذكر الشيخ أبداً. فاضطرت لاستدعائك...

- حسناً، مرحباً بك، يمكنك الآن التحدث معي.

ونهض الشيخ مرتجفاً ينظر في عيني شيكو مباشرةً؛  
فكأنما أرسلت نظراته شراراتٍ من نارٍ.



- شيكو، شيكو! الارض ليست جافةً. الارض لم تمت.

شعر الفتى بقشعريرةٍ سرت في جسده كله.

لقد انتابه شعورٌ بأن الشيخ قد تحول إلى شخصٍ لم يعرفه من قبل. كان صوتهً مختلفاً بشكلٍ غريبٍ، وقد خرجت الكلمات من فمه كأنما المتكلمُ رجلٌ آخرٌ، لا الشيخُ الغبيُّ الفاسد الطاعن في السن.

- نعم، يا شيكو، يا ملك مصارعة الأذرع. الأرض لم تمت. الماء يعود مرةً أخرى، والأوراق تخضر، والأنهار تغزر، ولسوف تمتلئ السدود... أنت من مات. لقد مرت ثلاث سنواتٍ منذ أن جفَّ قلبك. أنت لن تعود. لقد ذوى قلبك!...

مسح شيكو عرق جبينه البارد بيده.

- كيف لك أن تعرف؟ من يخبرك بكل هذا؟

- أنا أرى يا شيكو. تخبرني رمال الشواطئ بأقدار الناس، إنه ليحزنني ما أخبرتني به. أنا أعرف كل ما يحدث هنا، وكل ما سيحدث... وما سيحدث معك يا شيكو...

- ماذا وراءك يا عمي ملاحاي؟

- هل تريد حقاً معرفة ما سيحدث لك يا شيكو؟

- نعم، أريد أن أعرف كل شيءٍ.



- إذن فأحضر لي حفنةً من الرمل. من هناك، من برايا دوس بيسكادوريس.

ذهب شيكو إلى الشاطئ ودس يديه في الرمال البيضاء وعاد.

وعندما دخل عليه، وجد ملاخي الشيخ جالساً على حصيرة خشنة.

- ضع الرمل هنا واجلس أيضاً.

قبض بيديه النحيلتين قبضةً من الرمال البيضاء ورفعهما في الهواء، فجعل الرمال تنساب من بين يديه كالساعة الرملية.

- أنت ملك مصارعة الأيدي. سيستغل الكثير من الناس شبابك وقوتك اللذين لن يطول بهما المقام معك...

- لماذا يا عم؟ أفلن يطول مكوث السكين ذي مقبض القرني مغني؟

- يقول الرمل إنه سيكون معك دائماً.

- فلماذا قلت ذلك إذن؟

- لقد نفذ الرمل يا شيكو. اسمح لي أن آخذ حفنةً أخرى.

وكرر الحركة بأن دس يديه في الرمال فقبض منه حفنةً أخرى، وكانت يدها النحيفتان الذابلتان كالساعة الرملية مرةً أخرى.



- شيكو، يقال هنا بأن الأرض لم تمت، أما قلبك فقد جف. من اليابسة هربتَ وعليها ستموت...

اجتاحت شيكو عاطفةً فظيعةً. انقبضت حنجرته كما لو أُمسكتْ بملاقطٍ من نارٍ؛ فجف اللعاب في فيه، وأوجس في ساقيه وهنا للحظةٍ.

- نعم، شيكو. لقد مرت ثلاث سنواتٍ. والأرض لم تمت. لقد ولى الجفاف، وبدأ وادي سيرتاو الآن يعود للحياة، ويلبس حلته الخضراء مجدداً؛ كما أنعشتِ الرطوبة وادي سيريدو وامتلاً آبودي بالماء. لقد غدتِ الشمس أكثر برودةً بكثيرٍ لأن المطر يبرد الشمس. الرجال عائدون أيضاً. من لم يرقدوا على طرق الغبار الأحمر عائدون. إن الحياة هناك تدبُّ من جديد؛ وعمّا قريبٍ تصبح المناطق النائية أكثر خضرةً من مياه البحر... شيكو، الأرض لم تمت. قلبك هو الذي جف.

ثم توقف وهدق في الفتى فاختمت حمرة وجهه؛ واتخذت سمرة البشرة صبغةً صفراءً باهتةً، وفاضت عيناه حزناً...

- هل عليّ أن أخبرك بالباقي؟

- ارولي.

دس الشيخ يديه في الرمال وأخرج الحفنة الأخيرة.



ثم أشرق وجهه؛ فكأنما بُعثت للحياة كل سلالات تلك  
التجاعيد من جداتٍ وأمهاتٍ وبناتٍ؛ أو لعلها كانت تعيش  
الحقائق التي تولد في هذا الوجه القديم لحظةً بلحظةً.

- شيكو، شيكو! الحذر. الحذر! جزيرة مانويل  
غونزالفيس... الجزيرة. أنت شقيّ ملعونُ المصير.  
مستقبلك قبيحٌ. الجزيرة. هل تعرف ما تعني جزيرة  
مانويل غونزالفيس؟ هل تعرفها؟

- لا يا عماء. لا فكرة لدي.

- هذه الجزيرة مرتبطةٌ بك، وهي تحكي حياة ماكاو...  
سترى هذه الجزيرة مرةً أخرى.

مسح بيديه شيب رأسه وقال بحزنٍ:

- رأس هذا الشيخ لا ينسى أبداً. لا الزمان ولا حتى  
السنين.

«كان ذلك في عام ١٨٢٥. وفقاً لوالدي، لم تكن مدينة  
ماكاو هنا؛ بل كانت هناك في جزيرةٍ كبيرةٍ تسمى مانويل  
غونزالفيس؛ وهي المكانُ الذي كانت تقبع فيه مدينة  
ماكاو الحقيقية. بنى الرجال فيها منازلَ كثيرةً، وكان  
فيها ميناء، وقد أشادوا فيها كنيسةً جميلة. كانت الحياة  
هناك كأى حياةٍ في أي مكانٍ آخر؛ ففيها الصيد والقتال  
والموت؛ لكنهم قالوا إن لعنة الله حلّت بالجزيرة، وأن الله



لم يبارك بالحياة في تلك الجزيرة.

ثم حدث شيءٌ غريبٌ. لاحظ الرجال أن المد يعلو ويعلو، وأن المياه تجتاح الجزيرة.

في الأيام الأولى، ظنوا الأمر مجرد استجابةٍ لجاذبية القمر؛ لكن تتالي المدود يوماً بعد يومٍ راح يلتهم كل شيءٍ. ثم اكتشفوا الحقيقة. لم يكن المد يتصاعد، بل كانت الجزيرة تفرق.

إنها لعنة الله. دبّ الخوف فيهم والارتباك؛ فصلوا وابتهلوا، فما استطاع ذلك أن يوقف غرق الجزيرة. ما كان أمامهم من سبيلٍ سوى نقل مدينة ماكاو إلى الساحل؛ وهذا فعلاً ما جرى. لكن الوقت لم يسعفهم في نقل كل شيءٍ إذ علا المد وعلا. كانت الجزيرة حينئذٍ تفرق بسرعة؛ وكانت أعداد القوارب قليلةً، وكان إنقاذ الأرواح أمراً ملحاً. وراحت القوارب تُجر نحو الشاطئ بينما كان المد يرتفع. لقد ازداد معدله مرةً أخرى فغدت الجزيرة مغمورةً بالكامل تقريباً. نعم؛ لقد دُفنت في الماء الذي دخل كل بيتٍ حتى بلغ من البيوت النوافذ، ثم علا فعلا فبلغ السقوف.

في الأكواخ والمزارع المقامة على الشاطئ، كانت النساء يبتهلن ويبكين تضرعاً؛ يبكين مدينةً تتلاشى بأكملها أمام نواظرهن. كانت جزيرة ماني غونسالفيس تحتضر. وغرقت.



دفن معها عرق من بنوا المدينة.

دفن الكفاح والكد والأحلام والمعارك والموتى  
والماضي. دفن كل شيء.

جرى طمس كل شيء وتكديسه في قاع البحر، والرجالُ  
يرقبون حتى اللحظة الأخيرة اختفاء الجزيرة الهادئ. كان  
المحتضّر يختفي رويداً رويداً فوق سريرٍ من الماء.

بل لقد تمكنت المياه من هدم صليب الكنيسة...

وتوقف ملاحاي المسن.

- إن كنت تشك فيما أقول، فلك أن تنظر إلى الكنيسة  
يا شيكو لترى ما إذا كان الصليب موجوداً. ثم بنى الرجال  
مدينة ماكاو؛ مدينةً أخرى يكون فيها الكثير من الصيد  
والقتال والموت؛ فناضلوا مجدداً وبدؤوا من نقطة الصفر.  
عندما ولدتُ، كانت ماكاو قد غدت مدينةً كبيرةً؛ وشهدتُ  
قصة حياتها كلها، ولذا تراني أنا أعرف كل شيء عنها؛ فأنا  
أكبر معمرٍ في المدينة. أعرف الجميع هنا، وأنهم يقولن إنني  
ساحرٌ ومشعوذٌ وشريرٌ...

- لكن يا عماء، هل قلت إن لهذه الجزيرة علاقةً بي؟

- هذه هي الحقيقة. الجزيرة عائدة. الجزيرة عائدة.  
سوف تولد من جديد. وسترى، للأسف، الجزيرة. ستكون  
أول شخصٍ يراها، وربما الأخير... وإن كنت لا تصدق ما



أقوله، فابحث عن السيد هونوريو، وتحدث معه فاسأله  
عمّا إن كانت ها هناك جزيرةً بالفعل. انظر إلى الصليب.  
إلى التاريخ عند أسفل الصليب، إنه يعود للعام ١٨٢٥...  
رأسُ هذا الرجل المسن لا ينسى أبداً.

خلط ببطءٍ كل الرمال التي تراكمت على السجادة  
الممزقة. تلك الرمال الغبية رمالٌ لا معنى لها. إنها مجرد  
رمال شاطئٍ.

اتخذ وجهه تعابير الشيخوخة الباهتة ذاتها؛ فتقلصت  
تجاعيده ومُسحتْ؛ فعاد ذاتَ الشيخ الغبي الذي عفا عليه  
الزمن.

حدق شيكو في وجه ملاحاي مندهشاً متفكراً كالمعجب  
بالقصة التي رواها له...

- يمكنك الذهاب إن أردتَ يا شيكو. يا ملك مصارعة  
الاذرع. يا أكثر الرجال جاذبيةً على الشاطئ!

همّ شيكو بالمغادرة. نظر إلى الرجل العجوز وأعانه  
على الجلوس على المقعد.

- ما خطبك يا شيكو؟ هل ترتجف أيضاً؟

- لا شيء يا عماء.

وبلغ بوابة المزرعة.

- أنا راحلٌ. أراك لاحقاً يا عماء.

كان على وشك البدء في المسير عندما سمع ملاخاي العجوز يناديه مرةً أخرى؛ فاستدار ليسمع الشيخ يتكلم:

- شيكو، توحّ كامل حذرك من القطط؛ فيمكن أن تجلب لك القطط مصيبةً كبيرةً.

وانطلق مرةً أخرى. ما قاله المسنُّ أثر فيه جداً؛ لكنّ هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. لعل طول مكوثه في الدنيا بدأ يظهر عليه فيما يظهر على المعمّرين. نعم، لقد عفا عليه الزمن. أتى للمرء أن يتخيل جزيرةً غرقت؟ جزيرةً ستعاود الظهور؟ وأنه الوحيد الذي رآها؟ من يصدق ذلك؟ لا يمكن لمثل تلك الرمال أن تتبأ بأي شيءٍ عن مستقبل أيّ كان. وما ينطبق على هذا، ينطبق كذلك على قصة القطط تلك. لا بد أن الشيخ أصيب بالجنون. لقد التهم الوقت أخيراً ما تبقى من ذاكرة هذا المخلوق الأجدب المثير للاشمئزاز تقريباً؛ ولهذا السبب خشيه الآخرون، وتبرّكتِ الفتياتُ عندما صادفن المشعوذ. مؤكّدٌ أن ذلك لم يكن عبثاً. لكن شيكو، ملك مصارعة الأذرع، لم يكن خائفاً من أي شيءٍ.

غادر بورتو دو روسادو قاصداً شوارع ماكاو المزدهمة.

مشى عبر السوق، وذهب لرؤية معارفه. بطبيعة الحال، باتت شخصيته الآن تحظى باحترام أكبر؛ فلذراعه الكثير من التقدير؛ وهذا - وفقاً للشيخ ملاخاي - سيجعل



الكثير من الناس يمتطون ظهره. لماذا يا ملاحاي! ذاك المسنُّ مجنونٌ! يسرد تلك القصص كما لو له، أي شيكو، «تمساحٌ فوق ظهره»!

أسعفته الذاكرة فجأةً فذهب إلى الكنيسة باحثاً عن السيد هونوريو ليسأله عما إذا كانت قصة الجزيرة حقيقيةً فعلاً. سيكون ذلك أفضل.

توجه إلى الكنيسة؛ فدخل إذ كان الليل قد خيم تقريباً. ساعةٌ أخرى وتضيء المدينة. ألقى نظرةً على الزوايا.

هناك كانتِ البارجة التي أهداها البحارة لسيدة الملاحين، والتي كانت في كل عام تشارك في الموكب يرفعها أعتى البحارة أذرعاً. إنها جميلةٌ حقاً. لقد زينوها بالشرائط، وأنشدوا أغاني جميلةً.

كثيرٌ من الرجال تمنّوا حملَ بارجة سيدة الملاحين لدرجة أن أحداً لم ينجح قط في ذلك. ربما يُفسح له مجالٌ ما في الموكب التالي باعتباره ملك مصارعة الأذرع.

دخل الغرفة المقدسة فألقى السيد هونوريو فيها، فبرز برأسه الذي كان بياضه بياضَ أهرامات الملح، لكنه كان أكثر تمايزاً منها بمجاورته سوادَ ثوبه الفاحم.

دلف من يد الكاهن المسن وقبّلها.

- حسنٌ يا شيكو، الجميع يعرف أنك البطل اليوم. لا



- حديث للناس سوى عن قوتك! ماذا وراءك؟
- أطرق شيكو ببصره وضحك. لقد كان سعيداً. نعم؛ كان الجميع يتحدث عن قوته. حتى السيد هونوريو.
- لا شيء سيدي. قصدتك لأسألك عن شيء.
- لا، لا تقها. أنت لا تريد الاعتراف، أليس كذلك؟
- لا. ليس هذا. هل تعرف أي شيء عن جزيرة تسمى ماني غونسالفيس؟
- مانويل غونسالفيس؟ جزيرة مانويل غونسالفيس؟ من أخبرك بأمرها يا شيكو؟
- ماذا تقصد، أكانت هذه الجزيرة موجودةً بالفعل؟
- نعم يا بني. كانت ثم غرقت؛ ولكن ذلك كان منذ فترةٍ طويلةٍ. هذا صحيح، نعم. بعدها بنوا مدينة ماكاو هنا. كانت ماكاو من قبلُ قابعةً فوق تلك الجزيرة، وحين بدأت في الغرق أتيتُ إلى هنا. متى كان ذلك بالضبط؟ انتظر دقيقةً. في عام ١٨٢٥.
- أعد ذلك على مسامعي. في أي عامٍ، سيد هونوريو؟
- ١٨٢٥.
- ١٨٢٥...
- شحب وجه شيكو. لم يكن الشيخ ملاحاي مجنوناً كما



ظن، والجزيرة كانت موجودةً فعلاً، وقد غرقت في عام ١٨٢٥ كما قال المعمّر. هنا أحسّ بخيوطٍ من عرقٍ انساب على ظهره.

- لكن لماذا تسأل عن هذا يا شيكو؟ لماذا تريد معرفة خبر جزيرة مانويل غونسالفيس؟

- أخبرني ملاخاي المسن بذلك... نعم، لقد فعل ذلك...

- يمكنك؛ إن أردت يا شيكو، رؤية الصليب الذي يخص الكنيسة في البلدة القديمة في ماكاو. إنه هناك؛ أيمن المدخل. تعال معي.

واتجها نحو المدخل.

- إنه هناك، شيكو. «وتبرّك». ذاك الصليب الخشبي الكبير الداكن.

انحنى شيكو على القضبان التي تطوق موضع الصليب. كان الصليب موجوداً؛ وكذا كانت الأرقام، وقرأً بشكلٍ جيد تلك الأرقام: ١-٨-٢-٥.

- هل تشعر بالمرض يا ولدي؟

- ١٨٢٥...

- نعم. ١٨٢٥. موعدٌ جديدٌ. مائة عام. قرنٌ. لقد مرّ قرنٌ وبضع سنواتٍ على هذا الصليب. شيءٌ لا أهمية له



قياساً بآلاف القرون التي مرت على وجه الأرض، يا بني.

- ١٨٢٥. الجزيرة موجودةٌ وقد غرقت...

- لكن لم كل هذا التأثير يا شيكو؟ يمكن للجميع معرفة

ذلك دون أن ينتابهم ما انتابك من قلقٍ. لا عليك. ماذا

أخبرك المعمر ملاحاي؟

- قال لي إن الجزيرة موجودةٌ، وأنها سوف تظهر مرةً

أخرى، وأني ذاهبٌ لرؤية الجزيرة، وأن الرمال لم تكذب،

وأني سأفرُّ من اليابسة وسأموت هناك، وأن قلبي قد ذبل...

- هذا سخيفٌ يا ولدي. ذاك المسنُّ يستهزئ بك. كتفاه

لم يعودا يحملان رأساً رشيداً. إنه العمر...

- لعله كذلك. حسناً، شكراً لك سيدي...

قبّل يدَ الكاهن وخرج قاصداً شارعَ فرينت. جلس

على الرصيف وراقب حركة الرصيف، والقوارب التي

كانت ثابتةً، بل ثابتةً جداً حتى عندما رست في نهر أكو،

ومختلفةً تماماً عن حالها عندما واجهوا ثوران البحار.

كانت أشرعتها غافيةً ملفوفةً على أكتاف الصواري.

ريكاردو باريتو كان بينها؛ أجملُ يَخْتِ في الشمال الشرقي

بحزامه الذي يميزه عن أي قاربٍ آخر من فئته.

كانت الحياة على الرصيف متوقفةً؛ فرأى شيكو أن

يقوم بجولةٍ أخرى على متن اليخت الجميل، ثم يتحول



إلى كايديلو الذي يملكه السيد داماسينو.

كانت فترة ما بعد الظهر تشرف على الموت.

ليس هنالك غيرُ صفٍّ من النساء وكبار السن والأطفال يحملون  
 علب الكيروسين فوق رؤوسهم، أو يضعونها على الأرض المغبرة،  
 كل منهم بدوره ينتظر اقتراب قوارب الماء؛ تلك القوارب التي لم  
 تتوقف عن تزويد المدينة بالمياه.

كانت المياه مشكلةً هؤلاء الناس الرئيسة. إنها تساوي  
 وزنها ذهباً تقريباً. الماء! الماء! الماء!  
 أصبح وجهه أكثر حزناً.

«شيكو، بدأت المياه تعود إلى البراري. وادي سيريدو،  
 أبودي، مرج أخضر... لكن قلبك قد جف...»

أدار بصره فرأى أحواض الملح البيضاء اللاذعة لا تزال  
 تتألق مع بقايا أضواء عيون الأصيل الأخير. اغرورقت  
 عيناه. أعمال الملح هناك تقضي على الأرواح، وتكسر  
 أرجل الرجال. عندما بلغ الجفاف البراري، صدع أقدام  
 الأرض. لم يؤلم الرجال تشقق أقدامهم؛ فقد اعتادوا  
 على ذلك؛ أما الأرض فتتألم. لقد أضناها وصول كل هذا  
 القدر من الجفاف.

إنها تمطر الآن في البراري. رحم الله الناس بعد ثلاث  
 سنواتٍ البراري التي أوجدت حياتهم؛ والتي منحتها الأرض



قلبها الذي تمرد عليها ذات مرة صارخاً:

- لقد ماتت الأرض المجهولة!

تلك البراري التي قدمت لها دمها، والتي لن تغيب عن

عينها أبداً. أبداً! أبداً!

إنه الآن برى البراري. يراها كما رآها للمرة الأولى...



## الفصل السابع

### قصة شيكو الثور

**ظهر** شيكو في يومٍ جافٍ تشققت فيه جميع أراضي البراري في ريو غراندي دو نورتي.

كان جالساً في ظل البوابة يتوقع كل شيءٍ حتى الموت. لا بدّ أنه كان صبيّاً في الثانية أو الثالثة من عمره.

كان العراب نيكو هو من عثر عليه واقفاً فاغراً عينيه، ينظر إلى حقول القطن.

وقف العراب نيكو ونظر إلى الصبي.

- أيها الفتى، لماذا تجلس ها هناك؟

رفع بصره كمن لا تعني له الحياة شيئاً؛ وقد ظهرت من قميصه القدرِ نصفِ المفتوحِ عظاماً لا يسترها سوى الجلد.



شعر العراب نيكو حياله بشفقةٍ شديدةٍ .  
رفع الصبي يديه في هيئةٍ صَدفةٍ يتوسل إليه بصوتٍ  
ضعيفٍ :

- ماءً!

- تعال معي إلى المنزل، وهناك أعطيك بعض الماء .

استعان بالباب استناداً يحاول النهوض .

لكنّ قواه كانت خائفةً . مسح بيديه الصغيرتين على  
وجهه كمن زاغت عيناه دواراً؛ ثم سقط أرضاً .

- أيها المسكين! أنت كحَمَلٍ تبغي مساعدته على  
النهوض حين يسقط وإلا مات في مكانه .

حمل العرابُ نيكو الطفلَ بين ذراعيه، فلم يزن أكثر  
من وزن حزمةٍ من العظام . لو لم يجدِ الصبيّ في ظل  
البوابة، لكان ذلك الجسد الصغير في اليوم التالي فريسةً  
أخرى من فرائس الجفاف، ولبات كلاً للنسور القمامة .

وضع الصبيّ على السرج بين ذراعيه .

- ما اسمك يا ولدي؟

- تشيكو .

بالكاد كانت لديه القوة للتحدث .

- من أين أتيت؟ وابنٌ من أنت؟

- الغجر . تركوني هنا وغادروا .



فكّر العراب نيكو في قصة هذا الطفل المحزنة. لقد جابت مجموعاتُ الفجر جميعَ أنحاء العالم. لا بد أنهم فروا من الجفاف كغيرهم، فتركوا هذا الطفل هناك، بالقرب من مزرعة بيدرو أزيفيدو، لأنهم يعرفون ما للمزارع فيها من سمعةٍ طيبةٍ، وعلموا أنه سيجد الصبي ويعتني به؛ فالأسهل أن تشفق على طفلٍ من أن تشفق على بالغٍ؛ وهذه المشاعر ثابتةٌ لا تتغير حتى في أوقات الجفاف.

وهكذا عاش تشيكو في البراري، وفي دمه مصيبتان: إنه ابنُ غجرٍ وجفافٍ.

قام العراب نيكو بنصب أرجوحةٍ أخرى في المنزل. سيبقى تشيكو معه.

من الآن فصاعداً، ستصبح نياروزا، الأمُّ لثلاثة أطفال، أمًّا مرةً أخرى، أمًّا بلا آلامٍ مخاضٍ هذه المرة.

هطلت أمطارٌ كثيرةٌ؛ ومرت الكثيرُ من فصول الشتاء؛ وحلَّ الكثير من الجفاف، واختفى الكثير من الجفاف؛ ونشأ تشيكو.

لقد نشأ في حريةٍ مطلقةٍ؛ فاكسب من خصوبة البراري القوة، ومن جفافها قسوة القلب.

كانت أراضي ساو تومي وافرة الخصوبة، وكان بيدرو أزيفيدو، الذي كان يناديه بالأب الروحي، طيباً جداً؛ فقد

أسكن بيدرو أزيفيدو في منزله أطفلاً جديداً؛ وكانت دونانا نعم الأرض والمنزل والأم. ترعرع تشيكو يلعب مع أطفال بيدرو أزيفيدو، فبنى علاقات جيدة مع أكبرهم لبيراتو، لكنه في مقابل ذلك كان في شجارٍ يوميٍّ مع تشيكو الثاني الذي يحمل نفس الاسم.

كان مؤذياً مسيطراً وخادعاً.

عندما بلغ الثانية عشرة من عمره، بدؤوا يلاحظون أن تشيكو لم يكن مجرد ممازح؛ بل بات أسوأ من ذلك؛ فقد غدا شريراً تجري في عروقه دماء الفجري، وكان الطبع العنيف يتطور فيه بطريقةٍ مذهلة.

لم يكن يريد أكثر من الحرية؛ فقد عاش كما عجز بريٌّ يقفز في كل زاويةٍ وركنٍ من الجبال؛ فعرف كل الطرقات واختصاراتها.

وكان أحياناً يُمضي اليوم يسبح في السد. كانت تلك الحرية المطلقة غايةً مناه.

تخلى بيدرو أزيفيدو عن فكرة جعله شخصيةً مرموقةً بعد أن ألحقه بمدرسةٍ في برشلونة فهرب منها، ومزق الكتب والدفاتر، وشتم المعلم، وخرّب المكاتب، وربط شعر الفتيات إلى تنانيرهن...

بعد صنيعه ذلك لم يعد مقبولاً في المدرسة حتى لو



أراد ذلك.

كان الشيطان يسكن جوارح ذلك الفتى.

ذات مرة، تحدث إليه ليبراتو الذي كان يدرس في مدرسة داخلية في ناتال؛ وقد جاء حينها لقضاء عطلته:

- تشيكو، لماذا لا تريد الدراسة؟ يجب أن تتعلم لتجيد شيئاً من القراءة على الأقل.

- لا أريد. أنا فعلاً لا أريد أن أتعلم.

- لماذا؟ الكل يتعلم...

- أما أنا فلا أريد أن أتعلم سوى الأرقام. أريد تعلم الحساب؛ فهل بوسعك أن تعلمني؟

- ولكن لماذا؟ لا أحد يتعلم الحساب دون أن يتقن القراءة.

- بلى، يمكنني ذلك، فعلمي.

- ولماذا تريد تعلم الحساب وحده؟

- لأعرف عد النقود لاحقاً.

كان عديم الفائدة، وكانت دماء الفجر تتحدث في لاوعيه.

ما نفع الدراسة؟ وإضاعة وقت هائلٍ مقدارُه ثلاثُ ساعاتٍ يومياً ترهق فيه مؤخرتك على مكتبٍ مدرسيٍّ



خشبيّ مستمعاً إلى صوت الأنسة ماريّا دابانيا يرن في  
أذنك؟ ما الهدف من كل ذلك؟ ما نفع ذلك والجوّ في  
الخارج مشمسٌ، والسد مليءٌ بالماء والبطن البري؟

فيم الذهاب إلى الفصل عند الظهيرة والحمام تتوافد من  
رؤوس الجبال في أسرابٍ لتشرب من مياه السد؟

كل ما ينبغي فعله هو البقاء مختبئاً وسط الأدغال،  
وتركهم يكدون! سيبدأ اثنان منهم على الأقل في التلعثم.  
كان أحياناً يتمكن من التسلل وسرقة بندقية ليبراتو، فيعود  
بأكثر من أربعين حمامةً.

ذات مساءً، أحضرت الطاهية العجوزُ ماريانا طبقاً  
يحمل الطيور المقلية والمعجنات، فنظر بيدرو أزيفيدو  
إليها وقال:

- أئى لنا هذا؟ من اصطاد اليوم؟

والتفت نحو تشيكو الذي كان يأتي كلّ مساءً لمشاهدة  
وجبات الطعام في المزرعة.

- إنه أنت؟ أليس كذلك؟

فأفرج عن ابتسامة رضى عريضة، وأجاب على الفور:

- نعم، لقد كنت أنا أبتأه الروحيّ.

- تقصد أنك هربت من المدرسة مرةً أخرى؟



هز رأسه وقال باكتئاب:

- تعال تشيكو، أنت لست جيداً في المدرسة. لقد قال العراب نيكو أنه سئم من ضربك، وأنت لا تغير من طباعك.

- إنه يضربني برحمة...

أراد بيدرو أزيفيدو أن يضحك؛ لكنه أصبح جاداً؛ وانقضَّ بدلاً من ذلك على طبق الحمائم المقلي.

المدرسة؟ يمكن لكل ما في المزرعة من حميرٍ وأبقارٍ وماعزٍ وأغنامٍ أن تعيش من دون أن تحمل هم الدراسة وتعلم القراءة.

قالوا إنه كان عجرياً. حسناً، إذا كان العجري يقتضي أن تكون هكذا، فهو عجريٌّ حقاً. أراد أن يكون حراً، وأن يتلقى الدروس من البراري؛ فإذا ما كبر، تعلم علاج الحيوانات من الآفات؛ كما كان العراب نيكو يفعل. لا يوجد مرضٌ حيوانيٌّ يمكن أن يقاوم صلاة رعاة البقر. ثم انطلق ينشد الحيوانات المريضة هنا وهناك! وهكذا! ويركع على الأرض بإيمانٍ كبيرٍ، ويتمتم ببضع كلماتٍ وهو يرصد آثار أقدام الحيوان وامتزاجها في الرمال. ذات مرة كانت هنالك آفةٌ خطيرةٌ؛ لكن الماشية عندما عادت إلى الحظيرة آخر النهار كانت جراحها خاليةً من الديدان. وفي مرةٍ أخرى، تابع شيكو عمل العراب نيكو. وكذا البقرة برنسيسا ذاتها لم تكن خالية من الأوجاع؛ ففضى



تشيكو اليومَ بطوله يراقب خلسةً عمل راعي البقر؛ فلم يخفَ عليه أن العراب نيكو كان يصلي في الطريق. ثم؛ وبين لحظةٍ وأخرى، خارت برنسيسا خواراً طويلاً كما لو انتابها ألمٌ شديدٌ؛ فأجفلتِ الماشيةُ تلفظ حَفَنَاتٍ من الديدان، والكثيرَ من الدماء التي لَطَّخت الآنية وبلَّلت الأرض؛ لكن الجرح كان نظيفاً جداً. عندما كبر، وجد طريقة لسماع كلمات العراب نيكو؛ فبذا يغدو أعظم ساحرٍ في البراري.

آه من المدرسة! ما أراده هو أن يكون رجلاً حراً طوال الوقت، وأن يشيب على ما يشبُّ عليه؛ وأن يكون مستقلاً كصخرةٍ كاثوليكيةٍ لا تعبأ بالمطر أو الجفاف، بل تبقى هناك جاثمةً في قمة جبلٍ مخضرةً جداً خضرةً أبديةً.

الذهاب إلى المدرسة؟ ما هذا الهراء! هناك البراري الحقيقية. الصبار الشوكي، وصبار سودورو اللاسع. كانت أجماتٌ شجيرات الجوروما تمزق بخطافاتها الشائكة لحم رعاة البقر الذين يطاردون الماشية الفارة من الحظيرة. ما أجمل غابات الجوروما الأرجوانية كلون رداء سيدنا حامل الصليب في كنيسة برشلونة.

كانت البراري الحرة ملكَ يمينه أثناء النهار.

وكذا الحمام تتوافد انسياباً تحت ضوء الشمس الدافئ بحثاً عن الماء.

تغادر السحالي في ذات الساعة بحثاً عن قن دجاجةٍ



هربت من منزلها قاصدةً شجرة كاتينغيرا لتضع البيض فيها. من الجيد جداً الخروج في إثر سحلية تركت على الرمل آثاراً رقيقةً وكأنها نُقِشتْ عمداً برأس منجلٍ. لا يحتاج الأمر أكثر من تقفٍ دقيقٍ للوصول إلى المنظر البديع. من ناحيةٍ أخرى، إنَّ تعذرتَ رؤية من يطارده، سهلتَ عمليةَ القبض عليه. لم يعد في البراري حيوانٌ أصمٌ.

ولجرذ الجبال؟ يضع بذوراً في تجويفاتٍ صخريةٍ، ويعود في المساء ليمسك بالهوام العالقة في شراكه؛ ويا له من لحمٍ جردٍ لذيذٍ!

عندما كبر، اصطاد جرد موكو أبيض، وكان الجميع يعلم أن الجرد الأبيض استتسأخُّ لأرواح من ماتوا، وبدا ذا للصيد فتنةً. كرر كثيرٌ من الناس تجربةً بالبينو. بالبينو أورليودو الذي روى القصة بنفسه. تقول القصة أنه خرج ذات مرةً في رحلة صيدٍ؛ فلما بلغ سفوح الجبال، عثر على جردٍ موكو أبيضٍ جاثمٍ على صخرةٍ؛ فرفع بندقيته بعنايةٍ حذاء عينه، لكنه لم يطلق النار، وذلك أن الحيوان الصغير اختفى؛ فغضب ومضى يطارد الجرد الأبيض؛ فزحف على الأرض، ونظر إلى الأعلى، وقلد الزرققة فسمع الجواب من فوقه؛ وإذا بالجرذ يعود؛ فوضع عينه على البندقية مرةً أخرى فاختفى الحيوان كما في المرة الأولى؛ وظلَّ على هذا النحو حتى حلول الظلام.



كان القارض الأبيض يظهر فوقه تارةً، وبجانبه تارةً، ثم تحته، ثم يعود للظهور من الأعلى. عاد بالبينو إلى المنزل محبباً متعرقاً كثوّر في نيرٍ؛ متعباً تعباً لم يألفه من قبل. لقد عاد فارغ الجراب بغير صيدٍ. ومن قال له أن يلاحق جرد الموكو الأبيض؟ لقد كان بالبينو أورليودو الذي كان أعظم صيادٍ في المنطقة مؤمناً من أن على من أراد الصيد ألا يعير جرد الموكو انتباهاً، وأن يتظاهر بعدم رؤيته، لأن هذا الجرد وفق ما يبدو يفسد الصيد، ويدافع عن الحيوانات الأخرى. إنه تعويذة؛ والصيد المسحورٌ بجمال بياض وحجم الجرد، يُفتن به ويضيع وقته. ليس لأحدٍ أن يقتل شبحاً.

هذا ما يُقال؛ ولكن هنالك أيضاً من كان يمسك بالجرذ الأبيض؛ فهذا ابن الهندي الذي يظهر مراتٍ في شوارع برشلونة ولا يعيش في أي مكانٍ؛ لأنه ابن هنديٍّ، فإنه ينام بلا اهتمامٍ في أي ركنٍ يوافيه الليل فيه، ولأنه ابن هندي، فإنه يأكل ما شاء من أنواع القذارة: كالخنافس والديدان وديدان الأرض. يتهمه الناس بالجنون؛ لكنه أمسك بجرذٍ أبيض مرةً، نعم؛ لقد فعلها. كما يقول الناس إن ابن الهندي ازداد جنوناً بعد ذلك؛ وما كان ذلك من فراغ؛ بل لأنه قتل شبحاً...

ومع ذلك، عندما يكبر تشيكو سيصطاد جردً موكو أبيض...



ثم كبر تشيكو، وتوقف الناس عن مناداته بتشيكو؛  
فبات اسمه شيكو.

من يأتي من البراري يبدو كمن يتقن أصوات كل شيء  
فيها. من جاء من هناك هو شيكو. الشعبي.

طويلٌ قويٌّ عريض الكتفين، محترق الجلد؛ أسود  
الشعر اللامع دائماً، والمملس بزيت موتامبا. يركب بلا  
قميصٍ حصاناً أبيض ويفني. يفني لأنه لا يزال حراً كما  
كان في صباه.

إنه بدر التمام

ربع قمرٍ، ربع قمرٍ يتضاءل

يا سيده الجبال

القديس بطرس الابنُ وهب

وُلد المسيح

بأمر السماء

ضرب الحارس الجرس

فتبدى ضوء الشمس...

يحيا شيكو! تحيا البراري الحية الحرة، والجاهلة  
الصحية، والخشنة السعيدة في ذات الآن.

البراري التي تؤمن ببادرو سيسرو، وعلاج الديدان، وآلاف

الأساطير والهلاوس .

- أيها الشيطان شيكو! صرخت نياروزا من الداخل وهي  
تبرّك كل ركنٍ، لا تفعل هذا حباً بالأرواح!

كان شيكو، في الخارج، يقلد نهيق الحمار عند الغسق .

لقد كانت طريقةً مؤكّدةً للهلوسة؛ فكم من أناسٍ قلدوا  
نهيق الحمار في ذلك الوقت فأصيبوا بها ثلاثة أيامٍ . ثلاثة  
أيامٍ تطوف أرواحهم خارج أجسادهم .

كان العراب نيكويقسم أنه في كثيرٍ من الأحيان، عند  
نحيب الغسق، كانت أرواح البراري تتجسد في هياكل  
ثيرانٍ عظميةٍ، وأنه اتكأ مرةً على الباب حتى لا يسقط  
خوفاً . باسمك اللهم! تستهزئ بي! تستهزئ بي أيها  
التافه! وارتعشت ساقاه كغصنٍ نتنٍ في ماء السد إذ كان  
أمامه هيكلٌ عظميٌّ لبقرةٍ انتصبت فجأةً وتحدثت بصوتٍ  
بشريٍّ .

- هاك حليبي في سبيل الله! هاك حليبي في سبيل الله!

حليبٌ من هيكلٍ عظميٍّ؟ لقد بعث العراب نيكوروحاً،  
وتلا ثلاثة أدعية لسيدة الشموع عساها تضيء الطريق  
لهذه الروح البائسة، وصرّ ثلاث صفراتٍ ... فاخفتى كل  
شيءٍ .

- تحيا البراري الغامضة!



إنها السادسة مساءً، وهو توقيت الروح التائهة التي  
ترتدي أجراس الأبقار حول أعناقها لتطارد الفتيات  
الصغيرات اللاتي يتأخرن ويتحدثن عن أصدقائهن وعن  
غسيل الملابس بالقرب من السد.

قال آخرون أيضاً إن البلشوناتِ الحزينةِ الواقعةَ بلا  
حراكٍ عند مصب الماء، كانت أرواح أمواتٍ شاحبين  
يرتجفون دون شفاءٍ.

وماذا عن الأرواح الصفراء الأخرى لمن مات من  
الجفاف؟ كان هؤلاء أشد حزناً لأنهم جاؤوا من بعيدٍ  
يبتهلون وينوحون رافعين كأساً من حديدٍ:

- ماء! قليلاً من الماء؟ قليلاً من الماء!

وصل شيكو جبله ضاحكاً يغني فرحاً بحريته؛ منكرأً  
كل هذا. لم يكن يصدق ذلك لأنه كان يملك روح غجريٍّ  
رباها الجفاف.

وصل إلى بوابة مزرعة نياروزا، وفتحته ودخل.

كان مصباح الكيروسين يتوهج بالداخل حينها؛ فهرب  
الأولاد من الشرفة وصرخوا معاً:

- آه! لقد وصل شيكو. لقد وصل شيكو!

أقام حفلةً للجميع، وخلّص الحيوان وأعطاه بعض  
الماء، ثم وضع على فم ذلك الحيوان كوز ذرة.

نفض حذائه حتى لا ينثر الغبار إلى الداخل، ثم تخطى  
النسخة وتمنى ليلة سعيدة للجميع.

- ليلة سعيدة، نياروزا. ليلة سعيدة، عمي نيكو. بوركتم.  
إنها ذات كل ظهيرة.

وجلس بجانب المسنّ يضحك:

- هل باتت كليتك أفضل حالاً؟

فمسد العراب نيكو ظهره واشتكى.

- لا عليك صديقي. أنا أتقدم في السن، وكبار السن  
هشّون كلبّ القصب.

لكن شيكو فكر: «مسنّ! مسنّ وكل عام يزرع في رحم  
نياروزا طفلاً جديداً...».

- لم أجد العجل. لقد كان مريضاً جداً؛ وفتشتُ عنه  
كل الشجيرات والمكان الذي مات فيه. سنجدّه بفضل  
النسور غداً. ستدفعني الأنسة في كل حفرة لعينة، لكنني  
سأجده.

ونفض فذهب إلى المطبخ مباشرة؛ فكانت نياروزا  
تطهو في أوانٍ فخاريةٍ فتتفخ على النار وهي تجلس  
القرفصاء.

فربت على أكتاف المرأة العجوز.



- عزيزتي؛ هل الطحين مناسبٌ للمعجنات؟ أنا جائعٌ جداً.

ضحكت.

- تقريباً أيها الفجريُّ. إنها جاهزةٌ تقريباً. اذهب  
واغسل وجهك، فهي جاهزةٌ تقريباً.

- سأغسل حصاني عند السد وأعود قريباً. وذهب ممسكاً  
برسن الحصان فامتطاه ومضى نحو السد.

وبينما كان يعبر مدخل منزل بيدرو أزيفيدو، وجده  
واقفاً متكئاً على السياج.

- مساء الخير بادرينيو بيدرو.

- أوه! شيكو، هل وجدته؟

- لا سيدي، لم أجده؛ لكنني غدا سأعود في إثره. بوركت  
أبتاه. سأغسل الحصان ثم أذهب لتناول العشاء.

كان بيدرو أزيفيدو يراقب ظل شيكو القاتم وهو يسير  
ليلاً نحو البركة.

كان ابن الفجر رجلاً وسيماً غريباً حراً لا يقهر.

وتذكر ليبراتو، الابن الأكبر الذي نال هذا العام  
درجة الديبلوم في القانون في ريسيبي، والذي سيعود  
إلى المزرعة دكتوراً قريباً فيطلق عليه السكان المحليون  
حينها الدكتور ليبراتو، وسيكون بيدرو أزيفيدو فخوراً به



جداً...

سمع صوت تتأثر مياه السد وضحكة شيكو. لا بد أنه استحم مع حصانه.

لقد نزل بجسدٍ عارٍ محروقٍ في مياه السد الساخنة. نعم؛ فلم يكن دكتوراً. لم يكن يريد تعلم القراءة، لكن فيه شيئاً فهمه بيدرو أزيفيدو وشعر به جيداً: وهو أنه عرف كيف يقدر البراري بأدق ما فيها من تفاصيل، وأن فيه من الفطرة ما يمكنه من أن يحيى حياة هذه الأرض الحقيقية. ظلّ يتذكر ويفكر في نمو شيكو وفي تحولاته المختلفة.

قال له الأب أديلينو - الذي بات كنسياً شرعياً - حين جاء لزيارة عائلته في برشلونة:

- بيدرو أزيفيدو، إن ما يتمتع به شيكو هو الكثير من الحيوية وقوة الشخصية والبنية التي تتلأأ في كل ركنٍ. إنه لنعم الطينة فعلاً؛ لكنه لا يعرف نفسه، ولا يدري ما يريد...

ربما كان الكاهن على حق؛ فقد ترعرع الصبي على الإسراف، وكان مشاجراً قوياً لا يخاف. ذات مرة، كان على الكاهن أن يمسك شيكو بنفسه ليضربه ضرباً شديداً. لم يكن شيكو يحترم سواه هناك في المزرعة.



لقد ضُرب فكتمها في صدره غضباً، ثم تواری في التلال لأربعة أيام مشمئزاً لا يريد العودة؛ فكان على الكاهن أن يلتقطه بنفسه. كان الصبي منزوياً كفهدي يرفض التحدث معه. كان الإذلال الكبير في عينيه جلياً، وكانت يده مكسورتين ملطختين بالدماء إذ صب جام حقه على ضرب الحجارة.

- هذا حمقٌ يا شيكو. دعنا نعود...

- لقد أهانني بادرينيو... أمام الجميع...

- أنا لست غاضباً. لا بأس عليك شيكو. لنذهب. ولم يكذب الصبي يعود حتى واجه ذات المشكلة مرةً أخرى.

لقد احتفظ به بيدرو أزيفيدو هناك إذ لا أحد سواه؛ ولا حتى المالك، يعرف كيف يحب الأرض بهذا القدر.

كان شيكو عاملاً. نعم كان كذلك. رجلاً لكل المهمات، لكنه لم يكن يحبذ المهام التي تتطلب الاستمرارية؛ فعمل فترةً في معصرة القطن حتى مات من التعب؛ وحين ظن بيدرو أزيفيدو أنه استقر في تلك الوظيفة، وجد وظيفةً أخرى.

لم يرعَ أحدٌ قطع الأغنام أفضل مما رعاها شيكو الذي أولاها من المحبة والمودة ما أولاها؛ فدام ذلك أسبوعاً فشهرًا؛ ثم... زاول عمل الفأس فوقف هنالك، من فجر النهار



إلى غسقه، عاري الصدر يقطع الخشب لمحلج القطن، ثم سئم من هذا ورافق العراب نيكو في رعي الماشية؛ فجعله هذا العمل الجديد يمرض بسرعة؛ ولذا وجد أن حمل الماء في جميع أنحاء المنزل طوال اليوم كان أكثر متعة؛ ومع ذلك، أذف أن حصاد القطن فانخرط فيه فأجاد حصاد القطن وفاق فيه جميع من في المنطقة؛ لكنه تذكر بينما كان يقطف القطن الأبيض، أن زراعة الصبار كانت خياراً أفضل؛... كان صبياً غريباً لا يريد أن يتوقف عن حب الأرض. لا بد أنها تعني له ما لا تعني لأي شخصٍ سواه. كان يرنو إلى كل ما في المزرعة بكل ما في عينيه من حنان؛ فيداعب الأغصان والسياح والحجارة؛ ولا يغيب المنشار عن ذاكرته أبداً.

لم يكن متشرداً؛ بل كان جيداً في كل شيء، وإذا ما عمل يعمل بجدٍ من مشرق الشمس إلى مغربها؛ ويعني ويضحك؛ ولكن؛ أيكثفي بوظيفةٍ واحدةٍ فقط؛ أبداً.

ظن بيدرو أزيفيدو ذات مرة أنه اتخذ القرار الصحيح بدعوة شيكو ليصبح مساعد سائق الشاحنة.

- يمكنك ذلك يا شيكو. ستعمل مساعداً مع لولا، وترافقني إلى ناتال لتساعدني في تفريغ الحمولة... ثم تتعلم قيادة الشاحنة فأشتري واحدةً أخرى ليحتفظ أبولونيو بإحداها، وأنت بالأخرى.

تألقت عينا شيكو وبدأ العمل في الشاحنة.



خلع قميصه وراح يغني عن الصوف، ويجوب جميع الطرق مسافراً إلى ناتال.

ناتال، نعم. إنها مدينة رائعة! كان حين يحصل على استراحةٍ يركض نحو حافة الرصيف يراقب القوارب التي تنقل الركاب من شاطئٍ ريدينيا؛ فيرى اليخوت ترفع أشرعتها وتتجول متجهةً نحو نهر بوتنجي بفضل صواربها الهائلة، وأذرعها البشرية القوية. هناك، لم يجف نهر بوتنجي قط.

أما أراضي بيدرو أزيفيدو فلطالما اعتادت الجفاف ومرور عربات الثيران فوقها. كم راهن في سره على سباق خيولٍ مع ليبراتو؟

هنالك كان رصيف الميناء يغص بالبواخر المتوافدة، والناسُ الجسّان بالملابس الأنيقة، والقفازات والقبعات يصعدون السلالم، ويستقلون السيارات لزيارة المدينة... كانت حياةٌ تختلف عن الحياة التي ألفها في البراري.

عاد أدراجه إلى الريف مسافراً من معرضٍ إلى آخر لشراء القطن والسفر من ساو باولو إلى ساو تومي، ومن ساو بيدرو إلى مزرعة بورغاتوريو التي يملكها والد ملكياديس. بالمناسبة، لقد بات الدكتور ملكياديس الآن طبيب أسنان في ناتال.

استغرق منوال تلك الحياة ستة أشهر؛ إلى أن تولّد في



بيدرو أزيفيدو أملٌ جديدٌ حيال الصبي؛ ولكن...

أن تسافر دائماً على نفس الطرق، وتستتشق ذات الغبار، وتسمع ذات الأغنية التي تصدر عن العجلات التي دور. لا. إنه أمرٌ مملٌ. لقد رأى في ناتال الكثير؛ فلم تزل في نظره مدينةً جميلةً، لكنه يفضل عليها البراري.

وجاء يومٌ تخلى فيه عن الشاحنة. صحيحٌ أنه يقوم بين الحين والآخر برحلةٍ إلى ناتال، لكن ذلك كان دون أي التزام؛ ففي ناتال من الأشياء الجيدة ما ليس في البراري؛ كتلك الشوارع التي تطلق فيها النساء على الرجال اسم «أخي الصغير»، ويرتدين ملابس قصيرةً فيظهرن لجميع المارة سر الحميمية اللذيذة. أما في البراري، فلا شيء من هذا القبيل. تخيل لو شاهدت هكذا فتياتِ العراب فينانسيو اللواتي كافحن كيلا يرتكبن الرذيلة، تخيل هذا! عذارى!

وبذا تلاشت من ذهن بيدرو أزيفيدو فكرةٌ جعل شيكو سائقاً جديراً بالثقة...

هنالك عاد من السد؛ فرأى خيال بيدرو أزيفيدو لا يزال متكئاً على السور.

- هل مازلت هناك، أبتاه؟

- نعم شيكو. أنا أفكر.

- اليوم سيكون مهرجان ثور الملوك هناك في الطريق.

ألن تذهب؟



- أنا متعبٌ جداً، شيكو.

- حسناً؛ سأذهب أنا.

- والعجل المفقود؟

- سأقتفي أثره عند فجر غدٍ. ليلةٌ سعيدةً، أبتاه.

اعتقد بيدرو أزيفيدو أن ميقات عيد الميلاد يقترب إذ هم في الأشهر الأخيرة من السنة. كان يفكر أيضاً في شباب شيكو إذ يعمل اليوم بطوله ثم يذهب إلى احتفال ثور الملوك. إنه الشباب! ثم حل الصباح فامتطى صهوة حصانه الكستائي وجاب غابات الجوريماء قاطعاً الممرات الجبلية، بحثاً عن الحيوان المفقود. لقد كان موقناً من أنه سيجده لأنه يعرف البراري شبراً شبراً؛ وليس لأحدٍ غير شيكو أن يفعل ذلك سوى بيدرو أزيفيدو نفسه.

تجمع الكثير من الناس لمشاهدة رقصة ثور الملوك هنالك في المكان الذي اختير للعب دور الثور.

كان ذلك في أحد أفقر شوارع برشلونة؛ شارعٍ ينتهي بمنحدرٍ تتصب البيوت على جانبٍ واحدٍ منه فقط، أما على الجانب الآخر؛ فهناك حقلٌ محميٌّ بأسلاكٍ شائكة فيستحوذ على المناظر الطبيعية الغافية ليلاً.

كان الأطفال يصرخون بجنونٍ، وتنفجر الصفعات من وقتٍ لآخر؛ فتفتلت شتيمَةٌ بذيةٌ ما من حنجرة هذا المتفرج أو ذاك، لكن أحداً لا يلتفت لها.



وُضعتُ المقاعدُ لتجلس عليها الشخصيات البارزة. لطالما حضر الدكتور كيرينو مايا لرؤية الثيران، بوده المصطنع وفي يده مضخة علاج الربو. أحياناً أخرى، كانت عائلة بيدرو أزيفيدو تأتي كذلك. لقد أحب كثيرٌ من الناس الطيبين في برشلونة مشاهدة رقصة الثيران، وكان حضورهم أمراً جيداً. لأن المغنيين والراقصين لم يحطوا رحالهم في آخر الأرض إلا ليحصلوا على أكثر من ستين ألف ريال؛ فعلاقة الحب لهذا الفن لم تكن تعنيهم. كان على كل من الجالسين على تلك المقاعد دفعُ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ريال؛ فعليها معاشُ الراقصين الذين لم يكونوا أكثر من مجرد متشردين استثمروا في فنٍّ لا يُستخدم إلا في الأشهر الأخيرة من كل عام؛ أما الأشهر الأخرى فيقضونها في خمولٍ لا يخفى على أحدٍ. ولكن حين تأتي ساعة الثيران، يجتمعون فيسافرون في شتى طرق البراري، متنقلين من مدينةٍ إلى مدينةٍ، ومن قريةٍ إلى قريةٍ، ومن معرضٍ إلى معرضٍ، ومن ميدانٍ إلى ميدانٍ، لعرض هذا الفن القذر والرائع في نفس الوقت. ثم إن الرقص والغناء ينتقلان بالوراثة من الآباء إلى الأبناء مشوهين أكثر فأكثر، وببذورٍ جديدةٍ أسوأ في كل مرةٍ. وحده تشرد الآباء ينتقل إلى الأبناء بذات الطريقة، ودونما تعديلٍ. ها هم الآن ذاهبون للرقص هناك، أمام فناء بيع العراب زيفرينو.



تسوّر الناس الساحة المربعة وبدؤوا الصياح تعبيراً  
عن فراغ صبرهم.

- أين بيريكو؟ أين بيريكو؟

وفجأة، قفز بيريكو في منتصف الفناء مخيفاً الكثير  
ممن لم يتوقعوا ذلك، فقبضوا على جزءٍ ما من أجسادهم  
صارخين بصوتٍ عالٍ:

- بيريكو هنا!

وعمّ الضحك. لطالما كان بيريكو الشخصية المضحكة  
في حفل ثور الملوك. لقد كان هناك يرتدي زي راعي بقر  
ولكن بملابسٍ خشنةٍ متسخةٍ وقناعٍ خشنٍ غريبٍ متسخٍ أيضاً.  
كانت له لحيّةٌ كلحية الماعز تبدأ من أنفه فتكاد تصل إلى  
صدره، وعلى رأسه قبعَةٌ رعاة بقرٍ جلديةٌ. ظل يرقص دون  
توقفٍ، ويدور ويقوم بالشقلبات بمهارةٍ فذة؛ ثم سقط على  
الرمال، ونثر الغبار في الهواء، فرفع قناعه وبصق؛ ثم تقنّع  
من جديدٍ، وتفوّه بكلماتٍ إباحيةٍ، وفرك وجهه بالرمال التي  
بصقتها قبل بضع دقائق... دلف من الناس ومازح الأطفال،  
فأخاف بذا الصغار منهم. كان في قذف نفسه عند صبيان  
البراري سريعاً لا يكاد يراه أحدٌ، لكنهم يشعرون به فقط. رمى  
الرجال بالقذارات، وعاد للرقص.

فسيطر الضحك على الجميع.

كانت شيكو مندهشاً لم يفوّت القفزة ولا الإيماءة ولا كلمات بيريكو.

ثم وصل صديقه ماتيو. كان ماتيو راعي بقر آخر يرتدي زي بيريكو تقريباً، لكنه كان زياً ساذجاً إلى حدٍّ ما، فربما كان أقلّ قذارة؛ ولكنه مع تقدم الرقصة بات غير محتشم.

رقصوا معاً، ثم تصارعوا فضرب أحدهم الآخر، وفعلوا أشياء غير أخلاقية، وعندما حمي وطيسُ الرقص، أصبحت الإيماءات والحركات ثقيلةً للغاية.

بعد دقيقةٍ واحدةٍ راح ماتيو ينهار ويتظاهر بالموت، فاقترب بيريكو منه وقال باكياً:

- ماتيو! ماتيو! لا تمت يا صاحبي! وانحنى ووضع إصبعه في...

كاد الناس الذين كانوا ينتظرون هذا يسقطون من مقاعدهم من شدة الضحك.

تكرر هذا المشهد عدة مرات.

أخيراً أُسدلت الستائر خلف المشاعل.

وهنا، في هذه المرحلة المرتجلة، اصطف بقية الأشخاص فشكوا ثور الملوك.

وضعوا مقاعد للموسيقيين، وكانت الأوركسترا مكونة



من كافاكينيو ورايكا، فراحت تلك الآلات تنن معظم الليل، فتعزف دائماً ذات النغمات الرتيبة المملة.

فتح الستار فظهر «المتأنقون» الستُ صفاً، فعاد التصفيق مجدداً. كانت هذه الشخصيات الغربية جميلةً في عيون سكان البراري. كانوا يرتدون ملابس عاديةً تقريباً، لكن قمصانهم كانت مزينةً بشرائط ملونةً مثبتةً في كل مكانٍ منها، وعلى رؤوسهم كانوا يعتمرون قبعاتٍ ضخمةً مربعةً لا حوافٍ لها كأنها الخوذات. كانت الجدران الخارجية مكونةً من مرايا مطعمةً تمنحها نغمةً غريبةً ومشرقةً إذ تعكس وميض المشاعل التي أضاءت الفناء؛ كما تتدلى من تلك الزخارف الغربية الشرائط. يقول البعض إنها في الرقص تعادل معنى التاج. لقد كان عهداً بلا معنى ولا مسؤوليةً وبعيداً عن أن يكون ذا أهميةٍ إنسانيةً.

عند الخصر، كانت شرائطٌ حريريةٌ واسعةٌ من جميع الألوان بمثابة أحزمةٍ.

دخلوا؛ فتم الترحيب بهم واستقبالهم باحترامٍ من قبل بيريكو وماتيو.

وعُزفتِ الموسيقى الرتيبة، وخطبوا الأرض بأقدامهم، وبدأ الرقص، وأُديتِ الترانيم؛ فترى الخطوات متساويةً منسجمةً مع اللحن في أحسن الأحوال؛ لكن عيون الناس لم يسعها إلا التحديق في الشخصية المسيطرة على

الرقصة؛ وهذا لا يعني أنه شخصية مهمة، بل لأن كل ما فعله أثناء الرقص هو لفت انتباههم.

إنه ريفالدو.

نعم؛ ريفالدو، أعظم راقص في البراري. جابت شهرته المعارض والقرى ووصلت حتى الأحياء الفقيرة في المدن. ناهيك عن كونه فتى شاباً، فقد عرف ريفالدو كيف يسحر الآخرين من خلال مستوى الأمان والأناقة التي يرقص بهما. واحداً، اثنان، ويدير جسده بخفة ريشة. واحداً، اثنان، وتوافق قدمه ختام الإيقاع الفناء، وتتموج يده في الفضاء بليوننة ثعبان يتلوى؛ وهو الوحيد الذي يعرف كيف يضع يديه على وركيه هكذا.

صحيح أنه غالباً ما كان يسمع تعليقاتٍ وقحةً يحملها الهواء لتؤذي مسامعه.

- لا يستحق هذا الإنسان سوى أن يكون...

لكنه كان أفضل ساحرٍ يرقص على إيقاع. إنه بحق سيد رقصة الثور المطلق. هادئ الأعصاب. غنى المتأنقون القوافي الرباعية التي لطالما رددوها:

بذور الليمون

زرعتُ، ولكنها لم تنبت

وبمرور الوقت



شعرتُ أنها ماتت فعلاً...

فزرعتُ قصب السكر

بجوار الليمون

حينها نما قصب السكر

لكن قلبي كان يموت...

كانت ذي أبياتاً من البراري ضحلة المعاني، أو أنها على الأقل تحمل تفاسير فضفاضةً. لعلها فيما مضى عنت لشعرائها الذين كتبوها أشياءً جميلةً؛ لكنها مرّت هكذا، من فمٍ إلى فمٍ فترددت على مسامع الزمان دون تفسيرٍ دقيقٍ فلم يبق منها سوى الأبيات، واستمرت القوافي بمرور الوقت، بيد أن معناها الأصلي بات أقلَّ جلاءً على الفهم.

توقف الخطباء المتأنقون، ودخل العملاق فقام بالكثير من الأعمال المثيرة، فأخاف بها بيريكو وماتيو، ثم نال نصيبه من التصفيق وغادر.

بدأت الموسيقى لحناً جديداً يشبه - بالمناسبة - اللحن الآخر في عدم قابليته للوصف والرتابة. كان الكمان الصغير يئن فبدا يتلوى من نوباتٍ هائلةٍ من آلام جوفه؛ ثم ظهر شيءٌ جديدٌ: لم تكن السيدات سوى صبيةٍ بسيقان ضامرةٍ تبدّت من راء تتوراتٍ قصيرةٍ، وهن

يعتمرن ذات الخوذات المبهرجة على رؤوسهن، فرقصن في هذه المرة مع المتأنقين. لقد كان عرضاً جميلاً! لقد أنشدن بأصواتهن الفتية المزعجة كلماتٍ ريفيةً وغيرَ رسميةٍ.

أخيراً، ظهر الثور؛ فدخل بيريكو وماتيو الحلبة لترويضه، وتلا ذلك شقبةً على الرمال. كلُّ ذا والناس تنهال شتائمًا وضحكاً. كان الثور من وقتٍ لآخر ينقض على الجمهور بمظهره الغريب المكون من نصف ثور ونصف إنسان.

قاوم الناس وابتعدوا عن المكان.

استمر الرقص مملاً لساعاتٍ عديدةٍ؛ وهو يعيد ذاته في تشابهٍ سرمدِيٍّ. الآن، وقد ظهرت السيداتُ والمتأنقون، فقد قدموا شيئاً جديداً؛ فلما انتهتِ الرقصات، ألقوا بالشرائط على المتفرجين، فكان على الشخص المتلقي أن يربط في نهاياتها عملاتٍ معدنيةً. لقد كان نوعاً من البقشيش القسري.

ومضى الليلُ والناسُ لا يزالون يضحكون على شيءٍ ما؛ فهم وحدهم يعرفون كيف يستمتعون.

نظر شيكو إلى الثور نظرةً ثم إلى النجوم أخرى فرأى أن الوقت قد فات فعلاً، وتذكر حينها أنه كان عليه في



الفجر أن يبحث عن عجلٍ حقيقيٍّ في الغابة. عجلٍ حقيقيٍّ من لحمٍ وعظمٍ. فذهب واستدار في نهاية الشارع فرأى سحب الغبار تتصاعد عالياً في ضوء المشاعل. كان لا يزال يسمع، من بعيدٍ، موسيقى الكمان.

كان يعتقد أن مهرجان ثور الملوك كان جميلاً، بل جميلاً جداً. للأسف أن ذلك لا يكون إلا قبل نهاية العام. لو أنه يُقام كل يوم لما فوّت منه يوماً، ولذهب لمشاهدته أينما وُجد ثور، أو علم أنهم سيؤدون رقصة ثور الملوك؛ ولهذا السبب أطلق عليه كثير من الناس اسم شيكو الثور.

اتخذ طريق المزرعة. كان الليل حالكاً، والنسائم الباردة تهب.

كان مفعماً بالحنين. باتت أصوات الموسيقى الليل الآن شبه خافتةٍ، لكن صفيها ما زال يرافقه رغم ذلك، ولو أغمض عينيه لاستطاع أن يخمن تماماً رقصتهم في تلك اللحظة...





## الفصل الثامن الجفاف

كان شيكو يحب البراري في  
الشتاء أكثر من باقي الفصول.

**عندما** يغزُر نهر بوتنجي يغمر كل شيءٍ، وكان شيكو قدِ اعتاد منذ طفوته أن يستحم بمائه في موسم الفيضان. كان المطر ينهمر فيبدأ في يناير، ويتحسن في فبراير، ويتابع في مارس. ينزل الماء من السماء فيغتسل به كلُّ شيءٍ، وتخضُرُّ به جميع الغصون والأفنان الذابلة بفعل الشمس الجافة. غُزرت مياه البركة، وواصلت طيور البلشون ضجيجها المجنون.

بدت الشجيرات التي تتسلق الجبل كعلمٍ أخضرٍ ضخْمٍ، كما اكتسب كل شيء اللون الأخضر من أشجار الصبار والشوكيات.

ما أن يهطل المطر حتى تنبض البراري حياةً، فتبدأ حقول القطن في الإنتاج. لقد آن أوان الحصاد؛ وجني القطن.

توافد جميع القرويين لجني القطن؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً. بل حتى كبار السن جاؤوا، وبدا بدأ القطاف بالتدرج في الحقول التي بدت بيضاءً بالكامل. كان الناس سعداء. قال فوستينو المسنُّ إن رأس الحقل اشتعل شيئاً، وبارك الجميعُ شيخوخةَ حقل القطن.

خلال هذا الوقت عملت بنات فينانسيو الشيخِ بجِدٍّ أكثر.

- أيتها الفتيات؛ قال الرجل العجوز بصوتٍ بشعٍ رنانٍ متغيرٍ. لديكن عملٌ اليوم.

أراد لبناته أن يعملن كثيراً. لقد كان عملاً مجهداً، والفتيات قوياتٍ بسواعدٍ ممتلئةٍ، وأثداءٍ نافرةٍ، وأسنانٍ بيضاءً تضحك لكل شيءٍ، وأوراكٍ عريضةٍ.

كن يحملن الفؤوس، ويجمعن القطن، ويغسلن الملابس، ويساعدن السيدة العجوز في طبخها وتسويقها وخياطة فساتينها. بدا المسن فينانسيو كان راضياً؛ فما لم يكن يرضاه هو أن يرى ابنته واقفةً ساكنةً تفكر.

لقد قال له بيدرو أزيفيدو ذات مرة:

- لكن هؤلاء الفتيات يعملن كثيراً أيها الرفيق فينانسيو.



دع هؤلاء الفتيات يسترحن...

- لعلك لا تدرك الأمر أيها الرفيق بيدرينيو. أن يعملن كثيراً فينمن عميقاً خيراً لهن من أن يصيبهن الملل والأرق ليلاً...

المسكين فينانسيو، الذي لم يكن يريد أن تتكاثر بناته.  
وذا كان جزءاً من البراري التي أحبها شيكو.

كان ذلك في عهد ساو جواو، كان المؤمنون يتسلقون سلسلة جبال أرازا لوضع الشموع على الصليب الذي وضعه هناك ابن فايياو المجنون المسن.

بعد فترة الحصاد، ركب بيدرو أزيفيدو الشاحنة التي لم يزل أبولونيو يقودها، وغادر بعد المعارض بحثاً عن المزيد من القطن، ليعود في وقتٍ لاحقٍ لأخذ القطن للحلج، ثم ليتم غزله فيُحول إلى كراتٍ يتم بيعها بعد ذلك في متاجر عيد الميلاد. لم يكن هناك من معرضٍ قريبٍ إلا وكانت شاحنة بيدرو أزيفيدو فيه؛ فقد عرفت ذلك الجزء من البراري؛ فجابت عجالاتها جميع طرقها الرطبة في الشتاء، المغبرة في الجفاف، الخشنة على التضاريس الصخرية، الناعمة على الشواطئ الرملية.

في ذلك الوقت، كان شيكو سعيداً لأنه لا يزال بعيداً عن الجفاف الذي لم يفسد هذه المنطقة كثيراً لحسن

الحظ؛ لكن شيكو كان يكرهها رغم ذلك، فقد شعر أنه يتشقق من الجفاف؛ فكانت عيناه تحترقان، وعلى صدره تُطبق عظامه بشكلٍ رهيبٍ، فيجد في صدره ضيقاً رهيباً. لا بد أن هذا سينتهي يوماً ما. لم يستطع مقاومة المشهد المأساوي للجفاف.

صحيحٌ أن السد الكبير جفّ، لكن بيدرو أزيفيدو لم ينم؛ فقد كان هنالك حوضٌ للماء على الجانب الآخر من الجبل. كان مرعىً مقاوماً للجفاف، فكان يزرع هنالك أشجار النخيل، ويستخدم بذور القطن لإطعام الماشية. صحيحٌ أن إنتاجه قد ضعف قليلاً، لكنه لم يضع؛ فكانت خسائره، مقارنةً بخسائر المزارعين الآخرين الذين واجهوا الجفاف في ذلك الوقت، ضئيلةً للغاية.

كان شيكو سعيداً دائماً؛ فحتى نهاية أكتوبر، كان يتنفس بحريةٍ ويغني أغنيته المفضلة:

إنه بدر التمام

ربع قمرٍ، ربع قمرٍ يتضاءل

يا سيدة الجبال

القديس بطرس الابنُ وهب

وُلد المسيح

بأمر السماء



## ضرب الحارس الجرس

فتبدي ضوء الشمس...

حل شهر أكتوبر، ومر الأسبوعان الثانيان منه؛ فحان حينها حينُ الكرب: وهو الجفاف. يمكن أن يكون جفافُ هذا العام كجفاف كل عام، ويمكن أن يستمر لعامٍ أو عامين أو ثلاثة أعوام؛ فقد حدث ذلك من قبل حين استمر الجفاف لسنواتٍ عديدةٍ وبدأ الطاعون في اجتياح جميع أجزاء براري ريو غراندي دو نورتي.

تتأذى البؤس البشري بشكلٍ هائلٍ مع تراجع البراري، حتى بلغ الأمر تهجير من ولدوا هناك إلى أجزاءٍ أخرى من البلاد، فغزا الرجال الذابلون، والنساءُ الجثثُ، والأطفال الشاحبون ذوو الكروش المدن، فمدوا يد الهزال طالبين حياةً أكثر من طلبهم الصدقات؛ فامتلات عيون أهل البلدة بالاشمئزاز منهم أكثر من الشفقة عليهم؛ فهذا البؤس لم يمسس قلوبهم، بل آذى عيونهم.

لم تكن رائحة الخرق البالية وبؤسها تعني شيئاً لأبناء المدينة، ولم يكن بوسع أهل المدينة الذين قرؤوا الأناجيل أن يعتبروا هؤلاء الأشباح الجياع إخواناً لهم.

لم يكونوا بشراً. نعم؛ كانوا جزءاً من الأرض، من البراري الجافة؛ صلصالاً مشوياً منتفخاً؛ طيناً محروقاً جافاً؛ أديماً تراباً.

بدأ شيكو يعاني. لا بد أنه راحلٌ يوماً ما؛ فهو لم يكن كصخرةٍ كاثوليكيةٍ تعيش كلَّ أوقات السنة جاثمةً على رؤوس التلال؛ كما أنه لم يكن أشجار صبار وشوكيات. سيكون كالشعب الذي سمع عنه، فهذا مُجَدِّ دائماً؛ كمن لم يخضعوا للبراري ولم يتوقفوا في مكانٍ بعينه، بل حطوا الرحال في البراري وقت حصاد القطن، وعندما انتهى الحصاد، توجهوا إلى أحواض الملح. نعم، أحواض الملح. لقد جذب البحر شيكو لأن البحر دائماً الخضرة، سرمدِيّ الماء؛ ثم إن أرض الشواطئ لا تتصدع، وأسماكه لا تنقص. قد لا يصبح الرجل ثرياً هناك، نعم؛ لكنه لن يجوع في المقابل. من سمع يوماً أن البحر توقف عن وهب الأسماك؟ أو أن من عاشوا بجوار البحر قد جاعوا من قلة الطعام؟ لا أحد. ظل شيكو يفكر في القوارب التي رآها، والبحارة الذين التقى بهم عندما نال قسطاً من الراحة من تفريغ القطن في ناتال.

ركض إلى الرصيف بالقرب من تافاريس دوليرا؛ وتحسس هنالك حياة القوارب واليخوت التي تعيد الناس من البحر، وقوارب الصيد التي تنقلهم إلى شاطئ ريدينيا. كانت حياةً فعلاً؛ فمن يذهبون إلى البحر لا يتعرضون لخطر الجفاف أو نقص المياه.

كان شهر أكتوبر بدايةً حزن شيكو. باتت العرابة روزا



الآن بديئةً للغاية؛ وذلك أنها ستتجب في غضون أيام قليلة حياةً أخرى إلى هذا العالم؛ وذلك في موسم الجفاف بالضبط. هكذا هي العرابة روزا دائماً؛ تنجب طفلاً إلى العالم حين لا يدري أحد ما سيحدث غداً. إنها المرة التاسعة. عندما اقترب الجفاف، كان بطن نياروزا ممتلئاً بطفلٍ آخر. أن سريرُ إيزيدورو واشتكى أكثر من شكوى نياروزا التي قد جعلت من الأمومة عادةً. حين جفت كل أراضى البراري، تخصبت نياروزا بجلب برعم أخضر إلى العالم، برعم سياًكل فيما بعد الطين، ويصطاد الحمام، ويعمل في معصرة القطن المملوكة لبيدرو أزيفيدو، أو ربما لعله يغدو مزارعاً. حتماً سيكون له مكانٌ في مزرعة بيدرو أزيفيدو.

حسناً، هكذا هي نياروزا. عظم بطنها لدرجة أنها لم تعد تستطيع الانحناء لخدمة أطفالها الآخرين. يبدو أن المرأة امتصت كل ما في الأرض من خصوبةٍ. من يوم لآخر يتلقى العراب نيكو، وهو يرعى الماشية، مكالمةً أخرى:

- مرحباً أيها العراب نيكو؛ نياروزا تلد!

كان يأتي ليستطلع الأمر بهدوءٍ بالقدر الذي تعينه فيه قدماه المسنتان، ولتكرار فعلٍ شائعٍ: المولود الجديد. بالطبع كان فضولياً لمعرفة جنس المولود، سواءً كان صبياً



أم فتاة؛ وعند وصوله إلى المزرعة، نظر إلى الداخل فرأى القابلة، السيدة كاترينا، تغسل يديها. تلكما اليدان المتسختان القاسيتان اللتان دُستتا في كل امرأة مسكينة في الحي تقريباً. تلكما اليدان اللتان منحتا الحياة للعديد من هؤلاء الأطفال الذين يأكلون اليوم الطين ويقطفون القطن. مسحت يديها بباطن تنورتها، وابتسمت للعراب نيكو، بطريقة صادقة عكست مهارتها في عملها، ثم غادرت. في نهاية الشهر، حين يحين موعد الدفع، يذهب العراب نيكو عند كاترينا العجوز حاملاً لها ورقة نقدية من فئة العشرين ألف ريال. أما بيدرو أزيفيدو؛ فكان دائماً يزور نياروزا بمجرد أن يعلم بولادتها. تمنى لها ليلة سعيدة، وطلب رؤية الطفل، فوجده وسيماً، ونظر إلى نيكو المسن، فأطرق راعي البقر ببصره؛ لا عاراً؛ بل لأن بيدرو أزيفيدو فهم البراري جيداً؛ وأنه كان من سكانها كذلك.

فكر شيكو بحزن في كل هذا. ليس من المعقول ألا تكون هنالك حياة ذات قيمة أكبر في مكان ما. هذا غير ممكن.

\* \* \*

انحنى بيدرو أزيفيدو على عمود السياج، وحدث في الأفق وهز رأسه بطريقة ذات معنى عميق. استدار وعاد



إلى الشرفة، واستند إلى السياج مرةً أخرى يراقب أجنحة الطاحونة. كانت الرياح الساخنة تدير الطاحونة ببطءٍ. نظر إلى الغروب. في مثل هذا اليوم من كل عام، كان يحتفل في ١٩ أكتوبر بعيد ميلاده. نظر إلى السماء؛ للشمس الآخذة في التلاشي وراء الغيوم المحمّرة المصطبغة بلونٍ أرجوانيٍّ مأساويٍّ. كان غروب الشمس أحمر كأحشاء جرد الموكو؛ وهذه علامةٌ على الجفاف. الجفاف الذي سيصل إلى أراضي بيدرو أزيفيدو، ومنطقة ساو تومي، بفاعليةٍ أقلّ من أي ركنٍ آخر من براري ريو غراندي دو نورتي.

ستتصدع أراضي سيريدو، وستعاني أراضي أبودي ذات المصير الكارثي.

دمعت عينا بيدرو أزيفيدو عند أول بادرةٍ للجفاف الوشيك. كان أسلوبه في استدراك الوقت معصوماً. لم يكن مخطئاً أبداً. كان في كل عيدٍ من أعياد ميلاده يقف هناك ويشاهد وعيناه تضحكان دائماً تقريباً إلا في هذه المرة.

لقد عكستا كل الحزن وكل ما في الجفاف من بؤسٍ.

كم من عينٍ قلقةٍ لن تترقب السماء في هذه اللحظة؟

كم من صلاةٍ سترتفع ممزقةً من فقراء البراري الذين كانوا يشاهدون غروب الشمس المحترق؟ ستبدأ بقع النار

الأرجوانية هذه في التهام السماء ثم تنتشر على الأرض في صورة جفافٍ.

يمكن أن يُحجَبَ المطرَ عاماً واحداً وحسب؛ وربما يكون ذلك لثلاث أو أربع سنواتٍ متتاليةٍ.

لن تعاني أراضي بيدرو أزيفيدو من نقص المياه كثيراً.

لكنها ستعاني بكل الأحوال. أيُّ أرضٍ لن تعاني من نقص الماء؟ لكن محنتها ستكون أقلَّ مقارنةً مع بقية البراري.

بكي بيدرو أزيفيدو. طأطأ رأسه وتناثرت دموعه حتى بللتْ ياقة قميصه. لم يكن يبكي على نفسه فقط؛ بل كان جل بكائه على الآخرين من المساكين الذين سيخسرون كل شيءٍ، وعلى الحياة الجديدة التي ستحل بهم. الحياة الجديدة التي ربما سبق لهم أن عاشوها، ولكن الأمل في أنها لن تتكرر أبداً رافقهم دائماً. الآن سيُطردون فيحزمون أمتعتهم ويسيروا في وجهةٍ غير معلومةٍ باحثين عن مكانٍ فيه ماءٌ؛ فيستقر في جلودهم غبار الطريق، ويضمّر لحم أجسادهم. ها هم يمشون ويمشون. سيمشون حتى يموتوا؛ فواسعةٌ مغبرةٌ هي طرقُ البراري المؤديةً إلى الموت.

ستبدأ الأجساد الهزيلة بالعبور؛ فيصل الكثيرون إلى مزرعة بيدرو أزيفيدو لاجئين إليها بلا فائدةٍ. فيسبل



ذراعيه؛ وعيناه تدمعان؛ ليقدم لهم بعض اللحم المقدد ووعائين من الدقيق، ويظهر لهم بأمامات عيونهم تدهور أرضه التي تصدعت كغيرها، وتحول سدها إلى برك من الطين؛ وسوف يفهمون لغة الألم الصامتة. إنه القدر. إنه الجفاف.

كما بكى أصحاب المزارع الأخرى عندما حان الوقت لرؤية السكان المؤمنين يغادرون؛ وسيرقبون للأسف اختفاءً طابور مَنْ كانوا إخوانهم؛ وجزءاً من كيانهم. سيختفي طابورهم تحت نار غروب الشمس الذي لن يبقى منهم سوى خيالاتٍ سوداءٍ من خرقٍ وبؤسٍ ستمشي وتمشي.

أما أولئك فأمامهم مآسي الطرق، والنوم تحت الأشجار العارية. سيحرق الجفاف الخيالات الحية جوعاً ورغبةً شيطانيةً في القتل لو كان ذلك ممكناً.

تذكر بيدرو أزيفيدو رجلاً فقد زوجته وأطفاله، ووصل عتبة منزله منهاراً. كانت عيناه المتسختان جداً بالكاد تُفتحان، وكان حلقه كأنما يئن تحت وطأة ذلك فلم ينبس بكلمة.

لقد أسبلت الحياة «لباس» الموت على ما تبقى من هذا الإنسان.

استطاع أن يمد يديه اللتين تشبهان العصي، ويطلب

بين صيحتي موت: ماء!

شرب ببطءٍ فأضاعت عيناه، فأشرقنا وازدادتا إشراقاً  
وبريقاً. نظرفي وجهه بيدرو أزيفيدو نظرةً الشاكر، ثم راح  
يتحدث شيئاً فشيئاً.

- أنا... جئتكَ... بيدرينيو... لأسرقك... لكن قواي  
خانتني... بل أردت قتلِكَ... حتى... سامحني...

أدار رأسه ببطءٍ، وجفت على وجهه الشاحب المتصدع  
دمعةٌ شكلت خطأً من ضوءٍ.

ومات الرجل بين ذراعيه. لقد جاء ليقبله فمات هو  
هناك.

كان ضحية البلاء. حياةٌ أخرى هوجمت برغبةٍ شريرةٍ في  
السرقه والقتل. قبل هذا، لا بد أن هذا الرجل كان أصدق من  
حرت الأراضي الزراعية. حين كانت البراري خضراء رطبةً،  
لم يكن هذا الرجل يفكر في ذلك أبداً؛ لكن الجفاف أخرجته  
من مزرعته، واستنزف بجشع صورة حياته الكاملة، فجعلها  
على صورته تلك. لم يستطع أطفاله تحمّل الطريق. كان الظل  
الأخضر لشجرة الصبار بمثابة مكان الراحة الأخير للمرأة  
التي قاومت أكثر من بغاءٍ. فحفر لها حفرةً؛ لكنه في الواقع  
لم يكن بحاجة إلى الحفر؛ بل كان يكفي أن يوسع أحد الحفر  
التي صنعها الجفاف في الأرض الصفراء؛ ثم جمع التراب  
في كومةٍ فصنع صليباً من الصبار الشائك، وتلا صلاة الأب



سيسيرو دو جوازيرو، واستدار مبتعداً مواصلاً مسيره نحو شمس الظهيرة؛ فكان شخصيةً أخرى باهتةً تسير عكس الضوء.

يعتقد بيدرو أزيفيدو أن آخرين أكثر قوةً، أو أوفر حظاً قد يصلون إلى المدن الريفية؛ فقد شاهد فعلاً، في سوق اليكريم في ناتال، أناساً يصلون من البراري.

بشراً! أَدعى هذه المخلوقات بالبشر! من لديهم ما يكفي من الماء، ثم يخرجون طلباً لطعامٍ في سبيل الله! الطعامُ الذي علّم ماؤه الجوفَ الشكوى.

كان هنالك الكثير من أيدي سائلي الصدقاتِ التي أفسدت على سكان المدينة المنظر.

فهؤلاء البشر، بالنسبة لسكان المدينة المعاقين النظيفين الأصحاء، لا يمكن أن يكونوا أقرانهم، حتى لو كان دين المسيح يروّج أنهم كذلك.

إنهم أشبه بصفٍ سرطاناتٍ خرجتْ تواءً من قذارة غاباتٍ عذراء، جالبين معهم رائحة طين الأهوار السوداء لنهر بوتيجي. لا يمكن أن يكون بشرًا. إنها عيونٌ اشتعلتْ حسداً وطمعاً في كل شيءٍ! عيونٌ تبيّت نية الانتقام وإرادة القتل والسرقة، لم تكن عيون بشرٍ. إنها بالأحرى لوحوشٍ لم تعد تكثر لمعنى الحضارة والإنسانية. كانوا يسرقون

لأن الجفاف جرّدهم من كل شيءٍ، بينما تُرك الكثير لأبناء المدينة. سوف يقتلون لأن الجفاف دفن جثامينَ أمالهم الهامدة في تراب البراري المتشقق؛ بينما أورش أبناء المدينة جواً قاتماً من التفوق.

تذكر بيدرو أزيفيدو يومَ اجتاحت تلك الطفيليات السوطية مزرعةَ الأرملة باريتو في وسط مدينة ناتال، فلم يستطع أحدٌ فعل أيّ شيءٍ حيالهم، فما كان من الأسرة إلا أن لجأت إلى الطابق الثاني من المنزل لتشاهد الطاعون يغزو كل شيءٍ. ذاك السرب القذر من النمل المدمر. لقد أتى النمل البشري الجائع على أشجار المانجو والسابوتيلا والكاجو وكل شيءٍ وقع في براثن أجوافهم. كانوا يأكلون ويلعقون شفاههم الأرجوانية؛ ثم يرقدون على عشب الحديقة ليشربوا من ماء النبع الساخن الموحل. لقد وجدوا في تلك المياه القدرة على التسبب بحمى التيفوئيد، مذاقاً إلهياً. إنه الماء. الماء هو ما تسبب في الجفاف. هو ما قتل الأرواح. الماء الذي قتل ضمائر الناس، وهاجم الأرواح النقية بوحشية. إنه الماء الذي جفّ في الغيوم، وتخلّف عن الاتصال بالأرض. الماء الذي طهر، برمز المعمودية، روح الإنسان منذ أزل الدهر. هو ذاتُ الماء الذي يتكون من الهيدروجين والأكسجين. H<sub>2</sub>O. إنه الآن يحول البشر إلى أرواحٍ كتلك الأرواح التي



يتم تطهيرها بالمعمودية. يحولهم إلى مجرد وحوشٍ بريّةٍ.  
 يحول من قضاوا حياتهم في البناء إلى بشر قادرين على  
 القتل، ويلطخون الآن أيديهم بوحل الدمار.  
 هو من خلق الثأر في بريق عيونهم، وسفكّ الدماء في  
 أطراف أصابعهم...

شاهد بيدرو أزيفيدو الطاحونة إذ تدور أجنحتها حول  
 محورها بفعل رياح أكتوبر الدافئة. لقد كان ذا نذيرٍ سوء  
 حظٍّ آتٍ. يمكن أن تكون سنةً، ويمكن أن تكون عدة سنواتٍ.  
 اليوم هو ١٩ أكتوبر. يوم عيد ميلاده. هذا ما أبكاه أكثر.  
 بكى على جهله بالحياة. بكى لأن عينيه لم تجفّ ولا قلبه.

\* \* \*

نظر شيكو إلى فناء منزل بيدرو أزيفيدو فرآه واقفاً  
 هناك يمسح عينيه بيديه ويراقب غروب الشمس؛ ففهم  
 كل شيءٍ.

هرول بجنونٍ، وفتح الباب وسار يقصد البركة.  
 أطرق للحظةٍ يحدق في مياهها العكرة. كان فيها من  
 الماء ما يكفي لثلاثة أشهرٍ أخرى.

كان البط البري الذي يصل بعد الظهر بحينٍ ينغمس  
 في المياه بسرعةٍ، فتطلق أسراب مالك الحزين بصخبٍ  
 عظيمٍ، مستشعرةً وجود إنسيّ.



فرك عينيه بيديه واستمر في اجتياز الحاجز الذي يحيط بالسد. نزل المنحدر واتخذ طريق الجبل شاقاً طريقه إلى أعلى التل. كان في بعض الأحيان يتوقف لالتقاط أنفاسه. لا تزال هناك الكثير من مزارع القطن التي بقي في فروعها الكثير من القطن الذي نجا من أيدي جامعيه خلال موسم القطاف.

وصل أخيراً إلى قمة الجبل فسلك مساراً صخرياً في أعلاه صخرة. إنها صخرة جرد الموكو التي كانت صخرته حين كان صبياً.

واتخذ السد تحته لون الفولاذ عند هبوط ستائر الليل الأول؛ أما الجبال وراءه فكان لونها الأزرق يتلاشى إلى ظلٍ داكن؛ كما لا تزال طيور البلشون تصيح عند حافة السد. كانت الحقول منفصمةً، وتحولت خضرة تيجان أشجار الصبار والشوكيات إلى اللون الأسود. كانت المزرعة خلفه، والدخان يتصاعد من المعصرة وآلات حلق القطن، وكذا منزل بيدرو أزيفيدو، وكاترينا العجوز التي تسير برجلين مرتعشتين على طريق الشاحنات، وبنات فينانسيو المسن عائداتٌ من الحقول صفاً بالفؤوس على ظهورهن، وآخر النساء المتأخرات يغسلن الملابس بالماء. العمل يجري بشكلٍ أسرع، لأن ساعة تجوال الأرواح في الأرض قد أذفت.

وصل نيكو المسن على صهوة الخيل بعد رعي الماشية،



فجمع القطعان وحدا لها؛ فحمل الحدو الذي دوى صده  
من بعيد آلاف الأصوات المنخنة في سلسلة الجبال:

- يا! الفراشة! المبرقشة!... يا أناكوندا... ثور! كانت  
براري شيكو. البراري التي ستعاني بلا أغنية الشتاء...

حينها تحول شيكو نحو مغرب الشمس. نعم، كان ذلك  
صحيحاً. كانت السماء هناك حمراء كجوف جرد الموكو.  
السماء تحترق. سيكون الجفاف هذا العام حاداً ورهيماً  
وقاسياً.

أسبل شيكو ذراعيه وجلس على الحجر الساخن،  
محبطاً...

\* \* \*

ومرت أربعة أشهر. كان يناير يوشك أن ينتهي دون أن  
يشهد هطولاتٍ مطريةً. وصلت الأخبار.

- وادي سيريدو خاوٍ تماماً من الماء!

- وآبودي؟ أصبح روثاً جافاً! كانت الأصوات تعلق  
بنبراتٍ منخفضةٍ خشية سلب النعمة:

- إذا لم تمطر خلال هذين الشهرين، سيكون لدينا  
أفزع جفاف في العالم...

... مر شهران ولم ينهمر المطر. لعله نائمٌ في الغيوم  
ناسياً الناس.



وبداً الانهيار والتصدع يطال براري ريو غراندي دو نورتي؛ فأحرقت الشمس الملتهبة الطبيعة بكاملها. بل لقد بدا كما لو أن الشمس باتت تشرق ليلاً ونهاراً كعقاب من الله، كما راحت تظهر موجاتٌ من انتفاخ الجلد. عندما رأى السكان الفقراء أنهم مُنعوا المطر تماماً، راح القلق يسكن أرواحهم. هل آن أوان رحيلهم؟ هل عليهم المسير؟ المسير بحثاً عن أماكن يقال إن فيها ماءً أو بقايا ماء؟ لكن من يدري، إن تأخروا بضعة أيامٍ أخرى، أن الماء لن يأتي؟ لقد أقاموا صلواتٍ استسقاءً جماعيةً للأب سيسرون دي جوزيرو. عساها تمطر.

ومرت الأيام ولم تمطر، ولذا كان عليهم أن يبدؤوا المسير.

قبل أن يفوت الاوان. لن تمطر السماء على الإطلاق؛ فقد حل شهر أبريل وتكسد الغبار، والتهمت الحرارة كل شيء؛ فكان الأفق بنياً، وقد ارتفعت ستارةٌ من الغبار الأحمر على امتداد السماء.

ثم قرر فقراء البراري المسير. ألقوا نظرةً على الحقول الجافة؛ تلك الأرض القاحلة المنسية، وإلى أسوار المزرعة التي حافظت حتى ذلك الحين على وهم المنزل الراقي. نظروا إلى ماشية الراعي الهزيلة الخائفة في غبار الحظائر. نظروا إلى بقية البركة التي كانت تجف أكثر فأكثر... وبدؤوا المسير.



وانبجست أرتالُ الهزالي، وأمواج الرحالة البائسين تسير  
من كل اتجاه، وفي أي اتجاهٍ، وأياً كان الاتجاه؛ لكنّ دربهم  
كان دائماً دربَ أملٍ. لقد غادروا في وقتٍ متأخرٍ بالفعل؛  
بل متأخرٍ جداً. غادروا في الساعة الأخيرة. لقد ظلوا  
حتى الساعة الأخيرة يعتقدون أن المطر قد ينهمر.

أما الآن... فعليهم أن يسيروا بسرعة، وإلا...

ومن كل ركنٍ من أركان البراري، بدأت الأقدام الخشنة  
تضرب طرقات الأحلام طولاً؛ طرقات أحلام، لكنها طرقات  
آمنة كاليقين بأن الماء لن يأتي...

\* \* \*

في البداية تحولت الجبال إلى اللون البني، ثم نظر  
شيكو للحقول؛ فكان الجفاف قادماً حقاً. هنا كان آخرُ  
طفلٍ في مزرعة العراب نيكو قد بلغ من العمر أربعة  
أشهر.

تحول اللون الأخضر إلى اللون الأحمر في كل زاوية  
تُرى. لم يكن هناك حاجزٌ يمكن أن يوقف زحف الجفاف  
القاسي. كان لون السماء يتقلب بين لونين فقط: من  
الأحمر الناري إلى الأحمر الثقيل للرصاص حين ينصهر.  
ظهرت أولى أعراض الجفاف في أرض بيدرو أزيفيدو  
التي كانت أبعد بقليلٍ من أراضي البراري الأخرى، ثم راح



يستفحل بسرعة.

لم يعد حقل القطن أكثر من نارٍ حمراءٍ من أغصانٍ ذائبةٍ.  
لقد تصدعت الأرض تصدّع قلب الإنسان.

في غضون أيامٍ قليلةٍ، سيتم نقل ماشية بيدرو أزيفيدو  
بعنايةٍ فائقةٍ إلى شلالٍ آخر على جانب الجبل.

كانت جذوع أشجار الأوتيسيك والتابوبيا وحتى  
الموسامي تجف وتجف.

وطالت برائن الجفاف فناء المزرعة.

الحرارة تثبط كل شيءٍ: المنظر والحيوانات. اختبأت  
الخراف في ظل المنزل مذعورةً من شيءٍ غير مفهوم.  
واصلت نباتات الغينيا حول الفناء القول: «أنا ضعيفة»؛  
أما الدجاجات فلا تزال تبحث عن ظل شجرة الليمون التي  
رسمت على الأرض ظلاً كالأخطبوط.

كانت الماشية تنظر للخارج من داخل الحظيرة، فكأنّ  
اتهاماً تجلى في عيونها الواسعة التي عكست المناظر  
الطبيعية الميتة.

توقفت الريح تماماً، والتهمة الحرارة كل شيءٍ، وارتفع  
الغبار من الأرض مشكلاً سحابةً واسعةً؛ كما توقفت  
أجنحة الطاحونة؛ وحين هبّ الرياح زاد الغبار أكثر.  
كانت أراضي ساو تومي تعاني، وكانت معاناة الناس أكبر.



- شيكو، شيكو! السد يجف! البراري تجف!

صرختِ الفكرة المؤلمة تسحق آذان يأسه.

- في غضون ذلك، يا شيكو، لا يزال ساحل البحر أخضر، فهو يدفع مياهه نحو الشواطئ المغطاة بطحالب السرجسوم. كما لا نقص في الأسماك هناك! أما هنا، فلم تعد تملك المزيد من اللحم المجفف! كما لا مزيد من اللحم البقري المقدم المخزن يا شيكو!

مرر شيكو يده على رقبتة المتعركة، وقبض على رأسه بيده، وسار ببطء. فتح الباب الذي أن واشتكى حزناً، ومشى بجوار السد، فكان الحاجز مترباً، والمياه قد ضحلت؛ ولا تزال ترى هنا وهناك بعض البرك الطينية، وترى طيور البلشون كأنما هي خفرٌ يتباكون في عزاء المياه، ثم طارت عندما رأت شيكو؛ لكن حيويتها كانت أقل بكثيرٍ هذه المرة. عاجلاً أم آجلاً ستطير بعيداً حيث لا ماء؛ فتمكث في مكانها في بادرةٍ وديةٍ حتى اللحظة الأخيرة، وأحياناً تموت عطشاً قبل أن تصل إلى بركةٍ أخرى أو مستنقعٍ طينيٍّ باقٍ من سدٍّ آخر.

سعتِ الحمائم التي كانت ذات يوم تحفُّ السد في الشتاء، تبحث عن مكانٍ جديدٍ منذ فترةٍ طويلةٍ. لقد تلفت أشجار التل.

بالقرب من البرك، انتشرت جلود الضفادع، وضحايا



البلاء. وحدهم البوابون لم يشعروا بالكارثة...

ركع شيكو على أرض المجرى المتصدعة. كم استحم في ذات المكان؟ لقد أضحى كل شيء تراباً؛ أرضاً جافة سوداء هشة. أخذ قطعة صلبة بين أصابعه وسحقها بغضب. لماذا حدث كل هذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا تحترق بهذا الشكل أرض ينبغي أن تكون رطبة جداً في الشتاء؟

أراد البكاء. لا! لن يبكي! سيذهب بعيداً. وسار كآلاف السيارة والمتسولين المهزولين من ضحايا البلاء. لا؛ لن يبقى جالساً هنا شابكاً ذراعيه يشاهد الجفاف يزداد سوءاً وخطراً باضطراد؛ فالسد يضمحل إلى برك من طين تتلاشى هي الأخرى.

لا؛ لن يبقى هنا أبداً! تسلق الحاجز وتمعن فيه.

إن تصدع السد الكئيب، وقد طففت فوقه أغصانٌ تتبعث منها نحو السماء رائحة كريهة، أعطى حينها انطباعاً ساخراً؛ إذ بدا كطبقي طيني ضخم لم تكن فيه تلك الأغصان أكثر من عصيدةٍ بعظام أسماك. عصيدة...

ضحك شيكو... نعم، لقد تشكلت العصيدة من غبار الأرض القدر ذاته.

طارت البلشونات الخائفة بعيداً عند الأصيل مطلقاً صرخة هجرٍ حزين.



## الفصل التاسع من لا يتوقفون

**كان** شيكو يائساً يشاهد الظهيرة التي أوقدت شمسها النار في كل شيءٍ. كل شيءٍ بات أحمر اللون: من حقولٍ وجبالٍ وأفقٍ. كان الضوء حاداً يؤذي العيون ويجعل الروح تبدو كما لو تكافح للنجاة وسط الغبار الأحمر الخانق.

وعبر البوابة ومضى ليرنو إلى السد؛ فتفتوت ناظرَي راعي البقر أحياناً رؤية الأبقار التي تاقت للأرض هناك، فعبرت الأرض الجافة البعيدة طلباً لماء السد القديم. لقد حدث ذلك بشكلٍ مذهلٍ. كان بعضها يأتي أحياناً ليموت على شاطئه الجاف.

طار إيزيدورو، ببغاء شيكو، وحط على السياج مردهداً

باستمرار:

- شيكو! شيكو الثور!

استدار شيكو وهمس له بحزن:

- اخرج من هناك أبها الأشعث! اخرج من هناك حتى تتمكن من الرؤية. كن حذراً، فإذا ما مر هزيلٌ وأمسك بك... فسيقال كان هناك ببغاءٌ ذات يوم!

ذهب ليرى السد؛ بل ليرى وباء السد الجاف؛ بل الجاف تماماً. سرعان ما نفق مالك الحزين عطشاً بجواره؛ ذاك البلشون الذي كان يملك روح قروي لا يتخلى عن أرضه أبداً؛ قروي يفضل أن يموت هناك وهنا.

تأمل شيكو في المناظر الطبيعية. كان الرعب فيها يصدع المشهد. كم هذا محزناً! لقد احترقت الأرض بالكامل؛ وتغلغت مياه السد في صدوع الرمال المتفسخة. هناك، فيما كان يوماً قاعَ مياهٍ، يتصاعد عند وقع الخطى سديمٌ خانقٌ من الغبار، وتتصب النباتات النتنة كأشباح الخفر. لم تبق هنالك قطرة ماءٍ؛ ولا حتى بركةً من وحلٍ. كان حلق شيكو يحترق؛ لا من العطش؛ بل من الغبار الذي سكن صدره. بالنسبة لقروي المنطقة، كان في خندق الشيطان ما يكفي من المياه ليقاوم الجفاف فترةً طويلةً. لم يجف الخندق يوماً فقد كان وادياً صخرياً يرتاده الناس لجلب ماء الشرب، وسد أكثر احتياجاتهم إلحاحاً.

نظر إلى الجبل فكان نبياً تكسوه هياكل عظمية



لأشجار، وآلاف من المخالب الملتوية. وكان اللون الأخضر موجوداً هناك. حتى أشجار الجوريمما تقلصت فباتت جذوعاً أرجوانية. كانت شجيرات الصبار والشوكيات بأنواعها سوداء بالكامل تتزين بأصابعها الشائكة؛ أما في حقول القطن، فقد احتفظت أشجار النخيل بذاكرة الخضرة؛ غير أن مزارع الصبار اكتسبت خطوطاً صفراء، وقد قيل إنه نباتٌ يمكن أن يتحمل أي جفافٍ قادم. بدأ اللون الأصفر بالظهور حينها رغم أنه كان جفافاً عامٍ واحدٍ فقط.

عامٌ جفافٍ واحدٌ! عام شهادة!

عندما عاد التاسع عشر من أكتوبر، لم يتذكر عزابه بيدرو أزيفيدو أنها ذكرى ميلاده.

تذكر، عند العصر، أن يقف بجانب ديك الرياح.

نظر أولاً إلى الحقول. قبل عامٍ من الآن، كان كل شيءٍ أخضر للغاية هناك!

انتظر غروب الشمس، وهز رأسه نافياً: لا؛ لن تمطر. ليس بهذه السرعة، لا. لقد نسي المطرُ الأرض. ستسود الشمس الحارقة السماء لوقتٍ طويلٍ. يومان اثنان فقط سيكونان كافيين. يومان ماطران فقط سيكفيان لتحسين البراري بشكلٍ كبيرٍ. لكنها لن تمطر، وسيواصل الجفاف.



عامه الثاني بنجاح.

هز بيدرو أزيفيدو برأسه سارحاً بحزن حياته التي كرسها بالكامل في كفاح من أجل الأرض. الكفاح من أجل الأرض!

فيها قضى شبابه فكان أول من جلب الآلات إلى هذه المناطق: المحراث الأول، وتذكر كيف أن المزارعين الآخرين وجدوا الأمر غريباً حينها. لقد أنفق كثيراً من الصبر لإقناعهم بأن تطوير الزراعة ومستقبل الحقول يعتمد على الآلات؛ فمن خلال استخدامها، يمكن توفير الجهد البشري. انتاب الآخرين الكثير من التردد في بداية الأمر، لكنهم رأوا أن عمل بيدرو أزيفيدو كان أفضل في وقت أقل، فبدؤوا يوقنون أنه مصيب؛ فراحت الآلات تعمل في المزارع الأخرى.

لكن الوقت مر وحل الجفاف، وساد حينها الإحباط والكثير من النضال.

ومرت سنتا شتاءٍ على التوالي؛ كان محصول القطن جيداً بما يكفي لسداد كل الديون. في العام التالي، كان الشتاء ضعيفاً، والجفاف أقل حدةً بكثيرٍ، ثم سقط مطرٌ جيدٌ، وبُعثت آمالٌ جديدةٌ، وسُدَّت الديون، ثم لاح في الأفق جفافٌ ثلاثٍ سنواتٍ متتاليةٍ.

وقد حدث ذلك كما يحدث الآن؛ لكنه لم يلعب الأرض؛



ففيها ألقى الصبرَ والمقاومة. لم يكن يريد أن يكفر بهذه الأم الثانية؛ فلقد قاتلت طوال حياتها دون أن تعترف بالشيخوخة. لا بد أنها ستتغلب على الجفاف كما فعلت في فرصٍ سابقةٍ. فقط لو سَنَحَتْ لها منها واحدةً، أعانها الله. في الجفاف أو الشتاء، ظلت حيةً حتى ذلك الحين. سواء كان الطقس جيداً أو سيئاً، فقد لَقِنَتِ الأرضُ أبناءها العير. كان ليبرتاو حينها طيبياً يفكر في الزواج.

أصبح الليل حاراً وحزيناً فجأةً.

ولذا دخل. إنه التاسع عشر من أكتوبر.

لم يبق معه في المزرعة سوى دونانا. كان أطفالها في ناتال، في منزلهم الواقع في أفينيدا ريو برانكو. شعرت بالوحدة؛ لكن الأطفال لن يعانون كثيراً؛ فلديهم ماءٌ يستحمون به، أما مشهد البؤس والهزال في البراري فكان بعيداً حينها.

جاءت دونانا تتاديه لتناول العشاء، وكانت الأرضُ الخصبةُ الأخرى.

أرضُ أليافٍ قرويةٌ حتى اللحظة الأخيرة. حاربت معه، وشاركته كربه وصلاته، ونضالاته وإحباطاته. ولجأت إلى ناتال أخرى عند أطفالها هرباً من الجفاف. لكن لا. كان مكانها هناك بالقرب من بيدرو أزيفيدو، فهي أكثر من مجرد امرأةٍ في هذه البيئة. كانت الحافزَ على النضال.



أُضيئتِ الغرفةُ وأنجزتِ المائدةُ، فكانوا على وشك بدء العشاء .

دخل شيكو ودعا بالبركة .

- تعال بنا نتناول العشاء معاً، شيكو .

- شكراً لك أيها العراب؛ لكني لا أريد ذلك .

- هل اكتشفت شيئاً جديداً؟

سأل بيدرو أزيفيدو، وهو خائفٌ تقريباً . لا شك أن ذلك سيحدث بالتأكيد .

- لا، أبتاه . إنه ... أن ... إنه فقط ...

- ماذا، شيكو؟ لماذا لا تقولها؟

أحس شيكو بغصةٍ في حلقه؛ واغرورقت عيناه بالدمع .

- أنا ...

أدرك بيدرو أزيفيدو الأمر، وبدأ في تخمين أفكاره بصوت عالٍ .

- أنت ذاهبٌ، أليس كذلك، شيكو؟ لا يمكنك تحمل

الجفاف، أليس كذلك؟

أوماً شيكو برأسه، ولكن دون أن يرفع نظره عالياً عن الأرضية المتسخة في غرفة المعيشة .

- إذن شيكو الثور سيغادر .



لم يقل بيدرو أزيفيدو ذلك بدافع الغضب؛ كما أنه لم يشعر بأن ذاك الفتى يريد مغادرة هذه البيئة الكئيبة؛ لكنه كان يعلم أن شيكو كان على حق؛ وله أن يغادر دون ندم لأنه لا يملك شيئاً هنا. لم يكن عليه أن يقلق بشأن المسؤولية التي كلفته التفاني مدى حياته. لم يكن يملك شيئاً. لقد هاجر سكان آخرون منذ زمن؛ فشعر أن الصبي قد رحل معهم. لقد شعر بذلك حقاً. لم ينجح البتة في ترويض حرية شيكو المفرطة. أما شيكو؛ فعلى الرغم من مزاجه الغريب وغير اللطيف، فقد كان يعمل بجدٍ، ولذا سيفتقده جميع سكان المزرعة البائسين.

- هل تريد أن تتركني أيضاً؟

وانهمرتِ الدموع من عيني شيكو على الأرض.

- يمكنك الذهاب يا بني. يمكنك الذهاب.

- هناك شيءٌ واحدٌ أبتاه. أنا ذاهبٌ؛ لكنني سأعقد معك اتفاقاً أولاً. سأبقى شهراً آخر هنا، فإذا هطل المطر بقيت؛ وإلا... فلا رغبة لي بالموت هنا. لستُ أخشى الموت؛ لكن لا يمكن أن يستمر الأمر على ذي الحال. لولاك ما بقيت يوماً واحداً آخر...

توقف، ثم تابع مغالباً المشاعر العظيمة التي حُبست في روحه.

- لكني أعلم أن قلةً من الناس معك، وأني سأفعل الكثير، وأعرف أيضاً أن الأب نيكو رجلٌ مسنٌ.

حدق في الأب الروحي ودونانا.

- سأبقى شهراً آخر لمساعدتك... وأدار ظهره وغادر.

قالت دونانا لزوجها معلقةً:

- إنه فتىٌ طيبٌ يا بيدرو. فتىٌ طيبٌ مجنونٌ. حتى مع سمعته كفجرىٍ وعدم انضباطه؛ إلا أنه لا يزال فتىً طيباً.

- كنت أعلم أنه سيغادر ذات يوم؛ بل لقد فاجأني تحمله الشديد هذا؛ ولو أن الأمر لي لأبقيته معنا، لكن هذا ليس من حقي؛ فأنا لم أطلب ذلك ممن هم أولادي، أبنائي الذين بأسمائهم كل أرضي؛ فكيف أطلبه من صبيٍّ لم يعرف يوماً معنى التملك؟ كيف أطلبه من روحٍ شجاعةٍ قويةٍ لم تتعلق بأي شيءٍ؟... سأدعه يذهب... لا أريد إلا أن يباركه الله...

\* \* \*

... ومضى الشهر، ولكن المطر لم يأت. ظل الأفق أحمر كحاجةٍ إنسانيةٍ. بعد ظهر أحد الأيام، وصل العراب نيكو حاملاً أخباراً محزنةً كاد قلب بيدرو أزيفيدو ينفطر لها ألماً. إنها اللحظة التي لطالما خشيتها أكثر من غيرها.



- أخشى أن عليّ فصل الماشية، أيها الرفيق بيدرينيو؛  
وإلا فالماء سيجف.

كان بيدرو أزيفيدو يعرف تماماً ما يعنيه ذلك الكلام. لا بد أن الجفاف أشدُّ من أي جفافٍ سابقٍ؛ بل لعل براري ريو غراندي دو نورتي لم تعرف مثل هذا البلاء قطُّ؛ حتى حين يشرف الماء على الجفاف!

مسح عن جبهته عرقه البارد المتساقط. لم تكن هنالك حاجةٌ لإخبار العراب نيكو بما يجب القيام به؛ فقد كان الرجل المسن يعرف البراري مثله تماماً.

- غداً سنفصلها؛ فمن يمكنه مساعدتنا في هذا العمل؟

- شيكو ورجلان آخران من أصدقاء كاستورينا.

- جيدٌ جداً يا رفاق. سنبدأ العمل صباح الغد.

عندما حل الفجر، كان بيدرو أزيفيدو جاهزاً بالفعل؛ فقصد مزرعة العراب نيكو، فرأى أن حصانه مقيدٌ فعلاً. ألقى التحية على نياروزا التي وصلت عند النافذة.

- أين شيكو؟

- لقد ذهب قبلنا أيها العراب.

صعدوا مغادرين في اتجاه الماء، وكان الصباح حاراً ورطباً وقد ظهرت أولى خطوط الضوء الأحمر منذرةً بشمسٍ حارقةٍ في السماء.

هرولوا متجاورين دون أن يقول أحدٌ أي شيءٍ. لاحظ بيدرو أزيفيدو الخراب الشامل؛ خراب كل شيءٍ؛ بل لم يكن هناك شيءٌ تقريباً. كانت المناظر الطبيعية هي ذاتها في كل الاتجاهات؛ فاستولى على روحه إحباطٌ كبيرٌ.

اتخذوا الطريق المختصر المحاذي للجبل، ولم يكن هناك سببٌ للحديث. ما الهدف من ذلك؟ ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ الجميع يعرف ما عليهم فعله. ما أن وصلوا حتى قاموا بتقسيم القطيع إلى قسمين؛ بحيث تبقى الماشية المهمة بجوار الماء، ويتم تقسيم القسم الآخر إلى قسمين أيضاً يشرب أحدهما في يوم، والثاني في اليوم التالي؛ وبذا يؤمن الماء لأنقى وأفضل ماشيةً. لن يتم إصدارها من الماء أبداً، لكنها ستشرب مرةً واحدةً فقط في اليوم، وسيتولى أحد رجال المزرعة زمام منع أحد الأقسام من الشرب مرتين. كانت هناك حاجةٌ ملحةٌ لتقنين المياه، فمن يدري متى ينتهي الجفاف، أو إلى متى سيصمد الماء. ستعاني المجموعتان الأخريان أكثر بكثيرٍ ويتم فحصهما لمعرفة مقدار المقاومة الجسدية التي يمكن أن يتحملها كل حيوانٍ فيها.

من المؤكد أن الماء إن انهمر منعشاً في البراري فوق مئات الرؤوس، فإن عدداً قليلاً فقط سيعود للشرب من السد.

قسّموا القطيع؛ وبدا الحزن في عيون الثيران يعكس



فهمها للمأساة. كان قلب بيدرو أزيفيدو ينفطر هو الآخر.  
أخذوا القطيعين الأخيرين مسافةً بعيدةً من الماء. كان  
طابوراً من ماشيةٍ بطيئةٍ وحزينةٍ تتضاءل وتتضاءل بمرور  
الأيام...

وها هو شيكو، في الصباح الجاف، يغني ويقود الماشية  
إلى مجاعةٍ حتميةٍ.

- حجر... مهلاً! أناكوندا!... ابتعدي عن الطريق أيتها  
البارونة! يا... ثو... ر...

غطى الغبار الذي أثاروه مشهداً لا حياة به.

عندما حل الليل، ظهر شيكو في المزرعة ليعلن نفوق  
القطيع. لقد قاتل شهراً ككلب، فقد عاش في حقولٍ محترقةٍ  
يربط الماشية المتهاوية. فاضت عيناه دمعاً ويأساً لرؤية  
الماشية تتساقط وتحتضر؛ فسهر على رعاية صغارها التي  
رافقها منذ ولادتها. كان يحب ترتيب أسمائها بنفسه. ترجل  
عن حصانه، واقترب من الماشية المتهالكة، فطوّق بذراعيه  
القويتين عنق الحيوان مواصلاً ترديد كلمات المودة من حلقة  
الجاف المترع بالغبار، وساعده على الوقوف على قوائمه؛  
لكنها كانت بادرةً غير مجدية؛ فقد أضحت الماشية أضعف  
فأضعف. كان الماء يتبدد، والحصص تتناقص، والجفاف يحرق  
ويجرف ويقتل ويهلك. سيقف الحيوان لساعاتٍ قليلةٍ أخرى،  
ثم ستتأرجح أرجله في مشهدٍ من شأنه أن يطمس المناظر



الطبيعية المتماثلة في الضوء الساطع... وصلت «لوريان» فهوى جسدها على الأرض المحمرة. عاد شيكو مجدداً، وفتح قربة الماء قليلاً ورطب شفتي الحيوان الساخنة المتشققة، ووضع ذراعيه حول عنق الحيوان الساقط يحاول رفعه بنفس الكلمات؛ كلمات روح شجاعة وقاسية تريح الحيوانات الأخرى التي كانت تحتضر؛ لكنه كان دائماً متأخراً جداً.

كانت النسور تحوم بلا انقطاع فوق الحقول التي غطتها جماجم وعظام الثيران، وقد وجهت الرؤوس المتحللة قرونها المدببة نحو السماء بشكلٍ غريب. كانت رائحة اللحم المتعفن تتبع من هذه الأشلاء. انبعثت تلك الرائحة الكريهة مختلطةً بالغبار الخانق في المساحات الخالية من الرياح...  
مرّ شهرٌ ولم تهطل الأمطار.

سقط شيكو على ركبتيه وانتابه شعورٌ بأن الأرض تنهشه؛ وتنهش منه القلب، ذاك العضو الأكثر حساسية حيال قسوة تلك الأرض التي تحتضر ببطءٍ. راح يرمق بعينيهِ المحترقتين مناظر البراري القائمة بحقولها المغطاة بهياكلٍ عظميةٍ مهجورةٍ، ورائحتها الكريهة المنتشرة فيها؛ فشعر بالعذاب وسط كل هذا العار. أشعّ الأفق باللون الأحمر والشمس النابضة، وارتعدت الجبال لهول ذاك الضوء الباهر. كانت الحرارة تلتهم كل شيءٍ، وكانت الحقول في فوضىٍّ، واكتسبت



الأرض المتهالكة رداءً برونزياً وهي لا تزال ترفع ستارة الغبار ذاتها نحو السماء. كان للصار والشوكيات بأنواعها وللأشجار النائمة أغصانٌ كالمخالب، أما حجارة الممرات، فكانت تغلي، وتغلي، وتغلي...

كان المشهد سديماً بالكامل، وكانت جميع عوالم الطبيعة تُبتلع في أحشاء الجفاف. جفاف... جفاف... جفاف...

لأنه كره الأرض التي ماتت أطبق قبضتيه القويتين وواصل لكم الأرض. كان يلكمها بقوة. كان يواصل لكمها إلى أن يسيل الدم من يديه، فينهار جسده وتخور قواه. ثم جلس ببطءٍ، ونظر مجدداً إلى المناظر الطبيعية، وغطى وجهه بيديه الملطختين بالدماء وبكى. كان يصرخ بجنونٍ ولعابُه يسيل على الأرض الميتة التي لا حياة بها...

\* \* \*

كان مذهولاً تماماً في بداية الأمر. ربما عليه الذهاب إلى ناتال؛ فهناك، يمكنه العمل بالقرب من رصيف الميناء في تفريغ رزم القطن، وسيكون هناك الكثير من الماء بالتأكيد. ستكون هناك مياه الأنهار بقواربها وزوارقها وسفنها ويخوتها؛ فتموجات نهر بوتنجي خضراء دائماً. لا! لم يستطع شيكو الذهاب إلى ناتال. لقد أراد نسيان البراري. لا تزال الأرض ميتة؛ فإذا ذهب إلى ناتال، فسيلتقي حتماً بأطفال بيدرو

أزيفيدو، وسيغدون حينها ذكرياتٍ ملازمةً له عما لم يعد يريد معرفته؛ ذكرياتٍ عن البراري التي ماتت.

ثم تذكر أنه سمع عن أحواض الملح في ماكاو. هناك، لم يكن الناس يتضورون جوعاً، وكان الكفاف مضموناً. يقال إنهم ينغمسون في البحر بمجارف ومعاول ليستخرجوا الملح منه. على الرغم من أن الماء مالِحٌ، إلا أنه لم ينفد. وسار إلى ماكاو وهو يعلم أن الرحلة يمكن أن تكون قاتلةً إذ تتطلب المسافة المقطوعة مسيرَ شهرٍ على الأقل مع كل قسوة الجفاف؛ لكنه سيصل إلى وجهته. لقد سلك تلك الطرق من قبل فخر كل اتجاه يحتاجه فيها. يمكنه أن يسلك وادي سيريدو؛ أو أن يعبر براري لبايكسا فيردي؛ وهذا ما كان يميل إلى القيام به. في بايكسا فيردي يستقل قطاراً يأخذه إلى إبييتاسيو بيسوا؛ ثم يسهل عليه من هناك الوصول إلى ماكاو.

وهكذا أدار شيكو ظهره لأراضي بلدية ساو تومي؛ تاركاً وراءه جفاف أراضي بيدرو أزيفيدو، ومزرعة العراب نيكو ونياروزا التي تلد كل عام، وكذا القرويين الودودين، وبنات العراب فينانسيو اللواتي واصلن، رغم كل قسوة الجفاف، العمل بجدٍ وكدٍ حتى لا يصبحن عالّةً... كلُّ البراري التي رسمت ملامح حياتهم ضاعت في المسافات.

لكن البؤس الذي يلزمه كظله يواصل زحفه على بقية



البراري.

ازدادت بانوراما الخراب بتقدمه.

كان الأب بيدرو يقول إن موجات الجفاف في أراضي ساو تومي حميدة، فلم تتأثر بسبب قربها من الريف.

الآن عرف شيكو معنى الجفاف؛ الجفاف الحقيقي.

كان العالم جافاً ميتاً على طول الطريق بشكلٍ مؤثر، وكانت المناظر الطبيعية فريدةً محزنةً. تحولت الأشجار من الأفق إلى الأفق إلى جذوعٍ سوداءً. نعم، لقد بدا هذا المنظر كطبقي طينيٍّ مليءٍ بعظام الأسماك.

غدت السماء أكثر رماديةً واكفهراراً تحت أشعة الشمس الفتاكة بالكامل. لقد تصدع كل شيءٍ: التلال والمنحدرات والصحاري والطرق وكل شيءٍ.

- يا إلهي! لقد تشققت الأرض!

بدت المزارع مهجورةً خرساءً، وكانت بقايا الماشية تتعفن فوق الأرض فيبدو بياض العظام النتنة التي تشير دائماً إلى السماء.

لم يكن هنالك سوى المزارع المهجورة؛ مزارع لا أحد فيها. دخلها شيكو على أمل العثور على الماء. دخلها وفرك عينيه فلم يكن فيها سوى الصمت والهجران، وهناك؛ في الداخل؛ تنفس سبات الموت والنسيان؛ فلعله هناك يستطيع

على الأقل أن ينال قسطاً من الراحة من جرّاء ما لاقى من حرٍّ. كان هنالك ظلٌّ. متى سيعودون إلى هذه المزرعة؟... بل هل سيعودون يوماً؟

مرت الأيامُ وسارَ شيكو، واشتد الجفاف وتفاقم، فباتت الأرضُ حمراءً وتطاير الغبار متحولاً إلى رمادٍ، وبلل العرق ظهره وتصبب على جميع أجزاء جسده.

كان بين الحين والآخر يلتقي بالناس السيارةً مثله.

بدأ يرى شخصاً سوداءً تتحرك في الأفق؛ خيالات سوداءً برزت في الشمس تقترب شيئاً فشيئاً.

بات بمقدور عيون شيكو أن ترى من بعيدٍ كل ما يمر بهما من وجوهٍ بئسةٍ هزيلةٍ قذرةٍ جوفاءٍ. كان بروز العظام من الجلد عجيباً، والملابسُ ممزقةٌ تفوح منها رائحة الأوساخ والعرق؛ والحقائبُ على الظهر، والسلالُ والأوشحةُ لا تزال تشد ظهور تلك الكائنات المرتبكة من الرجال أو الجثث.

نظر بعضهم إلى بعض، وقارنوا مآسيهم من خلال تبادل النظرات ذاك؛ فأدركوا أن أيّاً منهم لم يكن يملك ماءً، فابتسموا ابتسامةً حزينةً وواصلوا المسير؛ ولما استداروا ليروا شيكو؛ كان قد غدا خيالاً أسود يمشي في مواجهة الشمس.



ظلت شجيرات الصبار والشوكيات صامدةً في ذلك المنظر الخليط من اللون الأرجواني والأحمر والرمادي والأسود، كالمتفاخرة بكونها خضراء خضاراً رائعاً كما لو كان برعم أملٍ أخضرٍ يبشر باخضرار البراري ذات يومٍ حتى لو كان ذاك اليوم قصيراً كالأبدية.

في ظل الصبار رأى شيكو عائلةً قد استسلمت؛ فدنا منهم؛ فإذا هم خمسةٌ: أبٌّ وأربعة أطفالٍ. قالوا إنهم لم يعودوا قادرين على المشي بعد الآن؛ وأنهم مشرفون على الموت؛ فطلب منهم شيكو أن يمشوا، ويمشوا، ويأتوا معه. لم يستطع الرجل البقاء تحت الشجرة في انتظار الموت؛ لكنهم في الحقيقة لم يعودوا راغبين في العيش أكثر. ظلوا هنالك، والتهبت عيونهم بالحمى وهم يحدقون في ذات المشهد؛ المشهد الذي أيقنوا أنه لن ينتهي أبداً. لم يتحركوا؛ وأحجموا عن تبادل الحديث فيما بينهم. وحدها عيونهم المحمومة مثبتةٌ على المشهد المتموج.

حسب شيكو أنه سيصل إلى بايكسا فيردي في غضون يومين، ولذا فتح حقيبة سفره وشاركهم قطعةً من لحمٍ مقددٍ، وانطلق؛ فمشى وفكر. لم يكن عليه أن يفعل ما فعل، فهؤلاء الناس لم يعودوا يريدون العيش؛ فدعهم يموتون؛ ولعل قطعة اللحم هذه تنفع من يريد أن يعيش. ثم لم تكن الحقول مغطاةً بالجماجم وبقايا الثيران

أو الحيوانات الأخرى وحسب؛ بل تُرك البشر هناك أيضاً لتبيض عظامهم بانتظار النسور. النسور فقط، لأن الديدان ماتت بجفاف الأرض. من حينٍ لآخر، كانت مساحة هائلة من الأجنحة السوداء تحوم فوق الأرض باقتراب السائرين. مناقير قذرة كانت تقف على شخصٍ ما. كان ذا إنساناً يسير إلى حتفه.

ومشى الجميع موجاتٍ تليها موجاتٌ في كل اتجاهٍ مهزولين يبحثون عن أية طريقةٍ من شأنها أن تتقدم من الجفاف. ساروا دون أيّ إحساسٍ بالاتجاه؛ ولكنهم غالباً ما كانوا يسعون إلى الموت من حيث ظنوا أنه بعيدٌ جداً. مشوا. أرادوا المشي. المهم هو المشي، والهروب من الموت أو الاقتراب منه دون وعي.

كم هو محزنٌ حين تلتقي مجموعتان فتتحدثان عن كثيرٍ من الأشياء التي توحى بالقذارة؛ فتختلط الكلمات بدماءٍ قذرةٍ في خطابٍ أجشٍ سميكٍ لزجٍ.

- نحن ذاهبون إلى مجموعة ساو تومي...

- لا شيءٍ هناك. أنا ذاهبٌ إلى وادي أكو...

- لا شيءٍ في وادي أكو. لقد جئنا من هناك... وواصلوا

المشي في غموضٍ أكبرٍ وفرصةٍ أقلٍ للنجاة.

كان في حقيبة ظهر شيكو القليل من اللحم البقري



المقدد؛ ولذا اختبأ عندما رأى مجموعةً من المهزولين  
من بعيدٍ .

بدأتِ الجرائم بالانتشار، وانتشر القتل بين الناس بسبب  
العطش والماء .

نُهبتِ المواقع والمزارع، وسُلب الناس بسبب العطش  
والماء .

ضمرت ضمائر الناس، وقتلوا في جهود النجاة الأخيرة .

دُبِح الكثيرون في المزارع . رأوا مزرعةً فظنوا فيها  
ازدهاراً . في الداخل، كان المالك يحاول كغيره النجاة  
بنفسه، محاولاً التغلب على قسوة الجفاف . جاؤوا في  
زمرٍ صامتةٍ وأحاطوا بكل شيءٍ؛ فصرخ بهم من الداخل  
مطالباً إياهم بالمغادرة؛ فليس هنالك من شيءٍ، لكنهم  
لم يصدقوه؛ فأطلقت الرصاصة صفيراً وهم يواصلون  
التقدم . لقد ماتوا، لكنهم تقدموا . لقد ماتوا مثل أيِّ  
شخصٍ مات؛ سواءً في البراري أو في الفناء المغطى  
برمل المزرعة . مات كل شيءٍ .

هذا هو السبب وراء تواري شيكو وبقائه بعيداً . لم يكن  
يريد التحدث إلى أي شخصٍ، ولا رؤية أحدٍ .

كان اللحم المقدد قد نفذ من حقيبته . لقد انتهى؛ وقد  
حسب أن أمامه يومين للوصول إلى بايكسا فيردي؛ لكن

الجفاف يبدو قد امتد إلى منطقة البراري. كانت ساعات مسير النهار طويلةً جداً، وقد بدأت أقدامه تتألم تعباً. لحسن حظه أن كان دائماً يحظى بفرصة الحصول على بضع قطراتٍ من الماء، والاحتفاظ بها بعنايةٍ داخل القرية، ولا يعني ذلك وجود ماءٍ في البراري. كفى أملاً! بل كان في كل مدينةٍ أو قريةٍ يمر بها يتمكن من نيل القليل منه.

في المدن، تجدُ الخراب ذاته، فالمهزولون اجتاحوا كل ركنٍ، فتراهم يرفعون أيديهم النحيلة يتسولون الصدقات، وينظرون شزراً لمن لا يغيثهم فيكيلون له الشتائم واللعنات. إنهم مستقلقون في كل زاويةٍ. كان من الضروري أن يعتني الكاهن بالكنيسة، وإلا فسيغزونها هي أيضاً؛ فقد نسي الناس حتى الإيمان؛ ثم إن الله لن يعاقبهم بأكثر مما نالوا أصلاً.

وتغلغلوا خلال حدائق الأشجار الصفراء العطشى، فكان من حسن حظ السكان المحليين أنهم لم يصمدوا أكثر من يومٍ واحدٍ؛ فعند فجر اليوم التالي اختفوا كما تختفي سحبٌ جرادٍ ساقتها ريح الشقاء.

ستتالي الموجات موجةً تلو أخرى بذات المظهر. كانت تقاسيمٌ ومعالمٌ وجوه الجميع متشابهةً؛ جيعاً عطشى مهزولين قد أثرت الشمس الحارقة في وجوههم فتجمعت، وجعلت فيهم تشابهاً جلياً. هذا ما حدث مع



البراري التي اكتسبت منظراً فريداً، وهذا ما جرى للناس. كان لهم ذات الوجوه.

استراح شيكو؛ ثم فعل ما درج الآخرون على فعله حين يصلون إلى المدن؛ إذ ذهب يقصد منزل القس؛ الكاهن المسكين. كان منزله محاطاً بالخرق والسواعد الهزيلة والرؤوس البارزة من داخل تلك الخرق البالية؛ وكانت الأصوات تخرج من أحشاء الخرق، ومنها يتحدث الجوع كذلك.

كانوا كومةً من الخرق البشرية. كومةً قمامةٍ. حمولة من الخرق. كانوا بؤساً بغيضاً. خرقاً لو جمعت في كومة واحدة فسُكِب عليها الكيروسين؛ فأشعلت بفتيل من النار، لاحترق أولئك الناس كالقراد؛ بل ربما كانت رائحتهم لتغدو أسوأ من رائحة القراد بكثير. لكن لا، كان الأمر منطاً كذلك بتزلف إنسانٍ من آخر والتوسل إليه ليعيش: الكاهن، الكاهن المسكين، لا بد أن يساعدهم ويسأل الله غوثهم...

ثم اتخذ شيكو بعد ذلك طرقاً بريّةً جديدةً. كان عليه أن يمشي. كانت ملابسه قد اكتسبت بالفعل صبغةً قذرةً، ورائحةً كريهةً كأبي وباءٍ آخر؛ كما أنه بدأ يفقد وزنه. عما قريب يصل إلى بايكسا فيردي فيستقلُّ منها القطار الذي فيه خلاصه.

مشى كثيراً، ولا يزال يمشي، وواصلت الطرقات

والسماوات والجادات المختصرة والحقول لفظ رفات الناس في موجة هائلة من الجلود. لم يتوقف أولئك الناس. لم يتوقفوا أبداً، رغم أنهم علموا أن جميع طرق البراري التي ما زالت متصدعة ستفضي إلى مفترق طرق الموت.

ازداد الجفاف حتى بدا من المستحيل أن يكون هنالك خرابٌ أكبر من ذلك الخراب؛ بيد أن الحقيقة أن هنالك ما هو أكبر منه، والمزيد آتٍ. ومر ما يقرب من عامين من الجفاف. سنتان دون سقوط قطرة ماءٍ واحدةٍ. هناك، في المكان الذي يجتازه شيكو الآن، لا يمكن لأحد أن يحكم على وجه اليقين ما إذا كان حقلَ مرعىٍ أو حقلَ بستانٍ؛ فلم يكن فيه سوى سهولٍ من الأوساخ والغبار. في الأفق امتزجت السماء الرصاصية بالأرض الحمراء، وكان الوقت قد تجاوز الظهيرة.

لم تكن هنالك صبارةٌ واحدةٌ أو أي نباتٍ شوكيٍّ يمكن لشيكو أن ينصب أرجوحته الشبكية عليه بانتظار حلول الليل الذي سيأتي دافئاً ورطباً كباقي الليالي.

وفجأة رأى من بعيدٍ مزرعةً مهجورةً؛ فمشى نحوها ببطءٍ إذ بدأت قواه تضمحل. أشرفت شمس الأصيل على الزوال ودنا أول الليل. كانت المزرعة مرتعاً للأشباح. دخل وربط الأرجوحة بعوارض السقف وجلس واضعاً حزمه على الأرض؛



ففرك قدميه المتألمتين واستلقى على ظهره؛ وأغمض عينيه. كان حلقة يحترق ظمأً؛ لكنه لا يريد أن يشرب إذ لم يكن أسفل رأسه سوى القليل من الماء الذي سيدخره لليوم التالي إذ سيحتاج مزيداً من القوة للوصول إلى بايكسا فيردي. أخبره كل شخصٍ قابله أن لم يبقَ لوصوله الكثير. وتذكر سييتو دوبوكيرو. في تلك الساعة هناك، كان الأب بيدرو يعرف عدد الماشية التي نفقت خلال النهار. ذاك الرجل الطيب... بدأ النعاس يثقل جفنيه. لا بد أن الليل سيخفف من تعبهِ وعطشه. ومع ذلك، بدا لشيكو أن شيئاً ما كان يتحرك داخل المزرعة. أنينٌ أيقظه تماماً؛ فنهض. لقد كان متعباً جداً لدرجة أنه لم يفكر في تفحص المزرعة قبل نومه. كان في حقيبته علبة ثقابٍ أشعل منها عوداً ورفعها في الهواء؛ فدمعت عيناه إذ رأى هنالك ما بدا كأنه بشرياً يخرج من خرقٍ قذرة. مد له يداً نحيلةً، ودنا منه مشعلاً عود ثقابٍ آخر؛ فإذا به وجهٌ ذابلٌ قد ابتسم له في هيكلٍ عظميٍّ مغطىً بجلدٍ أصفرٍ جافٍّ؛ وعينين بنيتين فيهما نورٌ حياةٍ خافتٌ. حاول الفم أن يتحرك، وأراد اللسان المتورم أن يتكلم... ففهم شيكو أنه يطلب الماء؛ فحمل حقيبته وأخرج منها قربة الماء، وأشعل عود ثقابٍ آخر، وركع بجانب الجسد. أدنى فم القربة من شفثيه السوداوين المتشققين، وسكب الماء قطرةً فقطرةً. في البداية، بالكاد حرك الآخر عضلات وجهه المتشنجة؛ ثم نفذ الصبر، واشتعلت الرغبة في الشرب.



الماء. الماء الذي لم يره منذ آلاف السنين.

وضع شيكو ذلك الرأس على الأرض برفقٍ، وسقاه مزيداً من الماء. حينها فقط رأى أن القربة قد جفت أيضاً. كل شيءٍ يميل إلى الجفاف.

أشعل عود ثقابٍ آخر. نظر إلى ما كان رجلاً؛ فرأى أنه بات يتحدث الآن بضعفٍ شديدٍ. أدنى رأسه من شفثيه ليسمعه؛ فعجبَ لسماع ذكر اسمه.

- شيكو... شكراً...

تحير وسأل:

- من أنت يا صديقي؟ كيف تعرف اسمي؟

- أنا... أنا... ريفالدو. اذهب للنوم يا شيكو. أنت... أنت متعبٌ.

- نعم. أنا متعبٌ حقاً. سأترك القربة بجانبك؛ فإذا ما بدت لك حاجةٌ لأي شيءٍ، فدحرجها على الأرض، فأستيقظُ...

واستلقى على الأرجوحة الشبكية يفكر.

كان ريفالدو. أعظم راقصٍ في الشمال الشرقي. إنه خيرٌ من رقص رقصة ثور الملوك من الفتيان... ها هو ذا هيكلٌ عظيمٌ منزوٍ في ركنه. ريفالدو. لقد أتى الجفاف على ريفالدو...



عندما استيقظ في اليوم التالي، قام وذهب يلتمس  
خبر الراقص فوجده قد فارق الحياة بجوار القربة  
الجافة؛ حارس العطش ذاك.

سال لشيكو خيطُ عرقٍ باردٌ، فمسح وجهه بيده؛ فإذا  
بالمشهد مختلفاً أمامه. إنها أحواض الملح، والقوارب الراسية  
في نهر أكو. لم يكن هناك جفافٌ. إنه يتذكر خجلاً تلك الحقبة  
الحزينة من حياته.

لكن كلماتٍ ملاخاي العجوز واصلتِ الضرب في أذنيه.

- قلبك محطّمٌ، شيكو! الآن تهيمن الخضرة من جديدٍ  
على البراري، وعلى كامل وادي سيريدو ووادي أبودي وآكو.  
الآن تخلع أراضي ساو تومي على نفسها ثوبها الأخضر.  
النهر مليءٌ بالمياه. أنت الوحيد الذي مات يا شيكو...  
أنت الوحيد.

نهض ومشى ببطءٍ طوال الليل باتجاه ميناء روغادو...



02

الجزء الثاني  
الطين الأبيض





## الفصل الأول

### دوم ميغل

ما أن وصل شيكو الهزيلُ الجائعُ المرهقُ إلى  
ماكاو، حتى جلس على حافة الرصيف يتأمل برويةٍ  
كلَّ تلك المناظر الطبيعية الجديدة عليه تماماً.

**كانت** مياه النهر تتدفق أدناه.

استراح لبعض الوقت، ثم وضع أولى خططه متذكراً أن  
أول ما يفعله جميع مَنْ في المدن، حين يضربهم الجفاف،  
هو البحث عن قسّ البلد؛ ولذا قرر أن يحدو حذوهم الآن؛  
فقد كان متعباً تعباً جعله عاجزاً عن التفكير في شيءٍ آخر.  
لقد أزفت ساعةُ الغسق.

نزل قليلاً وغسل وجهه المغبرّ في مياه نهر آكو



المالحة، ثم ألقى الشبكة على كتفيه ومشى.

سأل أحدهم عن بيت القس فأرشد إليه؛ وعلم في طريقه إلى هناك أن الكاهن المحلي كان قسيساً يُدعى القسيس هونوريو؛ وهو مسنٌ يمتدح الجميع ما فيه من وقارٍ وعاطفةٍ.

ومشى ببطءٍ يعدّ المنازل. لا بد أن هذا البيت بيئته. طرق الباب بقبضته، وراح في انتظار ردهم يواصل تفحص بؤس وقذارة ملابسه التي كان يرتديها؛ لكنهم سيدركون في النهاية أن سبب هذا كله هو ويلات الجفاف.

ثم جاءت سيدهُ لتسأل عن حاجته، وعمّا أتى به، ففتحت له الباب لينتظر في الردهة.

بعد ثلاث دقائق، ظهر القسيس هونوريو، وكان بالفعل مسناً قد غزا رأسه بياضٌ تامٌّ عامٌّ زاد من بياضه سمرةً بشريةً وجهه التي كانت من تداعيات مناخ ماكاو.

طلب من شيكو الجلوس فأبى في بداية الأمر لما في بدنه وثوبه من قذارةٍ بالغةٍ؛ بيد أن تعب كل ذلك المسير أخضعه.

طلب أولاً كوباً من الماء؛ ثم روى بعد ترددٍ قصته الكاملة للكاهن المسن.

ولمّا أن كان القسيس هونوريو معمراً قد طال مكوثه في



الدنيا؛ فقد عرف تلك القصة؛ إذ كم من شخصٍ من أبناء تلك البراري جاء لرؤيته؟ وكم من حالاتٍ حزنٍ مشابهةٍ؟ إنها قصة الشمال الشرقي المهجور الذي لم يتكل سوى على العناية الإلهية. استمع للفتى بصبرٍ إلى انتهى من مقالته، فسأله ببساطة:

- هل تناولتَ العشاء؟

- آه! لا.

- فتعالَ وكلِّ معي إذن. سنتعشى حتى نتمكن من التحدث بهدوءٍ أكبر.

دعا شيكو للدخول، وأخذه ليغسل يديه. في البداية، طلب شيكو تناول الطعام في المطبخ. لكن القسيس هونوريو اعترض.

- أعرف عزّابك بيدرو أزيفيدو؛ ولو أنّ أحداً ممن كنتُ عرابهم وصل إلى مزرعتك في ذات حالتك ذي، ما كنتم لتسمحوا له بتناول الطعام في المطبخ؛ فهو رجلٌ بالغُ الطيبة.

بدؤوا في تناول العشاء؛ فابتلعت معدة الصبي الضعيفة بشراهةٍ كل أصناف الطعام؛ فجوعُ الأيام الأخيرة سيحتاج منه الكثير الآن.

اختلس القسيس هونوريو بحزنٍ نظرةً إلى ذاك النهَم الذي



أكل به، وأيقن أن أياماً متعاقبةً من الجوع قد فتكت بمعدة هذا المخلوق، ولذا اقتضب من حديثه معه ما استطاع كيلا يقاطع طعامَ الشاب بأن يُضطر للرد.

ولمّا أن فرغ من طعامه، طرّز العرق البارد جبينَ شيكو؛ فتلك نقطة ضعفه. لم يمر أيُّ مما مرّ إلا لاحظته الكاهن؛ فقد خبر هذا الجانب من البؤس البشري الذي يعيد نفسه.

ونهما يقصدان الشرفة.

وَأَنْ آءُ بدء الحديث.

- تقصد أنك أتيت للعمل هنا؟

- نعم؛ هو كذلك. أريد أن أزاو أعمال الملح.

- لكنّ الحياة هناك رهيبَةٌ. هل رأيت كيف يعملون في

أحواض الملح؟

- ما كنتُ ممن يخشى العمل.

- لكنك الآن ضعيفٌ جداً، وتحتاج إلى الراحة والتعافي؛

ففي حالك ذي لن تحتمل ساعتَي عملٍ تحت الشمس.

- لكنني مضطّرٌ لذلك، حضرة القسيس.

- هنالك طريقةٌ ما. دعني أفكر للحظةٍ.

وحك رأسه برفقٍ فكأنما يحاول حل المشكلة بسهولةٍ؛



فأضاءت عيناه.

- وجدتُها. لتعملَ في أحواض الملح، عليك أولاً أن تعيش في مكانٍ قريبٍ؛ فلا يمكن لأحدٍ أن يعمل هناك وهو يعيش هنا. لي صديقٌ. نعم. لي صديقٌ إسبانيٌّ جيدٌ. شخصٌ طيبٌ جداً يُدعى دوم ميغيل.

توقف القسيس هونوريو لبرهة، وضحك بودً.

- عندما تتحدث معه، نادره بدوم ميغيل. سيكون سعيداً بذلك، ويتعاطف معك. لن يكلفك ذلك شيئاً، وسيشعر هو أنه يُعامل كما يُعامل في بيته. هل ستسسى ذلك؟

- لا سيدي. دو ميغيل.

- دو ميغيل. لا. دوم ميغيل. مع حرف الميم. دوم ميغيل.

وكررها شيكو بالشكل الصحيح بينما واصل القسيس هونوريو الحديث عن خطته.

- سأعطيك غداً بطاقة تعريف، وستعيش هناك. إنه رجلٌ طيبٌ وصديقٌ لي. يمكنك العمل معه في البداية؛ فلدوم ميغيل متجرٌ صغيرٌ؛ وريثما تستعيد عافيتك وقوتك، ساعده في عمله. هل يرضيك هذا؟

- نعم هذا مؤكّد.

لاحظ القسيس هونوريو أن عيني الفتى بدأتا تغلقان؛ وأنه يبذل جهداً كبيراً لفتحهما وإبقائهما مفتوحتين؛ لكن



التعب نال من إرادتهما .

توقف الكاهنُ المسنُّ، وربَّت على كتف الفتى وقال:

- أنت بحاجةٍ للنوم .

- لا سيدي... أنا ...

- أفهمك يا صديقي . أنا مسنٌ وأعرف ما هي الحياة .

تعال معي .

وأخذه إلى غرفةٍ من الغرف .

- هل أحضرت أرجوحةً شبكيةً؟

- معي واحدةٌ .

- فاذهب للنوم هناك إذن . نم جيداً؛ وغداً سأوقظك

حين أذهب للقداس . ليلةٌ سعيدةٌ .

كان شيكو في اليوم التالي في توقٍ كبيرٍ؛ فهو ذاهبٌ

إلى بورتو دو روكادو . قبل يد القسيس هونوريو وتناول

البطاقة .

مشى قليلاً فسمع الكاهن يناديه فالتفت إليه، وإذ به

يناديه:

- لا تنس مناداته بدوم ميغيل!

\* \* \*

بات الأمر مختلفاً الآن . نعم؛ إنه كذلك . ليلةٌ نومٍ هانئةً،



ومعدةً ملأى إلى حدٍّ ما. لقد اتخذتِ الحياةُ منحىً آخر. مر وفق المعطيات بشوارعٍ بدتْ جميعُ المنازل فيها متشابهةً تقريباً. إنه يبحث عن متجر دوم ميغيل. وفقاً للإشارات، لا بد أنه هناك. نظر إلى محلٍّ له ثلاثة أبوابٍ منها اثنان مغلقان تماماً اتقاءً الشمس؛ ودخل.

كان فيه رجلٌ يرتدي قميصاً بأكمامٍ يقرأ خلف المنضدة. حيّاه شيكو وسلّمه الرسالة؛ فابتعد ببصره عن الصحيفة، وقرأ الرسالة بعنايةٍ.

واكتفى شيكو بالتمعن. إنه دوم ميغيل. لا بد أنه قد تجاوز الأربعين عاماً. مازال شاباً فتياً وسيماً بوجهٍ أبيض، ولحيةٍ كثيفةٍ نظيفةٍ. كانت بشرته لا تزال بيضاء على الرغم من شمس ماكاو الحارقة؛ وكان صحيح البنية؛ أما شعره الأسود فراح يبيضُ بحداء صدغيه. كان باختصارٍ رجلاً أنيقاً.

عندما انتهى من القراءة، رفع عينيه اللتين لم تكونا خضراوين أو سوداوين؛ بل كانتا مزيجاً من كلا اللونين. ومرت دقيقةً، فبدا وكأنه يفكر في كل ما في شيكو من بؤس. لا شك أنه كان يحاول فهم سبب تلك القذارة؛ ثم ابتسم لشيكو أخيراً؛ فقابلها شيكو بابتسامةٍ أيضاً.



- أتريد العمل حقاً في أحواض الملح يا ولدي؟

- آه! نعم.

- يمكن تدبّر ذلك.

كان يتحدث بلكنة برازيلية تقريباً، لكنه كان أحياناً يخلط المحادثة بمصطلحاتٍ من لغته الأم، وهو يحدّق في شيكو من أعلاه إلى أدناه؛ فلاحظ بطبيعة الحال أنّ الصبّي كان في حالة وهنٍ شديدٍ. لقد حسب مدى معاناة هذا الوجه الهزيل الشاحب بفعل الشمس؛ فهو يعرف أيضاً معنى الجفاف، بل شهده في كل عام من أعوام البلاء، فكان يرى مجموعاتٍ بشريةً مماثلةً في القذارة تتوسل للعمل في أحواض الملح. أناسٌ بقدرٍ شقيّ.

- أنت ضعيفٌ، ولن تكون قادراً على العمل قبل أسبوعين على الأقل. يبدو أن الجوع أثر فيك جداً، أليس كذلك؟

ضحك شيكو بشيءٍ من الحزن وقال:

- نعم؛ هو كذلك.

- لكننا سنصلح الأمر. أولُ شيءٍ تحتاجه هو الاستحمام؛ استحمامٌ في الحوض، ثم...

قام بفحص ما في جعبة شيكو وخمّن ما فيها. بما جلب فيها من حيثُ أتى أرجوحةً شبكيةً أو غطاءً أو



تذكراً أو اثنتين. لا بدّ أن الأمر كذلك؛ فحقيبة الرجل  
الهزيل فارغةٌ وخفيفةٌ.

- هل لديك ملابسٌ غير ملابسك التي ترتديها؟

- كنتُ قد أحضرتُ ملابسَ مختلفةً، لكني رميتها في  
الطريق حين أثقلت كاهلي.

- أوه!

- أما الآن؛ فليس لدي من الملابس سوى ما أرتدي.

نظر دوم ميغيل إلى ظهرية الملابس الرثة و السراويل  
التالفة.

- إنها في حالةٍ سيئةٍ للغاية. سأجد لك غيرها. تعال  
معي.

تبعه شيكو بعدما أغلق باب البيع، ودخلا منزل دوم  
ميغيل الواقع في الجزء الخلفي من الحانة.

كان هنالك في الحديقة سياجٌ من أشجار جوز الهند،  
وكان حوض الاستحمام هناك. دخل شيكو وبدأ في خلع  
ملابسه؛ وكان في إحدى الزوايا إبريقٌ ماءٍ كبيرٌ نصفُ  
فارغٍ. إنها قريبةٌ تتدلى بين الحوض وجدار أشجار جوز  
الهند. وبدأ يستحم بينما دخل الإسباني ليحضر له  
ملابسَ ومنشفةً وقطعة صابونٍ أخرى. واستمر الماء في  
التدفق فوق جسد شيكو الهزيل؛ فغسل به رأسه، وفرك



كامل جسده بالصابون.

انتهى فارتدى ملابسه وخرج فبدا الآن شخصاً آخر  
بعد أن غسل تراب الجفاف الملعون، وأصبح مستعداً  
للعيش مرةً أخرى. شعر بالرفاهية.

نظر إليه دوم ميغيل.

- لقد تحسن مظهرك قليلاً على الأقل. كنت تبدو في  
حالةٍ يرثى لها. أعتقد أن ما نحتاجه الآن هو غداءً جيداً  
قريباً.

وهكذا بدأ شيكو وجوداً جديداً في حياةٍ تتسجم مع  
أحلامه، فتلاشى بذا شعوره بعدم الأمان تدريجياً.

كان يساعد دوم ميغيل في بيعه، ويتغذى بشكلٍ جيدٍ.  
من الشرفه؛ كانت تعبر عينيه غالباً حيويةً يوميةً بيضاءً  
متوهجةً جعلته يرى أبعاد وزوايا الحياة الجديدة التي كان  
على وشك أن يبداها.

من بعيدٍ تلمع أهراماتُ الملح بلا حسيٍّ كأنما هي  
حواف السكين؛ وقد بدا الرجال الذين تهافتوا نحو  
تلك الكتل البيضاء البعيدة العمياء وكأنهم بقعٌ سوداءٌ  
بأنسةً...



## الفصل الثاني

### قصة جوانينيا ماريسيا

**على** الرغم من أن قوة شيكو لم تعد بالكامل، إلا أنه بادر للعمل خلف المنضدة عن طيب خاطرٍ، بل كان سعيداً بفعل ذلك لأنه بذًا يساعد دوم ميغيل. كان يتلقى ثمنَ طعامه وأجرَ وظيفته رغم أنه كان عملاً خفيفاً جداً بالنسبة لشخصٍ عرفت قبضته كلَّ الأعمال الشاقة؛ ولكنها هزلت بعد ما خاض من تجربةٍ رهيبهٍ قطع فيها تلك المسافة، ونجا من جفاف المناطق المتصحرة التي اجتازها مؤخراً.

لكن هذا سيمرّ فلا يبقى منه سوى طيفٍ خالي الملامح عالقٍ في ذاكرته، أو حلمٍ سيءٍ أو كابوسٍ. عادت القوة إلى جسد شيكو، وعادت إلى شفثيه ابتسامته الخادعة أحياناً، ونمت عضلاته وتعافت تحت ملابسه. يبدو أن الحياة عادت



هائئةً كما كانت يوماً.

كان يبيع للصيادين الخمر، ومعلبات لحم البقر المقدد، وفتائل المصاييح، ولترات الكيروسين؛ فكان كل شيءٍ جديداً بالنسبة له.

استمع لمحادثاتٍ جديدةٍ منها أشياءٌ حزينَةٌ تتعلق بعمال الملح؛ وأخرى بشائعاتٍ عن البراري وقصصِ الجفاف، وأخبارِ الأرض التي عاش فيها أو مرَّ بها، وقصصِ عن شجاراتٍ وجرائمٍ، وقتالاتٍ بالسكاكين وإطلاقِ نارٍ وصفحٍ. كل هذا كان ينبجس ما بين رشفةٍ من خمرة القصب وضحكةٍ لذيذةٍ وتجشؤٍ...

بدا أن شيكو يقف خلف المنضدة مستمعاً باهتمامٍ لحديثٍ ذي نكهةٍ جديدةٍ.

من قصص القوارب واليخوت إلى العبّارات وحطام السفن، وحياة الصيادين، والشباك التي مزقتها القروش، وأساطير قرش المطرقة، وقرش بينتادينيو؛ القرش الذي على جبينه مرآةٌ يجذب بها القوارب ويبهز الصيادين... كان المسنُّ بايانو شخصاً يعرف حقاً كيف يروي كل القصص العظيمة؛ فقد كان ذا صوتٍ عجيبٍ يستطيع تعديله بطريقته الخاصة وفقاً للتأثير الذي يقرؤه في وجوه المستمعين. كان بايانو فناناً رائعاً تُظلم عيناه عند المقاطع الخطيرة، وتكتئب شفاته حين يكون الأمر بلا أملٍ أو مستقبليّ.



كان يعرف كيف يتظاهر بالخوف تارةً والشجاعة تارةً؛ وذلك في تناسقٍ وموائمةٍ لاحتياجات القصة التي يرويها.

أزف الأصيل فكان شيكو متلهفاً أن يشهد ظهور بايانو، فيأخذ رشفةً من الخمر، ويبصق على الأرض، ويبدأ الحديث.

قارن أولاً ضعف خمرة البراندي التي شربها للتو مع مشروباتٍ أخرى جربها في حياته وقال: «وحدها الجنواريا من بين خمور القصب آتيةً من وادي نهر سان فرانسيسكو...».

هكذا يبدأ، ثم ينتقل لسببٍ ما إلى سرد أكثر روايات العالم إثارةً عن حياة أيِّ شخصٍ.

أما حين يحين دور قصص باهيا؛ وهكذا! كم يغدو متحمساً. لقد كان يعرف الحياة في باهيا كلها؛ داخلها وساحلها؛ فقد نشأ في البحر واعتاد السفر، فيظهر في موسم جني الملح ليهشم قدميه في ذاك الحطام.

كان ذلك يعجبه إذ لم يكن يجد أي فرقٍ بين قدمٍ كاملةٍ وأخرى محطمةٍ.

عندما كان يعود من أسفاره ليستقرّ ويجني الملح، كانت قصصه تكتسب زخماً يُضاف إلى ما لديه من أخبارٍ كثيرةٍ.

أحبّ شيكو قصص البحر. يصل بايانو فيسمع تعليقاً عن غرق قاربٍ أو انقلاب عبّارةٍ فيتذكر فوراً حدثاً أكثر



خطورةً كان قد شهده؛ فيتبرك مرتين للفت الانتباه، ويبدأ  
كعادته باسم قداسة أنامبوروكو.

بدون أنامبوروكو، كانت قصص بحار باهيا بلا فائدةٍ  
أو قوةٍ.

في واحدةٍ من فترات الظهيرة تلك، حدثت بايانو  
الحاضرين بقصةٍ جديدةٍ جداً سمعها شيكو.

كان المتجرُّ مكتظاً، وضوءُ المصباح يومضُ ثملاً  
برائحةٍ خمور القصب التي تبعثرت في المكان. أصغى  
الرجال إلى حديث بايانو.

سُمع من تلقاء المدخل صوتٌ يقول:

- عمت مساءً!

- عمت مساءً، جوانينيا ماريسيا.

نظر شيكو إلى الفتاة القادمة وابتسم. كانت جميلةً لم  
تبلغ العشرين من عمرها بعد؛ وهي ترتدي تنورةً بيضاءً  
مجعدةً قليلاً، وقد لسع ثدياها المدببان من داخل ثيابها  
رغبةً الرجال بقسوةٍ؛ أما حذاؤها العالي فقد أكسب  
فخذيها الرشيقيين طولاً، ومنح وركيها مزيداً من حُسن  
المظهر، أو لعلَّ عينيهِ اللتان امتلأتا ملحاً ذابتا في سراب  
تلك الفتاة الملكي فرأتا فيها أكثر مما فيها.

لكن هذا لم يكن كلَّ ما لديها. يا له من أملٍ!



شخصَ شيكو ببصره فوق على ذراعها الممتلئين غيرِ  
اللامعين والمتوردين قليلاً، وعنقها المتناسقي، وشعرها  
الفاحم الجامح المسبل للخلف بحرية مفرطة، وفمها  
نصف المفتوح، وأسنانها التي رسمت ابتسامة بيضاء،  
وأنفها الصغير المثير، وعيونها الشقية التي بدت كأنما  
تُحلل بوعي كل التوتر الذي يرسمه جسدها الفتى في وجوه  
الرجال.

لا جدال في أن جوانينيا ماريسيا كانت ساخنةً ضمناً  
وشكلاً؛ فهي الابنة الشرعية لمناخ ماكاو.

- أعطني نصف لترٍ من الكيروسين، أيها الشاب.

وضحكت لشيكو. مرّت عبر حلقة محادثة بين الرجال،  
ولو أن للعيون أذرعاً، ما كان للجسم أن ينتفخ إلى هذا  
الحد أبداً. كان ضوء المصباح معلقاً من جانب واحدٍ.

أعدت الكوب إلى المنضدة فاصطفق بتلك الحركة  
ثديها داخل بلوزتها البيضاء.

تلقى شيكو الكأس وحدّق للحظة في ذاك الوجه الذي  
دنا من وجهه، فأضاء في روحه ألف قبس، وابتسمت لها  
شفته ابتسامة انتصارٍ للودّ والفتوة.

وحين همّت بالانسحاب؛ أراد الرجال منها أن تقول  
شيئاً، فبادرها بايانو بقوله:



- جوانينيا . كيف تسير الحياة معك؟  
- ما زلتُ على قيدها .  
- وقلبك؟  
- يخفقُ .  
- و... الرجال؟  
- أيُّ الرجال؟  
وضحكت ضحكةً شريفةً وتابعت:  
- لم يعد لي رجلُ!  
- وأنا؟ ألا تحبينني... أنا؟  
فنظرت إلى بايانو المسنِّ بسخريةٍ .  
- أنتَ مجرد قاصِّ ناثرياً بايانو . أما ما عدا ذلك ،  
فقد تقدمتَ في السن!  
وساد هنالك ضحكٌ كثيرٌ؛ فأوماً بايانو المسنُّ ببعض  
الخرج .  
- حسناً ، ليلةٌ سعيدةً .  
وهمَّت بالمغادرة أيضاً؛ لكنها استدارت عند منتصف  
المدخل وقالت بتركيزٍ على نبرة كلماتها:  
- أعتقد أنني من الآن فصاعداً سأتي لشراء الكيروسين  
كلَّ مساءٍ؛ فالأمر يستحق العناء .  
ونظرت نحو شيكو وابتسمتْ ، ثم استدارت له بوركيها



الفتاتين المترنحين بفعل الحذاء العالي، وتوارت في الطريق.

علّق الرجال في الداخل:

- يا لها من امرأة!

- إنها ...

- نعم هي ...

فجأةً تحدث بايانو:

- كم أنتَ محظوظٌ أيها الفتى! فهي لا تهتم بأحدٍ هنا؛  
وتقول إنّ الرجال يموتون قبل أن يولدوا؛ أما تغاضبها  
عنك، فيدل على أن الزمن كفيلاً بكشف الكثير من الأمور.

وتذكّر شخصاً ما أن يسأل بايانو:

- بايانو. أنت تعرف قصص الجميع، فلماذا لا تحدّثنا عن  
جوانينيا ماريسيا؟ أراهن أنك لا تعرف ذلك.

- بلى، أعرفها؛ لكنها قصةٌ سخيّةٌ؛ بل ليست قصةً أصلاً.

- قلها كما هي.

- قلها، بايانو.

ونفذ صبر شيكو من وراء المنضدة، وهزه فضولٌ كبيرٌ؛  
فقد أراد حقاً أن يعرف قصة هذه المرأة؛ بل تلك القطعة  
الملتهبة من اللحم الحي.

لم يتبرك بايانو في هذه المرة، ولم يبدأ قصةً بحريةً



يلعب فيها أنامبوروكو دوراً رائداً.

- إنها قصةٌ سخيفةٌ كما قلتُ. وُلدتُ جوانينيا هنا في ماكاو. نشأتُ على الشاطئ، وتنفستُ هواء البحر المنعش، وأصبحت فتاةً صغيرةً مرتعشةً، وعندما ازدادت نضوجاً... باتت تقريباً على النحو الذي ترونه وتستفسرون عنه: ذلك الجسد الأسمر الذي تفوح منه رائحة العذرية الملفتة؛ والتي بفضلها نالت عرضاً من سيدٍ في كايكو لتولي وظيفة خادمةٍ في مزرعته، ثم حدث لها ما يحدث لجميع الفتيات الأخريات. السيد... الخ. لقد أرسلها للبحث عن الخشب في الأدغال وما إلى ذلك، وكان لها على ذلك ثلاث بنساتٍ... هذا كل شيء.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء. هذا أمرٌ شائعٌ لسيدٍ يملك مزرعةً؛ سواءً كان في كايكو أو سانتانا دوس ماتوس. هي ذي القصة.

- اللعنة!

- اللعنة؟ أما كنتِ لتفعل ما فعله؟

- أنا؟ حسنٌ...

- فعلاً. أيُّ شخصٍ آخر سيفعل ما فعله.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيءٍ مهماً. بدتُ كأنما أحببتُ الأمر فيقيتُ هناك تلتقط الحطب في الأدغال، وتلتقي به أكثر فأكثر



بالصدفة المحضة...

- لكن طريقتهما التي تتحدث بها توحى بأنها لا تحب الرجال. ألم تسمع ما قالت من أن الرجال يولدون أمواتاً؟  
- إنها مستاءةٌ منهم وحسبُ. نعم، هم يولدون أمواتاً!  
كان السيد يخشى التعرضُ للمشاكل، وكان خائفاً من العائلة فركلها. هم هكذا دائماً. يفضُّون الغطاء، ويستمتعون لبعض الوقت، فنُجنى بعضُ الأوراق النقدية، ويبتكرون أخيراً قصةً رائعةً كفيلمٍ دراميٍّ يرسلون بعده الفاسقة للبحث عن رجلٍ آخر؛ ولهذا السبب تراها غاضبةً جداً من الرجال.

- منذ متى كانت هناك؟

- حسناً، منذ حوالي عامين، ثم عادت لتعيش مع خالتها كريستينا التي لم تكن تدعوها خالتها حتى.

- ذاتُ الصدر الكبير؟

- هي بعينها. لا يمكنك أن تتخيل كم كانتِ امرأةً جميلةً! ما زلتُ أتذكر ذلك. لم يكن هناك من لم يحلم بممارسة الجنس مع العمّة كريستينا. أما اليوم...

- وماذا عن جوانينيا، ألم تمارسِ الحبَّ مع أحدٍ بعد ذلك؟

- لم نرَ من ذلك شيئاً. إنها متعجرفةٌ. إذا لم...



- لابد أن تكون في شبقٍ مجنونٍ.

والتفت الجميع نحو المنضدة، فشعر شيكو بالدفء  
يجتاح وجهه؛ فلولا أن الغرفة ضعيفة الإضاءة، للاحظوا  
كم كان محمراً على الرغم من لون وجهه البرونزي.

- اغتتمها أيها الرفيق!

شعر شيكو بعدم الارتياح في داخله. هذا صحيحٌ. كان  
عليه أن يغتتمها.

ومن ذلك اليوم فصاعداً، لم تعد قصص بايانو تهمّه؛  
فقد غدت جوانينيا ماريسيا كل شيءٍ. ما مدى أهمية  
خطاب بايانو العاطفي؟ وقصص البحر المأساوية تلك؟  
والإله أنامبوروكو؟

لا شيء من هذا مهمٌ. لم يعد هنالك من أمرٍ أهم من  
تلك الرغبة المشتعلة في جسدٍ حيٍّ.

جسدها من الداخل والخارج: جسدٍ جوانينيا ماريسيا...



## الفصل الثالث القيد البشري

~~~~~

أما الآن وقد أصبح قوياً حقاً، فقد حان الوقت لإلقاء نظرةٍ أخرى على المسطحات الملحية. صحيحٌ أنه تذكر ما قاله له دوم ميغيل؛ لكنه لن يزعج نفسه فقد بات قوياً جداً، وقادراً على التعامل مع العمل؛ ثم إنه لم يعد يفكر بالعودة للبراري البائسة التي جفت.

ذهب بحثاً عن وظيفة فتم قبوله والترحيب به على الفور؛ وذلك أن جني الملح على وشك البدء، وأن هنالك نقصاً في الأيدي العاملة. لاختباره، كان عليه أن يتجاوز التزاماً صغيراً، فإذا ما استطاع تحمله، استمر في العمل ما شاء.

وعاد ليخبر دوم ميغيل بالمستجدات.



ابتسم له الإسباني بحزنٍ دون أن يقول شيئاً؛ بل رحّب بقرار الفتى بصمتٍ، وراح يفكر بعمقٍ في ذا الفتى الوسيم الذي سيُدفن في قبرٍ من الطين الأبيض؛ كما تذكر الحياة الخانقة اليائسة هناك. هناك في الأفق سيتضاءل أو يضيع حالاً في حُفر الملح بقدمين ستتشققان بسم كلوريد الصوديوم؛ وكان أسوأ ما في الأمر أن تعرف أن ذاك الملح لم ولن يكثر لتلك الأرواح المدمّرة. لا حياةٌ مهمةٌ سوى حياة أصحاب أهوار الملح وحدهم؛ ففي أعمال الملح، لا فرق بين أن تُدفن حياةٌ واحدةٌ أو مئةً. بعيداً هناك، نما أربابُ عمل أولئك البؤساء المهزولين على دماء العاملين التائهن، فامتلاتّ خزاناتهم بفضل ضوءٍ يرهق كثيراً من الأرواح اليائسة.

عرف دوم ميغيل سوء قانون العالم؛ والذي بموجبه يضحي البعض بنفسه في سبيل الآخر؛ ويُلتهم ليتمكن الآخر من البقاء حياً منعماً؛ وفي قائمة العالم المتحضر اللاواعي، تظهر الإحصائيات - في رأيه - على النحو التالي:

«إن شركات ويلسون سونس ايسيا، وآي.آر.إف. إم ماتاروزو، وهنريك ليچ، وتيرتوليانو فيرنانديز، وباولو فيرنانديز، وآلفيردو فيرنانديز هم أصحاب مصانع الملح الممتازة...»

وهم أناسٌ قد لا يعرفون ما هو حوض الملح أصلاً؛



أناسٌ امتصوا نسغ غيرهم ليجمعوا ثرواتهم. لا شك أن هذا هو آخرُ شكلٍ من أشكال العبودية البشرية: أعمالُ الملح.

كان دوم ميغيل يتابع حياة أعمال الملح لسنواتٍ عديدةٍ؛ ولذا تذكر مآسي مشاريع الملح الصغيرة؛ فقد أُجبر أصحابُ شركات الملح الصغيرة تلك، والتي اختقت بفعل الأزمات المتكررة، على نقل شركاتهم الصغيرة إلى أيدي أصحاب الكبيرة منها؛ فبات الملاك الصغار عالقين في الهواء الطلق بلا حمايةٍ، يتأرجحون تحت رحمة القدر. إنهم ضحايا عدم استقرار السوق العاجزون في مواجهة التدهور السريع، وجودة المنتج؛ وهذا الغلاء والاختناق كان بسبب كبار منتجي الملح الذين لم يشمّوا نتن رائحة أحواض الملح عن قربٍ، ولم يختبروا تحلل الأجساد البشرية، والأحلام البشرية، والقوى البشرية التي دفنت حياةً حتى أعناقها، وطفّت فوق موجات العرق النتن داخل أكوام من الملح؟

ثم جاءت الأزمات المفاجئة القاهرة المتعمدة لتجبر صغار الملاك على الانسحاب من منافسة الكبار ليشهدوا الطفرة التي أطلقتها القوانين: فأعمالهم الملحية التي كلفتهم سنواتٍ من النضال والعرق والأمل انتقلت إلى أيدي أمراء رأس المال الذين استولوا على كل شيءٍ مقابل



أي ثمنٍ مهما كان باهظاً. كان الصراعُ غيرَ المتكافئِ هو  
الوضعُ الطبيعيُّ للمستفيدين؛ والذي ليس لغير المحميين  
فيه أن يعتمدوا على دعم العدالة والقانون.

عرف دوم ميغيل هذه الحياة؛ فقد تابع التطورَ البطيءَ  
لأسلوب الحياة ذاك...

من بعيدٍ، وصل صوتُ سويّا الحادِّ وهي تبيع أعشابها  
المقدسة: «من يشتري جوا، جوكا، كويينا-كويينا...». هي  
ذي أعمال الملح. أحواض الملح لن تتغير أبداً، وستحتفظ  
بصورة المساواة إلى الأبد؛ فهي كصوت المزارعة العجوز مع  
ذات التعديلات دائماً.

فاضت عيناه دمعاً.

هناك؛ في ماكاو؛ أكبر مركزٍ لأعمال الملح في العالم.

بيضاء، قاسية، بأهراماتٍ مدبيةٍ تتأطح السماء،  
وتمتد على طول ضفاف نهر آكو، ونهر دوس كافالوس  
وأمارغوزينيو.

\* \* \*

... عند الساعة الرابعة صباحاً، نهض دوم ميغيل وهز  
مقبض أرجوحة شيكو الشبكية:

- إنها الرابعة، يا ولدي!

تحرك شيكو، وجلس على الأرجوحة الشبكية وتشاءب،



ثم لبس نعليه وخرج ليغسل وجهه .

كان الفجر لطيفاً، وسيبدأ الآن مزاولة وظيفةٍ جديدةٍ .  
لقد حاول خلال الأيام التي استراح فيها واستعاد قوته،  
أن يطّلع على كل ما يقال عن أحواض الملح . صحيحٌ أنه  
سيمارس هذا العملَ لأول مرةٍ كأنه العذراءُ فيه، لكنه  
ليس جاهلاً به، بل يعرف مسبقاً كل شيءٍ عنه .

إن كشف تاريخ أعمال الملح بسيطٌ للغاية . كل شيءٍ ممكنٌ  
في لمحّةٍ؛ تماماً كما تنتهي الصحة في لمحّةٍ .

قام بتحضير بعض القهوة فاحتساها، وودع دوم ميغيل،  
وخرج من الباب الخلفي للحانة .

كان فجرًا مفعماً بالنور؛ وقد بشرتِ الشمسُ بيومٍ حارٍّ  
جداً من خلال أشعتها الحمراء الأولى في السماء .

توجّه إلى الأهوار الملحية كالكثير من الناس، فكانتِ  
الخدمة تبدأ بثباتٍ وعصمةٍ عن الخطأ في الساعة  
الخامسة كل صباح .

دخل الرجال المزارع لإحضار أدوات عملهم .

كان الجنّي قد بدأ للتو، والرجال يعملون بجِدٍّ لأن  
أمامهم، وفقاً لحسابات مدرائهم، جني ثلاثة مواسمٍ على  
الأقل قبل هطول الأمطار .

لم تمطر لعامين، وقد تهطل الأمطار بشكلٍ غير متوقعٍ،



مما قد يفسد عمل المبلورات، وهذا ما حدث بالفعل حين أوهن عامان من الشتاء الغزير عزيمة المزارعين. سنتان من الأمطار الغزيرة كانت كفيلاً بالقضاء على الإنتاج بشكل كبير.

لذلك كان على الرجال أن يعملوا بكديّ، وأن يبذلوا كل جهدٍ في البداية، لأن قواهم في نهاية الموسم ستخور بشكلٍ طبيعيّ.

كانت هناك حاجةٌ ملحةٌ لإنجاز عمل الموسم في غضون فترةٍ زمنيةٍ محددةٍ حتى لا تدمرَ وتبتلعَ الفيضاناتُ كلَّ الملح المتبقي للتمليح؛ وبدون الملح القاسي الذي قد يشربه الطوفان، سيبدأ انتشار الملح الأخضر المغشوش غير النقي، والمشبع بالسم، والذي قد يفسد اللحم المقدد؛ فبالقليل منه سيتدهور عمل التقديد.

بدأ الرجال في جني الملح.

كانوا عراةً يكشفون للشمس ظهورهم وصدورهم وأذرعهم؛ ويتعاملون مع المجارف والرافعات والفؤوس، يشرعون في هدم أكوام الملح الأبيض الصلب والمتحجر تقريباً، ولكنه لا يزال أخضر.

يا لغرائز الطبيعة الغريبة! وللتحول الرائع في أكوام الملح المدببة! يمكن تلخيص تاريخ عملية الملح البسيطة على النحو التالي:



«في مواقيت المد القمري المرتفع، تتلقى الأراضي المنخفضة المياه بطبيعة الحال، فتكون مشكّلةً مسبقاً على هيئة ما يُسمى بالأحواض. تستقبل الخزانات الهائلة المتشابهة جرعات مياه المد إلى أن تصل حدّ الإشباع، فإذا ما بلغت الحدّ المطلوب، جرى توجيه الماء إلى مختبراتٍ فعليةٍ تسمى كذلك بالمخبرات، فتبقى هناك لفترةٍ طويلةٍ؛ وبعد تمام التبخّر اللازم، يتم توجيهها بعنايةٍ إلى خزاناتٍ جديدةٍ محضرةٍ ومبطّنةٍ جدرانها بألواحٍ خشبيةٍ، وتُسمى هذه الخزانات فنياً بالدلاء أو المبلورات، ثم يبدأ تسميم المياه بأملاحٍ طفيليةٍ مختلفةٍ، مثل كبريتات كلوريد المغنيسيوم وبروميدي الصوديوم وبروميدي البوتاسيوم والعديد من الأنواع الأخرى غير المهمة.

ثم تأتي عملية التخلص من النفايات والماء الفاسد غير الضروري. إنهم يبذلون كل طاقتهم في هذه المرحلة؛ فلا يتركون أي شيءٍ منها، ثم تُنقى بعيداً... إنها لقصةٌ بسيطةٌ، قصة الملح تلك... يستمر الملح ستة أشهرٍ أخرى في المبلورات؛ وبمرور الوقت، تنشأ على السطح طبقةٌ لامعةٌ تزداد سماكتها يوماً بعد يوم، ثم يأتي أوان جنيه».

يحين أوان الجني، ويذهب الرجال للعمل، فتبدأ الرافعات بتفتيت قشور الملح التي تُلقى في البحر مرةً أخرى، وعندما



ينتهي الغسل، تأتي مرحلة نقل الملح إلى مستودعاتٍ يظل كامناً فيها عاماً؛ ثم يقصد بعض الرجال المبلورات فيباشرون في كسر الملح الأخضر، والملح الجديد الخارج من الماء حديثاً بظهورهم العارية. تزداد الشمس سخونةً ولسعاً، وتغرق أقدامهم في الماء حتى ركبهم.

كان شيكو في وسطهم. بدأت قدماه تحترقان بشدة.

إنه الكلوريد الذي يتسرب في مسام لحمه.

لاحظ أصحابه حاله، فضحكوا وقالوا له:

- لا بأس عليك. ستعتاد على ذلك؛ فقد أصابنا يوماً ما

أصابك. ستشعر في الأيام القليلة الأولى بالغرابة؛ لكنه لن يكون مؤلماً؛ أما بعد تشقق قدميك...

- هل تشققت قدماك؟

- نعم. ثم غدت هكذا...

واستند الأسمر إلى مقبض الرافعة، فرفع قدمه

وضحك، ثم واصل الحديث:

- ستكون قدماك هكذا. تماماً كأقدامنا؛ فتبدو

هذه الأخاديد فيها كالقصب الذي يتغذى على المياه المتبلورة...

أصيبت عينا شيكو بالرعب؛ فقد كانت أقدامه مسطحةً

ومشوهةً ومتصدعةً. لقد أتى الماء المالح على كل شيءٍ،



وظهرت تشققاتٌ أعمق من بوصةٍ، وفي كل الاتجاهات. لن تلتئم تلك الأقدام أبداً، ولكنها لن تتعفن أو تتدهور كما يقال؛ فالملح نفسه لن يسمح لها بالتعفن أكثر من ذلك. كانت أقداماً بشريةً مشوهةً بشكلٍ رهيبٍ، أما الجروح فكانت بيضاء لا يظهر لونها الأحمر إلا في وسطها. كانت جروحاً بلون لحم الخنزير، وترى الرجال يبتسمون لها؛ فهي لا تعني لهم شيئاً. كان العالم في عيونهم بسيطاً. إما البراري أو مسطحات الملح؛ فتتشقق البراري بفعل الجفاف أو تتشقق أقدامهم بفعل البحر. تتصدع كما لو يقضمها سرطانٌ أو جذامٌ من أسوأ أشكال الجذام وأكثرها جرباً. لم يكونوا مهتمين لذلك؛ فقد اعتادوا الأمر.

رفع شيكو قدميه ونظر إلى إحداهما، ثم إلى الأخرى فرأى أنهما اتخذتا صبغةً ورديةً. لقد بدأ كلوريد الصوديوم يتغلغل في جلده. ستحترق قدماه في غضون أيامٍ قليلةٍ كالجمر الساخن، وسيكون عليه أيضاً أن يعتاد عليها ويضحك منها كالآخرين؛ وإلا فعليه التخلي عن كل هذا العمل والهرب مبتعداً؛ لكنه كان يومه الأول في أعمال الملح. مرّت ساعاتٌ قليلةٌ، وكان الإحباط في أعماقه يتجلى حقيقةً مع أولى صبغات اليأس. لم تكن تلك الوظيفة وظيفهً للبشر، بل للوحوش والحيوانات التي قد لا تعباً بتشوه قوائمها الوحشية. لا؛ ليست وظيفته. تى ظهره، وثبتت الرافعة، وحطم اللوح الشفاف الذي شكّله الملح في المبلورات.



بدأت ساعاتُ النهار تطول، وكأنما تسمّرتِ الشمس في كبد السماء، وجاء الضوء ساطعاً فوق ألواح الملح، مشكلاً أقواس قزحٍ أعلى تلك الأكوام. ارتجفتِ العيون أمام ذا الزخم الكبير من الضوء. بمرور الساعات، ازداد مشهد عمال الملح بؤساً؛ وكانتِ الفؤوس التي تغني للبلورات تصفير فتتطاير أحجار الملح في كل الاتجاهات كشدراتٍ بيضاء مضيئة. كان العرق يغسل تلك الجثث فيختلط بعرق البحر، وبذا يستحم شيكو إذ يتصبب عرقاً من رأسه نزولاً على وجهه، فيتوقف ليمسح عينيه بيديه، فصاح صاحبه:

- أنت مجنون! لا تفعل هذا؛ فيداك ملوثتان بالسم الملحي الذي فقد كثيرٌ من الناس أبصارهم بسببه.

نظر إلى صاحبه بامتنانٍ واستأنف عمله. لقد أصيب كثيرٌ من الناس بالعمى بسببه. كانت عيناه تحترقان كالجمر الساخن، وعليه أن يعتاد على ذلك كما اعتاد الآخرون جميعاً.

كانتِ الشمس عاليةً في كبد السماء. لا بد أنها العاشرة تقريباً.

استراحوا في العاشرة والنصف وذلك ألا عينَ بشريةً يمكنها تحمّل ضوءٍ بكل ذاك السطوع. بدا النهارُ ناصع النور كمرآةٍ بيضاء. لا شك أن ضوء الشمس قد أكسب الملحَ بريقاً ينعكس بياضه ليغمرَ أي شخصٍ.



حَفْرًا! حَفْرًا! حَفْرًا!

عرقٌ يتصبب على الوجه والرأس واللحية والجسد.  
عيونٌ تحترق. عضلاتٌ منهكةٌ. جوعٌ في المعدة. صرير  
تحت الأقدام وتعوُّدٌ على أذى مياه البحر السامة المسببة  
للتآكل.

حَفْرًا. حَفْرًا. حَفْرًا...

في الساعة العاشرة والنصف، لم يعد بإمكان أحدٍ  
أن يستمر في العمل أكثر من ذلك. ليس الحفرُ من كاد  
ينهكهم، إنما ضوء الشمس هو المانع من استمرارهم.  
نظر شيكو إلى رفاقه فلم يستطع رؤيتهم بوضوح. كانوا  
ظلالاً سوداءً تتهادى في بياض النهار والشمس والملح.  
لم تحترق عيناه فحسب، بل راحت ترتجف أيضاً.

سيصابون بالعمى إذا ما أسرفوا في العمل أكثر من  
ذلك. بلغتهم إشارةُ الغداء فتركوا ما بأيديهم من أدواتٍ،  
وتوجهوا خارج المبلورات.

إنها استراحتهم التي لن يعودوا منها قبل ساعتين؛  
وذلك حين يتلاشى ضوء النهار فيستطيعون رؤية ما هم  
بصدد القيام به. ذهبوا لتناول طعام الغداء في المزرعة  
سيراً واضعين حواف قبعاتهم فوق عيونهم المحترقة  
قدر الإمكان، ثم غسلوا أيديهم وجلسوا. رفع شيكو يديه  
ليمسح عينيه ويفرك جفنيه؛ فلما عاد بصره إلى طبيعته،



رأى قدميه فكانتا ناصعتين، فقال له أحدهم:

- أغريبةٌ ذي القذارة يا صاحبي؟

نظر شيكو إلى رجلٍ أسودٍ طويلٍ وقويٍّ يُجري محادثةً.

- يا لها من قذارة!

- إنه لأمرٌ قاسٍ فعلاً... كثيرٌ منا أُصيب بالعمى، أو سيفقد بصره عما قريبٍ. لقد رأيتُ الكثيرَ من الناس يصلون هنا بأحسنِ حالٍ ثم تراهم يغادرون محمولين على أيدي الآخرين.

- هل سبق لك أن رأيتَ بينديتو الأعمى؟

- من يستعطي الصدقاتِ في الشارع؟

- نعم. هو. كان بصيراً كأبي واحدٍ فينا، وذا ما سلبه بصره.

قال ذا مشيراً إلى أهرامات الملح البيضاء.

- ما يزعجني هو ما يحدث لأقدامنا! قال شيكو.

- في البداية، يبدو الأمرُ غريباً بعضَ الشيء؛ ثم... حين نحتاج إلى الرؤية... فما الذي يهم في أن تكون أقدامنا صحيحةً؟

- لكننا بحاجةٌ لتوفير أحذيةٍ تحميها...

- هذا ليس كافياً. سيلتھمها الملح في أقلِّ من أسبوعٍ.



كان لدي حذاءً متينٌ كنتُ قدِ اشتريته من الريف، وانتعلته في هذا الوضع البائس فتلف في لمحة عينٍ... اليوم، حتى لو أردتُ انتعالَ حذاءٍ طويلٍ، فلن يناسب قدمي في اعتقادي.

نظر شيكو إلى قدمي الرجل الأسود فإذا بهما متصدعتانٍ تصدّعُ السد في مزرعة بوكويرو. كان فيهما أخاديدٌ وشقوقٌ أرجوانيةٌ كأرضٍ أحرقتها الجفاف.

- أَلمتني جداً في البداية... أما الآن فلا.

- لم أكن أرغب في أقدامٍ على هذه الحال.

- هو ذا؛ لكن الجميع باقٍ؛ فإن كنتَ هنا، فعليك أن تبقى هنا... هل تريد أن ترى شيئاً رائعاً؟ سأريك شيئاً، وأعلمُ أنك جديدٌ هنا.

نهض شيكو وتبع خطى الرجل الأسود دون أن يعرف ما يدور في خلدِه.

- ما دام القارب لم يصل، فمن الجيد أن نتسلق التل.

وصعدا فاستطاعا من هناك رؤية صورة بانوراميةٍ بيضاءٍ كاملةٍ للمسطحات الملحية وهي تتألق في ضوء الشمس الساطع. قامت الطواحين الكسلى التي تسحب المياه إلى العبوات بتحويل أجنحتها مع الريح فتلثفت جهتهاً أينما اتجهت، وذلك في مسيرةٍ بطيئةٍ مسيرٍ

الشمس .

وصلا قمة المنحدر، ومن هناك، بدت أحواض الملح  
كخيام معسكرات الجنود التي رآها شيكو ذات مرة في  
ناتال. كانت خيام معسكر بيضاء.

يبدو أن الرجل الأسود فهم ما يفكر فيه شيكو، وذلك أنه  
ترجم انطباعه فوراً ترجمة واقعية ومروعة:

- تبدو كمقبرة كبيرة. أليس كذلك؟

- نعم هذا صحيح.

- الآن. انظر هناك!

وأشار بأصبعه نحو الأفق:

- هل ترى حوض ملح به عدة منازل ذات أسقف  
خضراء وأشجار من جوز الهند؟  
تبع شيكو بعينه ما أشار إليه إصبع الآخر.

- لكن كل شيء مقلوب رأساً على عقب!

- إنه كذلك وهو ليس كذلك. هذا الماء الذي يعكس  
كل شيء ليس ماءً. ذاك المنزل ليس منزلاً أيضاً. إنه  
سراب.

- سراب؟ ما السراب؟

- حسن! السراب ما تراه. شيء غير موجود. ذلك الهواء



المرتعش أمامنا هو من صنعه، وصنع تلك المنازل وأشجار  
جوز الهند. جميلٌ، أليس كذلك؟

- السراب! كم هو جميل! ألا يوجد ماءً هناك؟

- لا. إنها أرضٌ تتحضر للحصار. لقد مشيتُ مرةً لأرى  
ما إذا كان هناك ماءً؛ فلم أجد ماءً ولا منزلاً ولا أشجاراً  
من أشجار جوز الهند. لقد وصلتُ إلى ضفاف نهر آكو.  
- إنه ما نرغب في فعله.

- لأن السراب يظهر كلَّ يومٍ بعد الساعة الحادية عشرة.

- أهكذا الحال دائماً؟

- لا. في بعض الأحيان يتغير كلُّ شيءٍ؛ فقد تصل  
الحال إلى ظهور قاربٍ.

- هل يعلم أحدٌ تفسيرَ ما يحصل؟

- لا شك أن هنالك جدلاً حول الأمر، ولا بد من الجدل  
وادعاء فهم الظاهرة؛ إلا أنني لا أدخل في ذاك الجدل  
أبداً.

- كم هو جميل!... كل يومٍ سأتي لرؤية السراب.

- قلتُ ذلك أيضاً في البداية، ولكنك ستعتاد عليه بعد  
ذلك فلا تهتمُّ له أصلاً؛ بل لعلك في بعض الأحيان ستتعبُ  
منه جداً، وتتوه جداً بحيث تفقد الشجاعة للسير هناك.



وتوقف للحظة.

- أنت لا تعرف يا رجل! تزداد حرارة الشمس كل يوم. كل يوم من أيام الجني تزداد الشمس حرارة فتغدو جحيماً... لكن دعنا نعود. لا بد أن نفتنم المد.

جلسا في المزرعة، وتم تقديم الطعام كأنما هو من منظماتٍ تعاونيةٍ؛ إذ يتم خصمه من رواتبهم ككل المصاريف المتكبدة في الردهة.

جلس الرجال في الزوايا، وقدموا أوانيهم لاستلام طعامهم. كان البخار يتصاعد في كل طبقٍ من أطباق الأرز والفاصوليا والسمك المقلي مع الدقيق.

كانت أشكال الأواني التي استقرت على أرجلهم الأكثر تنوعاً، وكانت الرُكب المتشابكة الظاهرة من تحت السراويل الملفوفة كطاولة تحمل كل شيءٍ من علب الجوافة إلى القرع.

أما الأقدام المتفسخة فكانت مترعةً برملٍ وطينٍ الطريق، وكانت المحادثات مبتذلةً وغير مهمةٍ.

كان شيكو قد تناول لتوه سمكة مانجوبا حين تخطاه شخصٌ يعرج؛ فسمعهم يتحدثون عن شيءٍ جديدٍ.

- ما هذا يا باريينو؟ أباك جُدامٌ؟

- نعم، بكلتا يدي.



- لماذا لا تذهب إلى الصيدلية وتشتري مصاصة؟

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً من شيكو لمعرفة ما يعنيه ذلك. الجذام! جذام الملح! يسبب الملح تآكل الأصابع وفتح الجروح المألوفة التي تظهر بين الحين والآخر: الجذام. كانت إحدى أصابعه مصابةً، وإذا لم يتم عزل الإصابع واصلت العدوى التدهور والاستشراء، فتظهر منها إفرازات سائلة فيتراكم القيح في جراحها فيحرقها بشكل رهيب، وتتبعث منها رائحة كريهة مركزة.

لم يتوقف شيكو عن التفكير في الضرر الذي يمكن أن يسببه هذا الملح الأبيض غير الضار لأجساد الرجال. الجذام. الإنسان، ملك الإبداع، يتعفن عمداً كما يتعفن لحم البقر المقدد عند إضافة الملح الأخضر له.

قديمٌ بشريٌّ فاسدٌ. جذام الملح. الجذام.

هوذا بالضبط. الرجال يتقددون تقديداً قاسياً حتى النخاع؛ فهم يُشترَوْنَ ويُبَاعُونَ ويفسدون في أحواض الملح.

أغمض شيكو عينيه فرأى آلاف الجثامين مدفونة حتى الأعناق في الملح الأخضر. وفجأةً، ترتفع تلك الجثث وتعلق على حبل لتجفيف لحمها الممزق. كانت أيديهم وأذرعهم وصدورهم وأرجلهم وظهورهم ممزقةً بالكامل، وهي تجف في الشمس كاللحم المكشوف. قديمٌ بشريٌّ! لم يشترك أحدٌ؛ فقد



اعتادوا على ذلك. ثم يظهر رئيس العمال ويفحص القديد ويتجهم. «هذا سيئ». إنه لحمٌ فاسدٌ. ألقوه للنسور.» وجمع هؤلاء الرجال المقددون في حقلٍ ضخمٍ بانتظار نسور السماء. أرواحٌ جفَّت فضاغت هباءً دون أية شتيمةٍ أو تجديفٍ أو شكوىٍ ضد صروف القدر. لقد اعتادوا على ذلك: على الأقدام المتفسخة، وجذام الملح، والجدام. لقد اعتادوا على ذلك.

كان بالبينو يذهب مساءً إلى الصيدلية وهو يعرج؛ فكان يضع ضمادةً ومصاصةً طفلٍ على الإصبع المصاب، ليعود في اليوم التالي إلى الملح الأخضر.

كانت المصاصةُ هي العلاج الوحيد الفعال؛ فهي تحبس على القرحة مرهمَ الصيدلاني، وتمنع الماء السامَّ من التسرب إلى جرح الجذام.

ثم يستريح الرجال مستلقين على الأرض، متكئين على جدران الردهة، فيغفو بعضهم، ويثرثر آخرون بنعاسٍ وكسلٍ، بينما يواصل آخرون لعبة الداما، وبعضهم يدخن سجائر مصنوعةً من التبغ المعروف وقشور الذرة. على أية حال؛ لقد استراحوا؛ وسيستأنفون العمل في الساعة الثانية حين تغدو الشمس أكثر هدوءاً.

في هذه الأثناء، كانت شمس الظهرية تُضرم النار في



كل شيءٍ؛ فلا مَنْ يطيق النظر إلى الأهوار المالحة في  
تلك الساعة. بدا المشهد كأنما ضاع فجأةً؛ فقد طمس  
السطوعُ الأشياءَ والألوانَ.

أطبق شيكو عينيه ببطءٍ، فما لبث أن استيقظ كمن  
لم يتم تقريباً، وإذ برفاقه ينادونه للعمل؛ فخامرهُ للحظةٍ  
خوفٌ وارتباكٌ تامٌّ؛ لكنّه ابتسم عندما أدرك مكانه؛  
فالتقط أدواته وتبع الرجال الذين سبقوه.

ثم لاحظ في وسطهم امرأةً تسير حاملةً إبريقاً على  
رأسها...





## الفصل الرابع مجنونة بورتو دو رو كادو

كان الجميع يعلم أنها مجنونةٌ. مجنونةٌ تماماً؛ كما عرفوا في الوقت ذاته أنها سعيدةٌ بتعاستها؛ فكان دواً حالها في أن تغني وتبتسم.

سمرأً حسناً الوجه؛ بيضاءً الأسنان كأنها الشمس؛ مية العينين اللذان بدتا كأنهما تطلقان بياضٍ شرارات الحياة والوضوح.

كان جسدها ممتلئاً، وثدياها مديبين، ووركاها واسعين قليلاً؛ كأنما هي - لولا أنها مجنونةٌ - جملةٌ نساءٍ ممتعٍ جنسياً. إنها ليديا. ليديا المجنونة.

لا يزعجها أحدٌ؛ فلم يكن في الرجال أعمى عمى يمنعها من رؤية عالم الجسد المختفي تحت الخرق التي غطت



نفسها بها؛ بل كانوا يحترمونها احترامَ المرءِ لامرأةٍ عمياءٍ أو مشلولةٍ؛ فقد كانوا رجالاً ريفيين مشبَعين بالخرافات: «من جادل مجنونةً حَلَّتْ بأهل بيته لعنتُها».

نشأت ليديا في منزلٍ صغيرٍ في شارعٍ بعيدٍ عن بورتو دو روكادو المعزولة تقريباً في نهاية شارع الصيادين. كان مسكناً يقف بأعجوبةٍ؛ ولكن: حتى رياح الساحل العاتية وأمطارُ الشتاء الغزيرة عاجزةٌ عن إلحاق الضرر بمسكن مجنونةٍ بورتو دو روكادو.

ملأت كوخها المصنوع من القش بالحيوانات السائبة: كالكلاب والقطط الضالة؛ فعاشت مع الحيوانات في اختلاطٍ تامٍّ؛ تنام معها، وتأكل معها في ذات القدر بقايا الطعام الذي يُقدِّم لها؛ فيتخلل كلُّ هذا ضحكٌ شديدٌ. لقد اعتاد المازون بكوخها أن يجدوها قابعةً على حصيرةٍ تضحك وتعمل. كانت يداها تشغلان بهذه المهمة أو تلك. لم يخفَ على أحدٍ ما تحبُّ فعله. كانت تذهب كل صباحٍ إلى مخبزٍ بالقرب من ماكاو وتنتظر هناك؛ فيتبعها الأطفال ويزعجونها، فلا تراها تمانع في ذلك بل تضحك بحرارةٍ؛ فلا أحد؛ لا أحد منهم يمكن أن يقترب منها أو يؤذيها بأكثرَ من شتيمةٍ تُلقى من بعيدٍ؛ فكلابها الضالة ترافقها دائماً، فإذا ما رأَتْ تجاوزاً في الإساءة، نفشت أوبارها، وكشّرت عن أنيابها البيضاء الكبيرة الحادة.



تقف ليديا هناك وتنتظر من يقرر التصدق عليها برغيف خبز، وبمجرد حصولها عليه، تهرب بخطىٍ محرجةٍ نحو بورتو دو روكادو والكلاب وراءها تهرول. إنه مشهدٌ يحدث كل يوم، ويعيد نفسه دون خجلٍ. حين تصل إلى المزرعة، تشارك الحيوانات خبزها، وتحرص على إزالة الفتات أولاً؛ ثم تجلس على البساط الذي تستخدمه كسريرٍ ليلاً، وتبدأ عملها. لقد أولت عملها هذا اهتماماً يجعل المارة، إن لم يعوا ما يعنيه لها عملها، يتخيلون فوراً أنه عملٌ جادٌ للغاية.

أما بالنسبة إلى ليديا المجنونة، فلا بد أنه أهمُّ شيءٍ في الدنيا. كانت يداها المتسختان تؤلمان القلوب. كانت تعجن ما يبدو كعكةٍ متجانسةٍ، ثم تبدأ في صنع الدمى بشغفٍ؛ دميّ قذرةً من الفتات؛ دميّ بتراءٍ غيرٍ مكتملةٍ للأسف. نعم، كانت دمي ليديا بتراءٍ بلا رؤوسٍ. لا أحد يستطيع أن يشرح سبب جعلها بهذه الطريقة المثيرة للإعجاب. من يستطيع أن يقول إنها لم تكن على علمٍ بجنونها؟ ربما لم تكن كذلك؛ فهي تفعل ذلك من أجل المتعة فحسب؛ غيرَ مدركةٍ للجنون الذي حرم رأسها الفارغ من القدرة على التفكير. ربما تكون قد أدركت وجود هذا الفراغ وأنها، في إشارةٍ منها للشكوى والراحة، تصنع دميّ مبتورة الرؤوس؛ دميّ مصنوعةً بدقةٍ على صورتها ومثالها.



وحين تكون معدتها فارغة، كانت تتجول دون أن تسأل؛ فتشفق عليها زوجات الصيادين ويعطينها قطعاً من سمكٍ مقلّيٍّ بطحينٍ، وبعض المقالي الأخرى وبقايا الطعام.

لم يكن هنالك من جدوى من إعطاء ليديا سمكةً غير مقليةٍ أو مطبوخةٍ، لأنها لا تملك أية فكرة عن الطهي؛ فقد شوهدت عدة مراتٍ تأكل الطعامَ نيئاً بدلاً من طهيه.

عادت إلى المزرعة لتتقاسم الوجبات مع الكلاب والقطط، وواصلت العيش على هذا النحو في حياةٍ فُرِضَتْ عليها فلم تطلب فيها من أحدٍ توجيهها.

عند الساعة الثالثة تقريباً، التقطت وعاء الماء، ويممت نحو المسطحات الملحية؛ ولا من يدري سبب حبها لذلك. كانت ليديا غريبةً مجنونةً كثيرة الإيماءات. تضع الإناء على رأسها، وتسير تحت الشمس الحارقة، وتجوب في أحواض الملح ركناً ركناً، فتتوقف بجوار الرجال غارقةً في العرق تمام العرق، فتضحك لهم وتطلب منهم بصوتٍ ناعمٍ:

– ماء؟ مزيداً من الماء؟

فإذا وافقوا، أنزلت الإناء ببطءٍ، وملأت الكوب وناولته عامل الملح.

لم تكن تحصل على شيءٍ مقابل السُّقيا؛ فحتى لو أرادوا



إعطاءها نقوداً، لن تدرك فائدة النقود، بل قد تضحك بلا  
مبالاةٍ وتواصل طريقها. كانت شخصيتها مباركةً ناهيك عن  
احترام رجال الملح لها.

كانت الشمس في تلك الساعة كاويةً، وكان حلقه لا  
يزال جافاً ينشد الماء.

وها هو طيف ليديا يغيب مع الإناء فوق رأسها.

كانت تمشي على طول الأسوار، وتعبّر المبلورات،  
وتوزع الماء؛ الماء المقدس؛ أهم مصدرٍ من مصادر  
الحياة البشرية.

كان شيكو مستغرقاً في عمله الشاق تنهش أفكاره  
وحشية الحياة في أحواض الملح. سال العرق على وجهه  
حتى بلله وتجاوزه إلى جسده.

ثبتت الرافعة في يديه بقوة.

سمع صوت امرأةٍ تتحدث إليه؛ فأوقف حركة الرافعة  
للحظةٍ ورفع بصره؛ فرأى طيفاً بجانب الملح الذي كان  
يحفره. كانت امرأةً على رأسها شيءٌ ما. استدار فرأى  
ليديا بقدرٍ على رأسها، وابتساماً على شفيتها.

- ماء؟ المزيد من الماء؟

أرادت حنجرته الجافة أن تقول نعم، لكنّ صوته لم  
يسعفه؛ فهز رأسه إيجاباً، فأنزلت الإبريق بحرصٍ ومدّت



يدها لتستلم كوبه، فلم يكن لديه كأس؛ فتمتم بصعوبة:  
 - أنا جديدٌ هنا، وليس لدي كوبٌ حتى الآن. يبدو أن  
 ليديا فهمت مقالته؛ فنزلت كومةً الملح أكثر، ودلفت من  
 شيكو مُدنيةً إبريقها من شفتي الفتى، وقلبتَه برفقٍ رأساً  
 على عقبٍ.

أنهى شيكو شربه، ومسح فمه بظاهر يده المالحة وقال:

- شكراً لكِ يا أيتها الشابة. وفقكِ اللهُ...

ضحكت، ووضعت الإبريق على رأسها، وتسلفت من  
 جديد جدار المبلورات، وواصلت طريقها. كانت رحلتها  
 طويلةً تستمر حتى غروب الشمس. نادى عمال الملح  
 بصوتٍ كان خافتاً في تلك الساعة:

- ماء؟ المزيد من الماء؟

رَبَّتْ شخصٌ ما على كتف شيكو وعلّق:

- إنها مجنونةٌ اجتاحتها الجنون. إنها مجنونة الخبز.

- حسبئها من عمال الملح.

- لا ليست كذلك. إنها مجنونةٌ؛ لكنّ أحداً لا يعبت  
 معها. لقد غدت هكذا منذ أن فقدت زوجها الذي كان  
 بحاراً على متن يختٍ وغرق. عند الصدمة الأولى؛ بدأت  
 تقول إن زوجها ظمآن. ظمآن جداً؛ ثم اعترأها الجنون  
 فباتت بلا عقلٍ. حسناً، هي كذلك. لقد فقدت عقلها



وهي الآن تمشي، وتصنع لفائف الخبز دون أن تضع لها رأساً... وتعطي الماء لكل عمال الملح الذين تلتقي بهم...

- من يدري، لعلها تعتقد أن زوجها عطشان، فتمنح الماء للجميع معتقدةً أنها ستلتقي زوجها ذات يوم...

- ربما. لكنها رغم هذا لطيفةٌ للغاية؛ فهي لا تفتأ تروي العطشى، وتأتي إلى هنا كل يومٍ منذ سنواتٍ.

غرر شيكو الرافعة واستأنف كسر قشرة الملح مفكراً في كل شيء؛ وفي تلك المجنونة بالية الثياب التي تجلب الماء لأولئك الرجال الذين دُفِنوا هناك. لقد أدنت تلك المرأة جرة الماء من شفثيه لتروي عطشه؛ فتذكر كيف مات ريفالدو في تلك المزرعة بعد أن فرغ الكوز بجانبه. تذكر السدّ والبراري التي ستبقى جافةً بسبب نقص المياه.

لن يعود الماء. بطبيعة الحال، كان الماء مجنوناً. فارغ الرأس. مجنوناً بالخبز. لا بد أنه في يوم من الأيام سيتوق للأرض التي عرفها من قبل، فيعود محمولاً في إناءٍ هائلٍ فوق هامِ سحب السماء فينسكب في فم البراري المتصدعة الجافة، ثم تمد له البراري يداً رافعةً بقوة كأس السدود الطينية.

\* \* \*

مرت الأيام وكانت أقدام شيكو تتصدع أكثر إذ يغوص عميقاً في الملح بشكلٍ تدريجيٍّ، فيلتهم الملح أنسجة جلدِه، ويقضم لحمَه ببطءٍ؛ فيتشقق كأرض البراري في مواسم الجفاف.

كانتِ الأثأتُ في صدره تُكتم، والألم يستنهضه؛ لكنه لم يكن يشكو. وكان الآخرون بشراً أيضاً، ولم تظهر عليهم أيةُ علاماتٍ ضعفٍ حين كانوا يحترقون كجمر أثناء اختراق الماء المالح لجميع الأخاديد التي ينكأ السمُّ الأخضرُ رتقها.

تذكّر شيكو في عدة مناسباتٍ مزرعةً بوكيرو حين كانت تُوسم فيها الماشية؛ إذ كانوا يصنعون من النحاس ما يحشرونه في الجمر فيسمونها به كعلامةٍ فتتلون أطرافها بلون الجمر. كاوا يربطون الماشية في الزريبة، فينتزعون المكواة من النار، فيضعونها على فخاذاها اليمنى؛ فيتلوى الحيوان الماءً؛ فتتدفق مادةٌ بيضاءً لزجةً تختلط بالتراب؛ فيبدو للناظر أن عيونها تكاد تخرج من محاجرها، ثم كانوا يُخلّون سبيلها، ويفتحون لها الباب، فتراها تتطلق في غضبٍ وجنونٍ. لا بد أن كيّ القروح المنكوءة قد عولج بروثٍ طازجٍ من ذات الماشية، وذلك لمنع العدوى، وأنه كان شديد السخونة؛ فكم رأى شيكو في الأدغال من ماشيةٍ تحمل الوسوم فترتمي إذ يُعميها الألم والغضبُ



على جذوع الأشجار والشوكيات؛ فكأنما تخفف باحتكاكها  
بقشور الجذوع الخشبية من آلام النار المتلظية.

شعر شيكو الآن بما شعرت به الماشية الموسومة. ظل  
مظهره الخارجي هادئاً، لكن قدميه تحترقان، وعقله يتشظى  
حنقاً. كان الجميع هناك ماشيةً بشريةً. لقد جعل الرجال من  
أجسادهم قديداً في مسالخ.

بعد الأيام القليلة الأولى، خف الألم وراحت تتعافى  
الجراح بالتصلب دون أن تحترق أقدامهم كثيراً كاحتراقها  
بتسرب ماء المبلورات.

كان الملح القادم من المبلورات مغطىً في الناقلات  
ليتم نقله في غضون أيامٍ قليلةٍ إلى مكبات النفايات.  
وحتى ذلك الوقت، لم تبدأ أعمال الملح في كوند جنيتها  
فحسب، بل كانت جميع المصانع الملحية الكبيرة التي ابتلعت  
أصحاب المشاريع الصغيرة قيد العمل.

في كل زاويةٍ، يلقي الرجال كالأبطال بأنفسهم في تلك  
المقابر البيضاء التي تعكس ألق الشمس التي تغدو أكثر  
سخونةً وقسوةً يوماً بعد يومٍ.

كان عددٌ لا يحصى من الرجال يضعون في أصابع  
أقدامهم لهايات أطفالٍ لا تنفصل عنها احترازاً من أذى  
الجذام الأبيض الناجم عن الملح الأخضر في شكل

جذام. سيكونون بخيرٍ نهايةً الموسم إن لم تعاندِ الجراحُ الشفاءً. يمكن أن ينتهي الأمر بالكثير منهم بلا أقدام؛ وهذا منتشرٌ بشكلٍ مفرزٍ.

وتشرق الشمس هناك وتزداد وطأةً قاذفةً بألسنتها اللاهبة في شتى أركان البؤس الإنساني.

بدأ شيكو يشعر بالرعب؛ فقد بدأت بعض صور الشقاء تتطور وتنتشر داخل أحواض الملح. إنهما الشمس والملح. أعطاه الرجال ماءً ليشرب. لم يكن من النادر أن تظهر هنالك بطنٌ بأحشاءٍ تتدلى: عراقٌ. دمٌ. جريمةٌ يثيرها اليأس وضيق العيش الذي يدفع طيبةً هذه الكائنات إلى الجنون والغضب، نعم. ألا ترى حالة السيد أنطونيو مكايبا؟ في صباح أحد الأيام، كانت الشمس حارقةً، فبدأ يشعر بتوعكٍ؛ فجاء الرجال الآخرون معتقدين أنها «دوارٌ»؛ فمن الشائع أن يسبب ضوءُ الأهوارِ الملحيةِ الساطعِ المرءَ بالدوار؛ وذلك أن الجوع يربك المعدة فيأتي الضوء ليحرق العين مما يتسبب بالدوار؛ لكنَّ السيد أنطونيو مكايبا بدأ يضحك فجأةً والدموع تتهمر على وجهه المتجمع في ذات الوقت؛ وهنا تراجع الرجال ذاهلين محدقين فيه برهبةٍ.

ثم توقف؛ فكانت عيناه قد جحظتا كاستدارة البدر الكامل في شهر يناير، ثم عض شفثيه بابتسامةٍ شرسةٍ، وحملق في الجميع وفاجأهم بما لم يتوقعه أحدٌ منه بأن



قام بقطع مئزر سرواله فسقط على كومة ملح، فبات عارياً تماماً؛ وقبل أن يستوعب أحد الأمر، أدار ظهره وهرب في طريق المراعي قافزاً فوق أكوام الملح؛ تاركاً العمال الآخرين في حالة ذعرٍ.

هرب فرمى رفاقه أدواتهم وطاردوا الرجل فإذا به قد جُنَّ تماماً، وكان ارتكابه مصيبةً ما أمراً محتملاً.

لم يكن السيد أنطونيو مكابيا يريد التوقف؛ بل ظل يركض حتى بلغ حافة نهر آكو فألقى فيه نفسه حالاً واختفى للأبد. فتش عنه الرجال ثلاثة أيام ولم يجدوا له أثراً. وها هم في ليالٍ لا تهب رياحها يضيئون شمعةً داخل كوزٍ، ويضعونها بجوار المكان الذي اختفى فيه أنطونيو؛ فيتبعوا الكوزَ والشمعةَ اللذين ظلّا في حالة حركةٍ يجرفهما تيار المد؛ فإذا ما توقفت الشمعةُ فتشوا المكان بمجساتٍ حديديةٍ طويلةٍ عساهم يجدون الجثة. ولمّا استيأسوا ولم يظهر لهم شيءٌ استسلموا؛ فلا يمكن أن تُهدر الليالي في مطاردة شمعةٍ ذابت عبثاً، والبحث عن جسدٍ لن يظهر أبداً. لقد علق ربما وسط المستقع، أو لعلّ المدّ جرفه إلى غابات المانغروف التي لن يعود منها أبداً...

لكنّ جثماناً بدا طافياً بعد يومين من ذلك؛ فتهافت الرجال والنساء متبركين؛ وقد غطت العديد من النساء



وجوههن وأبعدن أطفالهن. تم سحب الجثمان نحو الشاطئ بالقضبان؛ فكان جثمان السيد أنطونيو مكابيا. كان جسده متفسخاً تفوح منه رائحة كريهة جداً؛ وقد انتفخ بطنه كالطبل متخذاً لوناً بنياً؛ أما عيونه فلم تعد موجودة؛ فقد قضمت السلطعونات والسرطانات والأسماك أصابعه وأنفه. لقد تشوه كامل بدن السيد أنطونيو مكابيا؛ فلا عيون ولا أصابع ولا قضيب.

عندما انتشلوا الجثة من الماء، ازدادت الرائحة الكريهة نتناً وانتشاراً؛ أما السرطانات التي تشبثت باللحم المتعفن، فقد خلّت سبيله حين وصل الجسد إلى الشاطئ، وراحت تبحث مرةً أخرى في طين المستنقعات. لقد خسرت السلطعونات وليمتها.

أحضر ذوو النفوس الخيرة شبكةً وضعوا الرجل المتفسخ فيها؛ ثم أخذوا عصاً فوضعوها في مقابض الشبكة، وتوجهوا به إلى المدفن؛ فكانوا يتوقفون ليستريحوا بين الحين والحين لأنّ وزن الجثمان كان ثقيلاً؛ ولمّا أن وصلوا وضعوا الجثة على الأرض، وانتزعوا من الأدغال بعض العصي فجلدوا بها الجسم الملفوف إذ يعتقد بعض المتخلفين أن الجسد يزداد وزناً ازدياد ذنوبه التي يحملها، وأنّ آثامه بهذا الجلد تُمحي.

كل هذا كان من عمل الملح والشمس.



وحدث أيضاً أن ابنَ ملاحٍ يُدعى فيسينتي قد فقد بصره؛ وكانوا قد أخبروه أنه أصغر من أن يعمل في صناعة الملح؛ لكنه لم يصدقهم؛ فجاء يوماً رمى فيه فأَسَه، وجلس يغطي وجهه بيديه؛ فأظلم تمام الظلام اليوم الذي كان من قبلُ أبيضَ مشرقاً بضوءٍ باهرٍ.

أخذوه إلى المنزل؛ ووضعوا على عينيه كمادات ماءٍ فاترٍ، وغسلوا عينيه بماءٍ هيدروجينيٍّ؛ لكنه على الرغم من هذا، لم يَز مرةً أخرى، ولا حتى بالندور التي أُبرمت في يوم القديسة لوسيا. لقد أصبح نهاره ليلاً إلى الأبد، وتحول النور فيه إلى ظلامٍ؛ ليتذرع المسؤولون لاحقاً قائلين إن ذلك لم يكن بسبب الملح؛ بل لأنه سيصاب بالعمى حتماً، عاجلاً أم آجلاً؛ وذلك أن ابنَ الملاح فيسينتي كان يعاني من ضعفٍ في البصر أصلاً.

ومن ذلك اليوم والصبي أعمى آخرٌ متسولٌ في يوم القديسة لوسيا... وكذا في موكب سيدة الملاحين.

وأشرقَت الشمس، وتعاقبتِ الأيام؛ وتشققتُ قدما شيكو.

كان الجفاف يقضم البراري، والحزنُ يقضم روحَ القرويين؛ وتستمرُّ الحياة وتطول.

بات شيكو الآن يعرف جميع فروع أحواض الملح؛ كما عرف كتفاه كيف يُنقل الملح من مكبات النفايات إلى المستودعات.



كان يعرف هذا الوزن؛ وزن السلال المصنوعة من غصون الكرمة، والمعلقة على خشبةٍ غليظةٍ يُسمونها «العصا» لأنها تسبب تقشراً كبيراً في الكتف الذي تُحمل عليه. كان لرجال الملح نسيجٌ جلديٌّ ضخْمٌ متقشّرٌ فوق أكتافهم. تقشّرُ يغدو تشوهاً ترادفياً مستمراً يمكن رؤيته تحت نسيج القمصان. حتى ذلك الحين، كان الملح قد شوّههم، وصدّع أقدامهم بطريقةٍ مقززةٍ.

أما الآن فقد شوّهتِ العصا أكتافهم إلى الأبد.

كانت وسيلة حملٍ بدائيةً لا إنسانيةً وغير منتجةٍ.

كانت تسبب تأخير الخدمة وتراكم الإنتاج.

وتتعاقب الأيام تلو الأيام، ويشكّل الرجال كتائب تتألف كل واحدةٍ منها من اثني عشر رجلاً يسيرون اليوم بطوله تحت أشعة الشمس الحارقة، حاملين في نهاية العصا سلةً تحتوي في المتوسط على حوالي ثمانين لتراً.

أجسادٌ منحنيةٌ تفوح منها رائحة العرق النتنة.

بدأ شيكو أيضاً يشهد تطور تشوّه ظهره.

كان عليه أن يستيقظ في الصباح ليعود عند غروب الشمس.

إلى ذلك المكان وصلوا صفّاً يسيرون نحو أحواض الملح ويلوحون بسلالهم، ثم بلغوا ضفاف النهر فاجتازوا



الألواح الرقيقة إلى أن وصلوا إلى الناقلات التي أفرغوا سلالهم في مخازنها، ثم لتبيح الناقلات الملح بكميات كبيرة. كان الملح المنهمر الذي يُضاف إلى الملح الموجود في المخازن أصلاً يتسبب في إحداث ضوضاء كضوضاء شفرة حلاقة تمرّ على لحيّة مرّ على حلاقتها أيّامٌ عدة؛ فيتصاعد الغبار ويهدأ سريعاً، ثم يتصاعد مرةً أخرى حين يُفرغون دلوّاً آخر.

كان هناك دائماً مفتشٌ يراقب كل شيء؛ كما هي الحال في أعمال الملح إذ يُخصص لها دائماً مفتشٌ، أو رئيس عمالٍ، أو مشرفٌ يقف محمياً بشكلٍ جيدٍ يراقب العمل. كانت الغلة وافرةً هناك، وقد يكون أمامهم موسمان آخراّن. لا مكان للقيولة في الخدمة لأن الشتاء ربما بات على الأبواب. لقد دام الجفاف لعامين، فأُعلن يومٌ القديسة لوسيا أن يناير وفبراير ومارّس ستجلب الأمطار؛ تلك الخرافة التي لم تفشل قطّ.

سيتكرر هذا العمل مرتين آخرين؛ فمن المقرر أن يكون هناك جنّي جديدٌ حتى لو أُبيد الرجال. كانت الغلة جيدةً ولا تزال المبلورات تحتوي على الكثير من الملح. بعضهم لم يعمل حتى.

كان هناك أيضاً عملٌ في الملح المجفف الذي تم تطهيره عامّاً، وأُلقي في الطبيعة عمداً.



بدؤوا الحفر؛ وتولتِ الفؤوس والمجارف والمعاول ما تبقى من عملٍ وكدٍّ؛ وبعد تكسير كميةٍ كافيةٍ من هرم الملح، كانتِ العملية المستخدمة فيها كالعلمية المستخدمة في السلال والعصا؛ فقد أخذوا السلال بالعصيِّ إلى مكان تواجد عرباتٍ على شكل دلاءٍ تتسع لخمسائة لترٍ. بهذه السلال يتم نقل الملح المجفف إلى المستودعات ليُفْرغ فيها أو يُوضَع في أكياس سائبةٍ في عنابر السفن. تم جلب جزءٍ كبيرٍ من هذا الملح ليُطحن في طواحين ريفيةٍ متداعيةٍ، وذلك بطرقٍ بدائيةٍ وبطيئةٍ نوعاً ما؛ ومن هنا ينشأ الملح الناعم المستخدم لأغراض الطهي.

كانت حرارة الشمس توغل في الارتفاع، والأيام تمر رتيبةً رتابةً مرهقةً محرقةً يرافقها العمل المجهد.

يكون الاستيقاظ في الخامسة صباحاً، ثم تأتي مرحلة معالجة الملح الأخضر والملح المجفف وشدّ السلال إلى العصي وحملها كاملةً على قضبانها الصدئة بسبب هواء البحر؛ فيعبرون ألواح الناقلات يحمل الواحد منهم على ظهره ثمانين كيلوغراماً، ليُنقل الملح أخيراً لمرحلة الطحن.

ثم تأتي مرحلة تعبئة الملح في أكياس؛ وهي مرحلةٌ تشارك فيها حتى النساء؛ فترى أيديهن عالقةً في تلك الأكياس تحمل إبراً سميكةً بخيوط الخيش لتخيط بها أفواه



أكياس الستين كيلوغراماً، ثم يتم نقل هذه الأكياس المحكمة المتينة الموّحدة إلى اليخوت، ومنها أو من الناقلات تُنقل بالرافعات التي ترفع اثني عشر كيساً فتتزلها في عنابر السفن التجارية؛ ليتم أخيراً توزيع الملح مقسماً إلى أكياس صغيرة في جميع أنحاء العالم؛ فتتلقفه الأفواه بعد أن يُباع غالباً مستعملاً متداولاً. كان له خط سيرٍ يتم في كل مرحلةٍ منه أخذٌ قدرٍ طبيعيٍّ قدر الإمكان من الملح البسيط؛ فمن ذا يهتم أو يكلف نفسه أن يشهد عن كثبِ العملية الطويلة اللازمة لإنتاج الملح؟ ولم قد يهتم الناس بمعرفة مصدره؟ لم يكن الملح مبعث فخرٍ؛ بل مجرد جرعةٍ ضروريةٍ لتلوين الأذواق. إنّ هو إلا مادةٌ لا ينبغي إضافة الكثير منها، ولا التقليل منها أيضاً؛ بل لا بدّ أن تكون الكمية صحيحةً وقابلةً للقياس بدقة؛ أما القصة المأساوية والحزينة للأرواح التي أزهقت، والمثل العليا التي اختلطت بشحوب الملح الأبيض المرَضِيّ، فلن تثير اهتمام أحدٍ البتة.

كانت الشمس لا تزال مشرقةً هناك تُكرر يومياً حرقَ وكيّ أجسادٍ عارٍ ما دون خصورها، متعركةٍ سمراءٍ بأقدامٍ متصدعةٍ، وعيونٍ محترقةٍ، وعصيٍّ تُشوه الأكتاف؛ وغبارٍ أبيضٍ يتصاعد من الملح ليُفرغ في العنابر، ورافعاتٍ تحمل اثني عشر كيساً لتزود العالم بأسره.

الآن تتشقق الأيدي أيضاً بتصنيع وتعبئة الملح الذي

سيواجه ذات مصير المسافر الذي سيقضي في لحظة ما غرقاً في الماء؛ ذاك الماء التي افتقدته البراري فهلكت بسببه كلُّ الخضرة في البلاد، وأصيب الناس باليأس، وغارت في ملحه أجساد هؤلاء الرجال المضحين، ودُفع بسببه القرويون إلى الجريمة والنهب والحسد والكرهية. إنه الماء؛ ذاك العامل الرئيس لحياة البشرية. الماء... الماء... الماء.

- ماء؟ المزيد من الماء؟

ليديا المجنونة تمشي يومياً في الأهوار الملحية تروي العطش، وتفكر في إيجاد زوج ربما قضى عطشاً؛ فإن وجدتته فسيكون وسط المياه الزرقاء في قاع البحر. كانت والكور على رأسها رشيقة الثديين، مذهلة القد نصف الفتى الذي قد لا يستنهض جذوة العيون وشهوة الرجال؛ وذلك أن مياه الجنون قد سكنت تلك العيون الراكدة...

- ماء؟ المزيد من الماء؟

إنها لا تزال تمشي يومياً لتعود كالشمس التي تشرق كل يوم. ستعود لأن أقدام الرجال لا بد أنها لا تزال تستغيث كما تفعل عادة؛ ولأن عيونهم لا تزال تحترق؛ ولأن بشرتهم لا تزال تكتسب المزيد والمزيد من السمرة.

جلد مدبوغ يميز وجوهاً بتجاعيد كبيرة يتم توارثها من الأمهات والجيدات والبنات. كانت دموع الرجال تترقرق



داخل تلك التجاعيد إذا ما يئسوا ذات يوم...

لا! هم سيكون وحسب؛ فإذا ما ضحكوا؛ ضحكوا  
 مصادفةً؛ ثم ينتهي بهم الأمر بالجنون الذي أصاب ليديا  
 وأنطونيو مكاييا الذي غرق في مستقع نهر آكو. بل حتى  
 الأشربة لم تعد ترغب بمعرفة سبب كل هذا الحزن...  
 توقف شيكو إذ كانت الشمس تُحتضِر؛ فشاهد أشربة  
 المراكب تتجه نحو عالمٍ جديدٍ في بحرٍ أخضرٍ نظيفٍ.  
 حك من كتفه مكانَ أثرِ العصا، ونظر مجدداً إلى الأشربة  
 البيضاء، وابتسم ابتسامةً أملٍ حزينة...





## الفصل الخامس البحر

**لقد** غيرت تلك الأشعة البيضاء مصير شيكو، واتسع الأمل في عينيه بتلك الابتسامة الحزينة، والنظر إلى الأشعة المنسحبة وهياكل اليخوت الراسية... وساهم كل هذا في تغيير حياته. إن جاذبية البحر الأخضر والسر الذي تخبره به الأمواج في تموجاتها هو ما أيقظ رغبة شيكو في التغيير. كان بحاجة ليعيش!

لن يعود بعد الآن إلى أهوار الملح. يمكن لأي شخص غيره أن يبقى هناك فينتهي به الأمر بتصدع قدميه إلى الأبد؛ ودون أخذ زمام المبادرة للتمرد على هذا الواقع. خلقت أقدام الرجال لغرض ما، وضمن هذا الغرض المفيد والعملي، لها الحق في أن تكون مثالية.

لن يشوش نظره وهج الشمس فوق أكوام الملح؛ بل  
سيرى بوضوح حتى آخر لحظة في حياته ما دام قادراً  
على الرؤية.

أما أن يتفسخ ويفقد بصره ويتعفن ليتحوّل إلى قديد  
بشري، وتحوّل حياته إلى ملجأٍ قذرٍ؛ فلا؛ لم يكن ذا ما  
ينبغي؛ ولذا لم يكن مضطراً لعبور البراري بأكملها بحثاً  
عن مصدرٍ لحياته! فيجفّ ويموت ويتدهور ويبقى يأكل  
غبار الأرض الجافة في أراضي ساو تومي.

لن يعود إلى تلك الحياة القذرة، وذاك الملح المتعفن.  
لقد ولد البشر ليكونوا بطبيعة الحال أكرم من الكلاب.  
غداً، عند الساعة الخامسة، سيتجه - بدونه - طابور  
المضحكين نحو قبرهم الأبيض.

لقد فكّر في التشابه بين عُقم البراري الجافة، ومرارة  
المياه الرطبة المالحة المهلكة.

لقد كان الماء موجوداً، لكن روحه جافةً بشكلٍ كبيرٍ.  
في طريقه إلى بورتو دو روكادو، فكّر في الأمر.

كان الليل قد نضج واشتعل نجومًا؛ أما السماء فقد  
دهمتها رياحٌ دافئةٌ.

ما الذي ينبغي فعله الآن؟ العودة إلى البراري؟ أبداً. عاده  
كلُّ بؤس الجفاف وكل ما فيه من تفاصيلٍ جليةٍ؛ فقد تذكر



رحلته بالقطار من بايكسا فيردي إلى إبيتاشيو بيسوا. كان قطاراً مقرفاً شُنق فيه المهزولون كرزَم بشريةٍ جائعةٍ لا تتجاوز الهياكل العظمية. كانوا قرفاً بشرياً حقيقياً له ذات اللون والرائحة والشكل تقريباً؛ فكأنما هم رجلٌ واحدٌ. كما شعر أنه مثلهم، وأنه مرّ بمرحلة تحولٍ مماثلةٍ استجداها بنفسه كغيره من أولئك البشر؛ كما كان يستجدي الطعام والصدقة والشفقة والإحسان؛ وكل ذلك بسبب بؤس الجفاف. كان القطار يتحرك ببطءٍ حاراً خانقاً ضعيفاً؛ فيطلق بمروره خلال الطبيعة الملتهبة المتوهجة صغيراً كزفرات آخر الخراف إبان الجفاف. كان أنيناً بشرياً يفطر القلب ويثير الشفقة. كان القطار يهمهم ليتوقف مرهقاً يتصبب عرقاً في كل محطةٍ برائحةٍ ننتهٍ كرائحة قطار الماشية القذر. كان بالفعل قطارَ ماشيةٍ؛ ماشيةٍ بشريةٍ. امتدت توقيفاته في محطاتٍ كانت أكوامٌ بشريةٌ أخرى تملأ منصاتِها المتسخة والمكتظةً بطبيعة الحال؛ والناسُ يتراكمون فيها بذات البؤس؛ فكأن أولئك الأشخاص الجافين ذوي العيون الغائرة المشرقة، والأيدي النحيله الممتدة توسلاً وتسولاً جزءاً لا يتجزأ من المشاهد التي تتكشف.

غزا آخرون عرباتِ الدرجة الثانية يريدون السفر والمشى؛ لا التوقف. لن يوقفهم إلا الموت وحده... وتمتلئ السيارات بضحايا جددٍ، وموجاتٍ جديدةٍ من الدرجة

الأخيرة من الكائنات المتحللة. مجموعات جديدة من أرواح تُحشر في السيارات، ومن نساءٍ يحملن على ظهورهن أطفالاً تشبثوا بأعجوبةٍ بأعناقٍ نحيلةٍ، وقد بدت رؤوسهم أكبر من اللازم. كل شيءٍ بات غير متناسقٍ. عيونٌ متألقةٌ وطول وهزالٌ معاً. نعم؛ لم يكن أولئك الناس سوى هزالٍ ذي عيونٍ؛ فقد جف الوجه ليكبر حجم العينين بشكلٍ غير متناسبٍ، وليقلل من معاني الوجه... قذارةٌ هنا وبولٌ هناك؛ وأناس يئنون ويبتهلون ويشتكون؛ وأطفالٌ يموتون، وعيونٌ تبكي وتحثو تراب الأرض المتصدعة عن وجوههم. كان منظرًا قذراً لن ينساه شيكو حتى لو عاش ألف عام... لا! لم يكن يريد العودة إلى البراري ولا العودة إلى الملح؛ فما الذي يستطيع فعله؟ أيعود للعمل في حانة دوم ميغيل؟ لا. لا يزال يشعر بأنه صغيرٌ جداً على هذا، ثم إن تلك الوظيفة ليست بالوظيفة الذكورية. أراد أن يزال عملاً يستنزف طاقاته، ويحرك عضلاته. لم يكن يريد مواصلة العمل مع دوم ميغيل رغم أنه كان ممتناً لذلك الإسباني الطيب؛ فقد استعاد بأسه المفقود في مستودعاته؛ كما حدث الكثير من الأشياء هناك. وتذكر كلمات دوم ميغيل عن مناجم الملح، وحديثه عن الأرواح اليائسة والعقيمة التي ضاعت هناك جُزافاً. هنالك سمع أيضاً قصة جوانينيا ماريسيا، وتلك القصة التي جعل منها قصةً حقيقيةً؛ فقد قضت جوانينيا حياتها كلها من أجله؛ واكتشفت - مع شيكو - أن الرجال لا يولدون أمواتاً. تذكر قصة بايانو، وأساطير باهيا، وقصص البحر المأساوية



التي لعب فيها أنامبوروكو دوراً رائداً، وحكاياتٍ عن البحر الذي يعرف الصيادون عنه الكثير من الأشياء الجميلة؛ فهو بحرٌ الكثير من الأساطير، والكثير من الأغاني؛ البحر الذي لم يكن كالبراري ولا كأحواض الملح؛ البحر الأخضر جداً، والمليء بالماء والكثير من الأسماك... كما طرقت الأشرعة البيضاء أبواب ذكرياته مرةً أخرى؛ وتذكر كذلك الرجال الذين يغدون ويروحون في حياةٍ صاخبةٍ شبه حرة، والذين يُحبون ارتداء القمصان المحبوكة، والذين تتابهم عند وصولهم إلى الموانئ شهوةً عارمةً حيال النساء، والذين يسيرون في ترنجٍ توافق خطواته إيقاع أمواج البحر، والسكين في أحزمتهم؛ والذي يحمل اسم سمكة المنشار...

نعم، إنه البحر.

ذهب بدايةً لرؤية دوم ميغيل ليخبره بخططه.

تحدث عن خطته في التخلي عن الملح. لا شك أن دوم ميغيل سيبتفهم استسلامه، فمن لم يعدم الذكاء يحاول تكييف حياته مع حالٍ أكثر متعةً.

لم يفهم الإسباني فحسب، بل كان أيضاً على استعدادٍ لترتيب لقاءٍ له مع مالك اليخت.

ثم أبلغ جوانينيا بالحياة الجديدة التي ستعيشها، فابتسمت بحزنٍ؛ فقد كلفها اكتشاف رجلٍ مثل شيكو وقتاً طويلاً؛ وها هو الآن يريد الذهاب للبحر؛ والبحر أعظم منافسٍ لامرأةٍ



تتزوج بحاراً أو تعيش معه؛ لكن ذا لحسن حظها لن يستمر إلى الأبد؛ فلا يزال البحارة موجودين في مكانٍ ما هنالك؛ وهم يعودون عادةً. لا ضير في ذلك. كانت في كل مرةٍ يعود فيها؛ تفتح له ذراعها لتطوّق بهما عنقه القويّ...

وهكذا انخرط شيكو في حياة البحر، واكتسب طريقة مشي البحارة المترنح، وطريقة كلامهم وتبسمهم، وطريقة حبهم واحتراقهم.

كان عمله في البداية على متن ناقلة، ثم عمل على متن يخت، ثم انضم أخيراً إلى ريكاردو باريتو الذي ظل إلى يومنا هذا أجمل يخت على الساحل الشمالي الشرقي...

وعاد الآن لتصادف عودته يوم احتفال؛ فسُرّ في عيد القديسة لوسيا الذي لا يُنسى؛ وقد برز عند خصره سكينٌ ملك مصارعة الأذرع ذو القبضة القرنية.

لن يطول به المقام قبل أن يقفل مبتعداً مرةً أخرى عن أحضان جوانينيا ماريسيا وميناء ماكاو. قريباً سيعود إلى البحر فقد كان مرور الوقت أسرع مما ظن. انتهى الجفاف في البراري. هذا ما قاله الشيخ ملاخاي؛ لكنّ هذا المسنّ كان مجنوناً؛ فالبراري لا تزال بعيدةً عن شيكو السعيد بالبحر. نعم، كانت البراري بعيدةً ولم يكن هنالك من جفاف يحزنه.

سيقوم الآن برحلته الأخيرة على متن ريكاردو باريتو، ثم



ينتقل إلى يخت السيد داماسينو. هكذا هي حياة البحار:  
إبحارٌ وعودةٌ؛ وتغييرٌ للقارب واليخوت أو الزوارق. المهمُّ  
في كل الأحوال أن يستشعر تحت قدميه اهتزازَ البحرِ  
الأخضر اللطيف.





## الفصل السادس

### يختُ السيد داماسينو

**البحارُ** يغير السفينة دائماً، ويمكن لأيّ شيءٍ يخوض البحرُ أن يصبح منزله بسهولةٍ. يعمل شيكو الآن على متن يخت السيد داماسينو الذي لم يكن يختاً يضاهاه ريكاردو باريتو جمالاً وحجماً؛ لكنه كان على متن يختٍ شراعيّ جيدٍ. اعتاد السيد داماسينو أن يقول إن له ابنين: البارجةُ المجنونةُ المسماةُ «صنع الله»، واليختُ كايديلو. كانت الابنةُ تتفوق في العمل دائماً. لقد أراد التخلص منها؛ ولكن من سيشتري مثل تلك البارجة المجنونة؟ أما ابنه، اليختُ كايديلو، فكان بهجةً، بل مصدرَ فخرٍ.

في اليخت الجديد، لم يعد هناك روسو ذو العين الماكرة، ولم يعد هناك السيد أنتاو الذي يراهن بالنظارات

على كل شيء، ولا دورسيلينو الذي يحتفظ بساعة والده،  
ولا الكلب المسمى ليو أيضاً.

كان يخت كابيديلو ذاهباً في رحلةٍ محفوفةٍ بالمخاطر؛  
ولذا استدعى السيد داماسينو شيكو وعرض عليه المزيد  
من المال؛ فقد كان من عادة البحارة التطير من السفر  
بصحبة البضائع القابلة للاشتعال؛ وذلك أنهم يؤمنون  
بأنهم حينها «يَكْزُون كلباً نائماً بعضاً صغيرة»؛ ثم إن السفر  
بذا يكون أكثرَ خطراً؛ فلا أحد يستطيع التدخين، ولا بد  
من توخي الحذر الشديد، والعلم بأن أية غفلة قد تجعل  
القارب يطير في الهواء. ولأنّ لأكثرِ البحارة عائلاتٍ؛ فهم  
لا يخاطرون بأرواحهم لقاء مزيدٍ من المال.

قبل عامين، واجه المركب العائم بيرانيا نهايةً لم  
ينسها أحدٌ: سيجارةٌ وانفجارٌ. انفجارٌ فغرق على بعد  
خمسة عشر ميلاً من الساحل، لكنه هز حتى رمال  
شاطئ جينيبابو؛ وحين وصلت قواربُ الصيادين، وجدوا  
البحر مشتعلًا، وشظايا الخشب تتطاير في كل مكان. لا  
بد أن الرجال باتوا قطعاً تمضغ في أفواه القروش.

لكنّ هذه الحال لم تكن حال شيكو؛ فقد كان بلا عائلة؛  
أما جوانينيا ماريسيا فكانت أفضل ما في حياته؛ إلا أنه لم  
يتزوجها، ولم يُرزق منها ابناً، وبالتالي...

سيقبل دعوة السيد داماسينو. كان يخت كابيديلو قارباً



جيداً؛ لا قديماً ولا جديداً، بل عداءً جيداً، وكان يتمتع بسمعة طيبة لكونه على دراية بكل شيء؛ فلا يوجد ساحل شمالي شرقي إلا ورسا فيه هذا القارب، ولا يوجد شاطئ لا يعرف عارضته، ولا يوجد رصيف لم يدخله. كان يملك خبرة جيدة في الحياة؛ فقد صمدت أشرعته في وجه الكثير من الرياح، كما طالما واجه هيكله ضراوة المد والجزر.

كان السيد داماسينو فخوراً به؛ فتراه في السفر متشبثاً بعجلة القيادة لا يتركها؛ فكأنما هو مفتون به. بدا الأمر كما لو أنّ السيد المسن يعدُّ ارتفاع وانخفاض القارب إذ يتهدى فوق الأمواج؛ وينظر باعتداد إلى الأشرعة؛ وقيس الساحل بعينه، ويضيع في ذاك السحر مراراً وتكراراً.

لقد خَبَرَ يَخْتُ السيد داماسينو حياة البحر حتى قيل إنه يعي رغبات الرجال؛ كما قال آخرون إن هذا اليخت لم يحب من الإبحار إلا ما كان إلى ناتال، أما إذا ما أبحر منها إلى سواها أبحر كسلان غضباً. لقد بدا الأمر صحيحاً؛ فحين يتجه إلى ناتال، لم يكن الرجال على متن السفينة مضطرين للحيطرة والحذر. حتى السفر عكس اتجاه الرياح كان رائعاً؛ فقد حفظت عارضة السفينة الساحل عن ظهر قلب.

أبحر ريكاردو باريتو شمالاً؛ بينما كان يخت كابيديلو يغادر الرصيف متجهاً نحو الجنوب بقيادة السيد



داماسينو. بدا وكأنه يعي غناء اليخت؛ وشكوى الماء؛ فهو وحده يفهم تلك اللغة، ويجد حلاوة ذلك الحديث.  
- إذن، ما وُجهتكَ أيها اليخت بونيتو، يا ملك الشمال الشجاع؟

فيردُ اليخت:

- آه! سيد داماسينو، يا سيدي ومالكي، يا أعظم قبطانٍ في الشمال، أنا أعرف الطريق: سنتجه نحو التيرال ونعبر عائماتٍ لماراوا! انظر سيدي، انظر عبر جدار اليخت الذي هو خادمك لتتمكن من استشراف أشجار جوز الهند الخضراء في بونتا دو توبارو. فلنمضِ إلى هناك.

- ثم ماذا أيها اليخت بونيتو؟ سأل المعلمُ داماسينو.

- ثمّ ماذا؟ ثم سيُجري البحار الموجود على متن السفينة مسحاً لطرف كايكارا. يجب ألا يقترب البحار من الأرض. انظر إلى التيجان أيها البحار؛ لكن لا تبتعد كثيراً حذراً من باخرة أوركاس أيضاً. كن حذراً من «انجراف التربة»؛ فإذا كان الأمر كذلك، فاحذر من أوركاس إذ تغتسل بالمياه...

- أأمرُ أمام أوركاس بمثل هذا اليخت الجميل؟

- ستبدأ بمنارة سانتو ألبرتو من جهة كايسارا، فتتظر من خلال الجدار إلى طرف سانتو ألبرتو؛ ومن هناك نتجه نحو



تريس ايرموس؛ لكن لا ينبغي لك أن ترى إلا الأخ الشمالي،  
وإلا فإنك تجازف بالوقوع في الحب... بمجرد أن تركب الأخ  
الشمالي، كل ما عليك فعله هو الذهاب إلى الأخ الشرقي،  
ومن هناك تتجه نحو شقيق الجنوب...

- وماذا أيضاً يا يختي؟

- اغتتم هذه الرياح ذاتها للتوجه نحو ضفاف سانتو  
كريستو؛ ولا تنس ما ينبغي من المراقبة من خلال جداري.  
من سانتو كريستو سنتجه نحو منارة اوليوس داغوا.  
الأمر يثير الغضب هناك! بداية متاهة منارة اوليوس  
داغوا، والتي تسمى أيضاً كالكانيار. من هذه المنارة،  
اتبع شاطئ البحر حتى مخرج سيتيو داس غارساس عبر  
نقطة غاميليرا...

- زدني، يا يختي بونيتو.

- انعطف جنوباً، فإذا كانت الرياح قوية بما يكفي  
لوصولك إلى قرية توروس، فيمكنك الرسو فيها، وحين  
تصل، يا سيدي ومالكي، فواجه الرياح بمقدمة اليخت،  
وتولّد دفعة القيادة، فاجعلها في وجه الرياح، ثم أسقط  
المرساة...

- نعم، أيها اليخت بونيتو العالم بكل شيء. في توروس  
لدينا مرسى جيد؛ نلقي المرساة هناك في قاع من  
الطين؛ في مياه جيدة، ولكن أي صيد يمكننا القيام به

هناك أيها اليخت الرائع؟ أخبرني، ماذا هنالك أيضاً؟  
ثم مضى اليخت بوتيرةٍ أسرع، وتحدث بشكلٍ أسرع  
هذا لأن المسافة كانت تتناقص، ومدينة ناتال بدأت  
تقترب. إنه يتحدث بسرعةٍ بتلك اللغة التي لا يفهمها إلا  
السيد داماسينو.

- ثم ارفع المرساة في توروس للمضي نحو ريو دو  
فوغو، وانظر وراءك أيها القبطان، لتشاهد أن سيتيو داس  
غارساس لم تعد بعيدةً عن ضفة غاميليرا، ثم لتري خليج  
بيتيتينغا، وجوز كاراباس، وخليج ماراكاجو؛ ثم يأتي كابو دو  
ساو روك الرائع! ولاحقاً أشجار جوز الهند في ماريو، أجمل  
شاطئٍ في الشمال الشرقي! انظر إلى الأحياء الفقيرة  
في ماكسارانغواي! نعم هذا كل شيء! ذاك هو الخطر  
الأخير! من هناك، يا سيدي ومالكي، يمكنك الذهاب إلى  
البحر دون قلق، احرص فقط على ألا تحبّب؛ بسبب ضحالة  
موريتش وجاكومان وبيتانغي وجينيبابو...

- ثم يا يختي...

- نعبّر خليج جينيبابو فنمضي قُدماً إلى فورتاليزا دوس  
سانتوس ريس كاغوس في ناتال. ناتال... هناك يا سيدي  
ومولاي، يا أعظم قبطانٍ في الشمال الشرقي؛ سنكون  
هناك...

لقد تحدث كابيديلو؛ يختُ السيد داماسينو عن كل



شيءٍ، فلم يفهمه سوى البحار المسن. ربما ظن شخصٌ آخر أنّ من الغريب أن يتحدث البحار الشيخ إلى قاربٍ؛ لكن هذا الشخص سيجده غريباً لأنه ليس من رجال البحر، ولا يعرف لغة الرياح والمياه وأجنحة طيور النورس؛ ومثله لن يعرف الألم الذي يصاحب أنين الأشرعة وهدير الصواري.

لغة البحر جميلةٌ جداً! ناعمةٌ جداً، حتى أن القديس بطرس يستخدمها ويحبها.

كان السيد داماسينو هنالك حازماً، وثابتاً في القيادة عند تهادي اليخت فوق الأمواج؛ فتراه يتوقف من وقتٍ لآخر لمشاهدة الأشرعة، واستكشاف المياه والأفق، وقياس الساحل ومراقبة الطقس، والصراخ بصوتٍ عالٍ لا تبدده الرياح:

- انظروا إلى المسبار أيها الناس!

- افردوا الشراع! وشدوا الذراع...

لكنها ليست صرخةً؛ لا؛ ولم يكن أمراً؛ إنّ هو إلا طلبٌ؛ فهو لم يكن يصرخ في وجه أحدٍ؛ بل يطلب منهم أن يحسنوا معاملة اليخت الذي يعادل في القيمة أطفاله. أما وقد صرخ، فذلك بسبب الرياح؛ فما من داعٍ للصراخ على يختٍ يلبي جميع رغباتك...





## الفصل السابع القط

**مرت** ثلاثة أشهرٍ أخرى، وهطلتِ الأمطار، وعاد شيكو في صباح يومٍ غائمٍ. فتح يختُ كابيديلو جميع أشرعته واستقبل جميع المياه المتدفقة في نهر آكو. استلم السيد داماسينو عجلة القيادة فهو الآن لا يريد التنازل عن القيادة لأيِّ كان.

عبرت عارضة اليخت كابيديلو التيارَ عائداً إلى الديار؛ عالماً بكل التداعيات المعقدة، والمنعطفات الخطيرة، والضاف الرملية، وأعماق القنوات، وكل ما في ضفة نهر آكو من تفاصيل.

مع هطول الأمطار، ازداد منسوب مياه النهر، كما أصبح بفضل المد عريضاً أخضرَ داكن اللون.



جاء اليخت يقصد الميناء، وانتشر الخبر في جميع  
أرجاء مدينة ماكاو؛ فأبحر سريعاً قبل بورتو دو روكادو.  
لقد وصل السيد داماسينو!

يمكن قراءة الفرخ في كل الوجوه؛ فعند وصول أي  
يخت فإنّ عليه أخواً أو أباً أو عمّاً أو عاشقاً... أو خبراً  
عن قريبٍ مسافرٍ...

كانت جوانينيا ماريسيا كغيرها تستعد بالتأكد. ها  
هي ذي تداعب ثدييها الرشيقين اللذين لم يكونا كبيرين  
جداً، ولا صغيرين أيضاً؛ وذلك لأنها أرادت لهما ذلك؛  
فقد تعلمت أنها إن حشرتهما في عش عنديبٍ، فإنهما  
لن ينموا إلا بقدر حجم ذلك العش؛ وهذا ما فعلته. إنها  
تداعب ثديين يملك شيكو أمرهما، وتغار العمّة كريستينا  
منهما.

ستكون جوانينيا ماريسيا سعيدةً في تلك الليلة، ففيها  
يعود إلى أحضانها شيكو الذي كان حزيناً حين غادر، أما  
حين وصل؛ فتضاعفت الفرحة أضعافاً.

لقد طاب لشيكو المقام على أراضي بورتو دو روكادو؛  
وكانت ليلته تلك سعيدة؛ فقد أحب جوانينا ماريسيا بكل  
ما يملك من عاطفةٍ، وحدثها بأشياء جميلةً عن الموانئ  
التي حلّ بها، ولم ينسَ أن يُحضر لها هديةً جميلةً كما  
عوّدها مراتٍ عديدةً؛ هديةً يرضي بها غرورَ صاحبته؛



لكنها لم تكن هذه المرة زوجاً من الأقران، بل صدفتي سلاحف مزينة بأحجار لامعة، كما أحضر لها أرجوحة شبكية كان قد اشتراها من شاطئ كايسارا.

خرج بعد تلك الليلة يتجول في مدينة ماكاو ليقابل الرجال، ويصافح العديد من الأصدقاء؛ فسعادة البحار لا تقتصر على رؤية الأماكن التي يعتز بها، بل تتعدها أيضاً إلى رؤية ذوي الوجوه المألوفة، ومصافحتهم، والتبسم لهم، والكلمة الطيبة في حضورهم. كل ذلك جزء من حياة أي شخص يعيش على تهادي البحر الأخضر السرمدي.

كم كان من الرائع التحدث مع دوم ميغيل، والنظر إلى وجهه اللطيف، وسماع صوته المختلف الذي يذكرك بأراضي إسبانيا القديمة.

وأن تتحدث مجدداً مع البياض الموقر بصوت يوازي بياضه بياض رأس القس هونوريو.

وأن تضحك بصوت عالٍ من ذكر شرور مارغريدا بابو أماريلو، وتزور يخوتاً أخرى فتجد فيها صحبك القدامى، وأن تسأل عن أخبار من لم تطأ أقدامهم تلك الشواطئ منذ أمد بعيد، وأن تتجول بين الباعة فتستمع إلى أكثر القصص إثارة للاهتمام؛ قصص عن كل شيء وكل شخص، وأن تجيب عن جميع أصناف الأسئلة المطروحة: كل ذا سمة من سمات ما يحدث لكل من اتخذ البحر جارا.

جاء شيكو كل تلك الأماكن، واستذكر كل شيءٍ بهدوءٍ ورويةٍ.

كان يعلم أنه غيرُ مضطربٍ للاستعجال؛ فقد بدأ زمن الرياح العاتية، واليخوت التي ستستغرق وقتاً أطول لوداع في الموانئ. لم يتبقَّ سوى رحلةٍ واحدةٍ ينبغي القيام بها بعد مراقبة الطقس عن كثبٍ؛ فبمجرد حلول موسم الرياح العاتية، لا يسعك أن تكون مهتماً؛ فإذا هطلت الأمطارُ، وذهبت العديد من المراكب واليخوت وقوارب الصيد إلى مملكة أنامبوروكو، كما أسماها بايانو... لم يعد منها أحدٌ ليروي القصص.

كان شيكو يرجو الآن الانطلاقَ شمالاً لتلقفِ حمولةٍ أخرى من الملح في كاموسيم، في سيارا. أما كابيديلو فنائمٌ لن يستيقظ قبل أسبوعٍ؛ إذ كان السيد داماسينو شديدَ التعلق بيخته، وبما أنه نشأ على الشاطئ، ويعلم خطورة الرياح، فما كان ليخاطر بقاربه أو بحياة هؤلاء الرجال المخلصين بسبب نفاذ صبره وتهوره أو لأيِّ سببٍ آخر؛ فالطقس العاصف خطيرٌ بالفعل.

الآن توقفت أحواض الملح عن عملها، وسيؤدي المد والجزر إلى فيضان مياهٍ جديدةٍ نحو الأحواض والمبورات التي ستجعلها تتصادم فتنتج الملح الأخضر، ثم يمر بعض الوقت لتُفتح مقبرة الملح مرةً أخرى فتبتلع ظهورَ



الرجال المدبوغة بدفنهم فيها أحياء. في مرحلة الجنى، سيكون الملح موجوداً، وتكون أقدام الرجال المتصدعة المشوهة جداً قد انطلقت مجدداً بحثاً عن الجذام؛ ثم ليزيغ البصر مرةً أخرى جزاءً سطوع الضوء المفرط حين ينهمر على أهرامات الملح. كان روتين حياة لا ابتكار فيه، وستبقى ماكاو كما هي إلى أبد الأبد.

\* \* \*

كان الطقس رديئاً، وكانت الغيوم تتجمع في جميع أرجاء السماء؛ أما في البحر؛ فكان الوضع أسوأ. خارج المرفأ، قد تفاجئ الرياح في أية لحظة قريباً غير محتاط فتحصد بأنفاسها العديد من الأرواح فيه.

لم يذهب الصيادون للصيد. إذا كان البحر عند الشاطئ مائراً جداً، فسيكون في الخارج إعصاراً؛ ولذا عليهم الانتظار حتى يهدأ البحر ويتحسن الطقس. قد يقضي البحر والرياح في بعض الأحيان ما يصل إلى شهرين من العبوس والاكفهرار، ثم يتحسنان فيما يسمى بهدنة قد يكون الجو فيها عاصفاً رغم ذلك؛ فإذا ما رأوا سحابةً مشبوهةً، لم يرغبوا في السفر لما في ذلك من مجازفة وإمكانية وقوع خيانة مناخية ما.

قد لا يلتفت لها بعض الصيادين الشجعان، وقد لا يحدث شيء في كثير من الأحيان؛ بل على العكس من

ذلك، قد يجدون في الخارج شمساً مشرقة رائعة؛ فلا تكون تلك السحابة سوى خدعةٍ مناخيةٍ لإخافة الصيادين. لكن الطقس لم يكن جيداً؛ فقد استمرت الغيوم السوداء في التراكم مكونةً أهراماتٍ سوداء، وهناك بعيداً؛ وراء تلك السحب، وتحديداً في قاموس البحر، لا بد أن كثيراً من نور الشمس ينسكب هنالك في النهار. لن تغادر اليخوت والزوارق؛ فالأضمن أن تنتظر بضعة أيام.

سيستغرق يخت كابيديلو أسبوعاً، وجوانينيا ماريسيا سعيدةً بهذا؛ إذ ستكون لعدة ليالٍ في أحضان رجلها تداعب شعره الأسود، بينما يكون ليل البحر المظلم في الخارج يهدر غاضباً، والريح تغني في آذان الأمواج أكثر أغانيها عواءً.

خلال إحدى فترات ما بعد الظهر، سمع شيكو من فم بايانو القصة بدخوله حانة دوم ميغيل؛ وعندما رأى شيكو يدخل، أطلق ضحكةً عاليةً وسأله دون مواردٍ:

- مرحباً شيكو. أنت صديقٌ حقيقيٌّ، وبطلٌ مصارعة الأذرع، والقويُّ كالجحيم، فلماذا لا تعرض خدماتك؟

- لأجل ماذا؟

- ألم تسمع بالخبر؟

- لا.



- رئيسك سيد داماسينو يحتاج إلى رجالٍ إذ لديه الكثير من الملح لإرساله إلى ماسايو؛ ويطلب من يقبل المخاطرة على متن كايبيدילו؛ لكنه في عجلةٍ من أمره لإرسال الملح. إذا وجد طاقماً ليخت «صنع الله»...

- ما القصة؟

- يريد إرسال الملح إلى ماسايو. هذا كل ما في الأمر.  
- ألا ترى ألا أحد يسافر في هذا الطقس! وعلى هذه البارجة المجنونة!

- إنها وظيفة الرجال. إنها وظيفة الرجال. هذا ما قلته لك.

راح شيكو يفكر ويقيس حجم ذلك الخطر.

- إنه شاقُّ.

- نعم هذا صحيح!

- الماعز المُخاطر لا يعتمد على الحظ.

- إن اتخذ قناة ساو روك قبل...

- إن كان محظوظاً فقط؛ لأن عاصفة الجنوب تستفيق في هذه الأيام. يجب أن تتحرك البارجة بسرعة؛ أما إن كنت تسافر بعكس اتجاه الريح في هذه الفترة التي تسود فيها الرياح العاتية...



- إذا اتجهتُ شمالاً، فسيكون ذلك سهلاً.
- ليس الأمر بهذه السهولة، لكن ذلك أقلُّ خطراً.
- للشمال يمكن الذهاب.
- هو ذا.
- أيدفعُ الكثير لمن يذهب؟
- هذا ما قلته لك، شيكو.
- هل تعرفُ من يريد الذهاب إلى هناك؟
- حتى الآن، روسو فقط.
- لروسو روحٌ حرةٌ ليست في غيره.
- لماذا لا تذهب يا شيكو؟
- سأفكر في ذلك.

غادر شيكو، وابتدأ الشيطان ينفخ سلطان الغرور على رأسه:

- لماذا لا تذهب يا شيكو؟ ألسنت الرجل الأقوى؟ والأكثر وسامة؟ وملك مصارعة الأذرع؟ ليس هنالك خطرٌ. أنت محظوظٌ وستلعب اللعبة مرةً أخرى. ثم ما هي عاصفة الجنوب؟ ريحٌ وحشيةٌ تظهر أحياناً...

دس شيكو يده في شعره بعصبيّة؛ وكان الليل قد أزف. ستكون ليلةٌ ناضجةٌ.



مشى دون أن يسمع صوت قدميه على الرمال.

لا صوت إلا صوتُ الشيطان يخاطب باطله:

- إنها فرصةٌ جيدةٌ لك لكسب المال، ووظيفةٌ تتناسبُ  
ساعداً قوياً كساعديك، ودمماً جديداً كدمك. إذا قمت بهذه  
الرحلة، ذاع صيتك كأشجع قبطانٍ في الشمال الشرقي.  
لماذا لا تذهب إلى هناك؟ ثم إن يخت «صنع الله» ليس  
مجنوناً جداً؛ وهو يبلي بلاءً حسناً، وتتحكم به ذراعٌ قويةٌ  
كذراعك...

أصبحت روحه خاليةً من الألم، واجتاحته نزوةٌ مخيفةٌ.  
ماذا لو حدث مكرورةٌ؟ لن يحدث شيءٌ. كان يعلم أن شيئاً  
لن يحدث...

عاد إلى المنزل؛ فلاحظت جوانينيا في تلك الليلة  
تململ شيكو ومكابدته؛ لكنه قالها أخيراً:

- أعتقد أنني سأسافر يا جوانينيا.

لم تقل أي شيء؛ إذ لا جدوى من قول أي شيء؛ فعندما  
يتخذ شيكو قراره فلا نفع في طلب أي شيء. استدار  
شيكو إلى الجانب الآخر من السرير، وداعبت يدها كتفيها  
الداكنين.

- ألن تقولي شيئاً؟

لم تجب؛ بل جرى على يد الفتى شيءٌ ساخن؛ فتحسس

بأصابعه وجهها؛ وإذ بخديها مبللان.

- أتبكين يا جوانينيا؟

كان في صوته حنانٌ كبيرٌ. عانق جسدها القويّ بذراعيه، ومسح الدموع عن وجهها بطرف الغطاء. شعرت جوانينيا أنها تُحتضر، وأن كل شيءٍ مات هذه المرة؛ حتى دفع جنسها وجسدها. كانت فيما مضى تشعر بجسدها يشتعل إذا ما عانقها شيكو بطريقته التي لا يتقنها سواه؛ أما الآن فلا؛ بل بدا جسدها يذوي فيتلاشى فيموت... على شيكو ألا يذهب إلى هناك؛ فهي أيضاً عرفت حياة البحر على مركبٍ ملعونٍ كمركب «صنع الله»؛ لكن الابتهاال إليه لن يأتي بنتيجة. الابتهاال. هكذا همُّ البحارة، وعلى صويحباتهم أن يعتدن على ذلك؛ فالبحر في نظرهم أكثر أهميةً منهن. كانت تعلم أنه مصممٌ على الذهاب؛ ولذا بكت وبكت ثم امتثلت. كان وجهها مبللاً؛ ولذا شعرت أن وجه شيكو الملتحي يخدشها برفقٍ، وأن صوته اكتسب تلك النعومة.

في الخارج، كان الليل حالكاً؛ أما في البحر، فكان عواءُ الرياح يطرق آذان الأمواج.

\* \* \*

حك السيد داماسينو لحيته. إنَّ ذا لشجاعةٌ نوعاً ما.



- لم أفكر فيك يا شيكو.
- سأفعلها، ولهذا السبب جئت لأتحدث معك.
- لكنها رحلةٌ خطيرةٌ جداً.
- أعلم ذلك أيضاً.
- هذا المركبُ مجنونٌ.
- أعرفه، وأضمن أنه سيكون بخيرٍ معي.
- سأخبرك بصراحةٍ يا شيكو. صحيحٌ أنني بحاجةٌ إلى شحن هذا الملح إلى ماسيو؛ لكنني لا أريد المخاطرة بكابيديلو؛ فهو قاربي ولا أريد خسارته. ربما هو مجنونٌ؛ لكنه مع ذلك ملكي، وأنا أحبه. لا أريد فقدانه أيضاً؛ لكنني لو اضطررتُ لخسارةٍ واحدةٍ، فأنا أفضلها على خسارة اليخت. إنني فقدتُ كابيديلو يوماً ما، فإنني سأذبل حتماً...
- قلتُ لك إنني أعرفُ حبك للمركب. سأعتني به.
- هل تريد حقاً أن تذهب يا شيكو؟
- لهذا السبب جئت إلى هنا.
- جيدٌ جداً؛ وسأوكل إليك منصبَ السيد.
- من سيذهب أيضاً؟ سمعتُ أن روسو ذاهبٌ...
- نعم. إنه ذاهبٌ إلى هناك؛ فهو رجلٌ شجاعٌ. سيذهب



أيضاً جيسوينو الأسود. هل تعرفه؟

- نعم أعرفه. إنه رجلٌ طيبٌ.

- وأوزيبو أيضاً.

- أوزيبو، زوج كلودوميرا؟

- نعم.

- أعرفه جيداً أيضاً؛ فقد عملتُ معه في ريكاردو بارتيتو؛ وهو رجلٌ جيدٌ! كنتُ أسافر بصحبته هو وروسو إلى هناك كثيراً. ستكون الأمور بخير...

- إنهم يتفحصون المركب؛ فهل نذهب؟

- فلنذهب. متى تريد منا أن نغادر؟ غداً مع المد بعد

الظهر؟

- هذا مناسبٌ.

توجهوا إلى روا دا فرينتي؛ والتقوا بالعديد من المشاهير. هنالك يجثم المركبُ ذو السمعة السيئة: «صنع الله».

لقد طار روسو وأوزيبو فرحاً عندما علما أن شيكو سيكون القائد؛ بل لم يستطع روسو تمالك نفسه، فعانق صديقه، وكلمه كلاماً عاطفياً تقريباً.

- من كان يظن أننا سنسافر معاً أيها الطاعون؟



- ها أنا ذا هنا . سنغادر بعد ظهر الغد .

قام السيد داماسينو بفحص المركب بعيونٍ رقيقةٍ . كان المركبُ مجنوناً؛ وهو يعرف ذلك تماماً؛ لكنه كان صلباً قوياً خفيفاً .

التفت إلى الفتية:

- أتملكون الوقت للمغادرة مع المد بعد الظهيرة؟

- نعم . سنبدأ في تحميل أكياس الملح في الصباح، وننطلق عند الظهيرة بانتظار المد .

- فتعال إذن إلى منزلي لاحقاً يا شيكو . أريد أن أتحدث معك عن شيءٍ آخر .

- حسناً، سيد داماسينو .

ذهب البحار المسنُّ؛ وفجأةً، عبس روسو وشخص بعينه الوحيدة نحو السماء .

- انظر شيكو . يا له من شكلٍ مضحكٍ!

- السحابُ؟

- نعم . كيف يبدو؟

ارتجف شيكو، وتذكر شيئاً:

- يبدو مثل...

لكنه لم يقل كيف بدا؛ وتوقف جيسوينو عن التفكير



وهو لا يزال يتأمله.

- إنه يشبه القط؛ قطعاً يتحرك نحونا. قطعاً! بدأ شيكو يشعر بالقلق. سحابة تشبه قطعاً؟ لقد تذكر تحذير العجوز ملاخاي: «احذر القطط! سرت القشعريرة في جسده. كان رد فعل. قطعاً. يا له من هراء! كيف لسحابة أن تخيفه بهذا الشكل؟ عبثاً. إن ملاخاي المسنّ مجنونٌ. شيخٌ مجنونٌ وحسبٌ...»

رفع نظره إلى الأعلى فإذا بالسحابة تدنو نحوهم أكثر فأكثر. لقد كان قطعاً مثالياً...

\* \* \*

عانق جوانينيا، وألقى الحقيبة على ظهره، وابتسم لها، فرأى دمعين تنهمران على وجهها؛ فرسم لها ابتسامةً، واعتدل فاستدار وسار.

مرّ بجوار حانة دوم ميغيل فألقى عليه التحية وابتسم ومضى في شوارع بورتو دو روكادو باتجاه ماكاو.

نظر إلى كل زاويةٍ وركنٍ فيها كما لو كان يودعها. لقد احتفظ في أعماق عينيه برغبةٍ شديدةٍ في تذكر منتصف الرحلة.

سيتوق إلى جوانينيا؛ فهو معجبٌ بها؛ ويعلم أنّ عينيه ستحمرّان من البكاء؛ لكن عزاءه لنفسه أنه سيعود قريباً



حاملاً ما يكفي من المال لشراء هدايا جميلة لها؛  
وأنه حين سيحتضنها بين ذراعيه، سيداعبها قدر ما  
يستطيع...

كان الأمر سيستغرق شهرين على الأكثر؛ لكنه قد  
يستغرق وقتاً أطول بقليل؛ فوجود حمولة في الطريق قد  
يؤخر الرحلة عند عودته. وصل إلى الميناء فوجد الناس  
محتشدين، والطقس لا يزال رديئاً كئيباً.

وصل إلى المركب، وتجمع الناس في مكانٍ قريبٍ ليشهدوا  
فتح الأشرعة الذي يجذب الناس للتوافد إلى الشاطئ؛ وخاصةً  
إن كان المركب العائم الشهير على وشك الانطلاق في رحلةٍ  
محفوفةٍ بالمخاطر. كان المركب العائم «صنع الله» يحيط  
بأبجدية الجنون، وهو الآن يبهر بعكس الرياح في طقسٍ ذي  
عواصفٍ عاتيةٍ.

ذهب الناس لمشاهدة انطلاق رحلة شيكو؛ ملك مصارعة  
الأذرع. استمتع الجميع بوداعه وتمنّوا له رحلةً موفقةً ملوحيين  
له بمناديلهم أو بأكفهم. كانت تلك العادة مألوفةً على الشاطئ؛  
فكانهم بذات متحدثون في حياةٍ مشتركةٍ، مدركون تماماً للأخطار  
التي سيتعين على أفراد الطاقم مواجهتها، فحضرُوا لتقديم يد  
العون لهم.

لقد جاؤوا يتمنّون لهم حظاً طيباً في حياتهم التي  
فيها معاشهم أيضاً؛ فالأخطار هي ذاتها، ولذا قالوا من



صميم قلوبهم للراجلين:

- سفراً ميموناً أخي وصديقي.

- رحلة سعيدة في هذا البحر اللجّي الكبير والخطير  
جداً، والذي نستمد منه قوّتنا وقوّتنا...

بدأ جيسوينو وأوزيبينو وروسو في فتح الأشرعة، تم  
رفعوا المرساة.

كان الجميع يعمل، وكان المد عالياً والرياح تهب على موجٍ  
متلاطمٍ. رفعوا الشراع الرئيس، وربطوا الشراع الأمامي،  
وسحبوا المرساة؛ وراقبت عيونُ الناس الصامتةُ المركبَ  
يغادر الشاطئ ليبدأ التحرك بعيداً.

أمسك شيكو بعجلة القيادة، وهيمن ذراعاه القويان  
على الدفة.

لمعت عيناه السوداوان تحت حاجبيه المقوسين، في  
إشارةٍ منه إلى المسؤولية.

عند حافة الرصيف؛ ابتهل السيد داماسينو بهدوءٍ أن  
يشهد المركبُ رحلةً ميمونةً، وأن يعود الرجال سالمين  
قريباً.

أما بايانو الذي تحدث إلى مارغريدا بابو أماريلو، فلم  
يوافق.

- لم يكن عليه الذهاب في هذا الطقس يا مارغريدا!



لا بدّ أنه رجلٌ حقاً!

- سيكون شيكو بخير.

- ربما. نعم. لكن انظري إلى عاصفة الجنوب؛ لذي

الغيوم! البحر مكفهراً حقاً!

تتبعت مارغريدا بعيونها المكان الذي أشار إليه بايانو،

وارتجفت شفاتها. قد لا يعود هؤلاء الرجال. من يدري؟

صلّت للقديسة لوسيا، والقديس بطرس، وسيدة الملاحين

أن يحفظوا هؤلاء الرجال...

واصل بايانو الكلام بحزن:

- وهم يذهبون عكس الريح... ممممم!

في غضون ذلك، كان المركبُ قد انطلق بعيداً وتوسّط

القناة ينزلق برشاقةٍ بجعةٍ. نفختِ الريحُ خدّي أشرعته؛

وبات الجوكر حراً. فُتحت جميع الأقمشة لاستقبال زفرات

الريح. كان مركب «صنع الله» خفيفاً حقاً. إنه يندفع الآن،

وشيكو يراقب المركب من أعلى حافته. بات الرصيف

يتراجع، وأصبحت أهواؤُ الملح الأبيض أصغرَ فأصغرَ.

عما قريبٍ يتعدى المصبّ فتختفي ماكاو في المسافات.

بدأت منارة الاغامار تتحرك، وراح نهر لاماراو؛ مع ارتفاع

المد؛ يحجب رائحة أشجار المانغروف الكريهة، وبدأ البحر

يتأرجح الآن بارداً بأمواجٍ لعينةٍ، وهبّت الرياح على الشاطئ



بشكلٍ عكسيٍّ؛ فاهتز المركب بعنفٍ، وبدا غيرَ جاهزٍ لمواجهة  
الأمواج المتلاحقة؛ لكنهم كانوا مضطرين للذهاب. كان عليهم  
الذهاب رغم علمهم بأن سفرهم سيستغرق وقتاً طويلاً.  
عندما يحين أو أنْ عودتهم إلى الديار، وتكون الريح لصالحهم،  
سيكونون في الديار في لحظةٍ؛ ثم سيكون كل شيءٍ في  
مصلحتهم: الرياح والمد والرغبة في العودة إلى الوطن.

اقتربت فترة الظهيرة من نهايتها، وتسَلَّتِ الريح منزلةً  
بين الجبال، مطلقاً أنينَ مكروبٍ، ثم جاءت لتتأم بهدوءٍ في  
جوف الأشجرة المنتخفة. وتلاشى الشاطئ.

ابتسم شيكو متذكراً السيد داماسينو. لو جاؤوا على  
متن يخت كابيديلو، إذن لاختلف الأمر؛ فذاك اليخت، وفقاً  
للسيد الشيخ، يعرف جميع نقاط الساحل؛ أقله بالقدر  
الكافي للحصول على رحلةٍ خاليةٍ من الهم والغم إلى ناتال؛  
لكن المركب - إذ كان خفيفاً - سافر بشكلٍ جيدٍ على  
الرغم من ذلك.

ودلف الليل.

ومرت الأيام، ولم تزل الرياح القوية تدور حول  
الأشجرة.

حاضرة دائماً، هادئةً بغضبٍ.

\* \* \*



اختفى شاطئ كايسارا وراءهم؛ بل خلفوا كل شيء  
وراءهم: منارة سانتو البرتو؛ ومنارة سانتو كريستو. منارة  
اوليو داغوا، وسيتيو داس غارساس؛ وبونتا دا غاميليرا...  
حينها فقط باتت الرحلة خطيرةً: إنها نحو الجنوب؛  
فإذا ما بلغوا قناة ساو روكي دون خطرٍ، فلن يكون هناك  
تقريباً أيُّ خطرٍ بوقوع حادثٍ؛ فهناك تكمن النقطة  
الخطرة.

في غضون يومين سيصلون إلى مركز القناة، فنكون  
عاصفة الجنوب أقلَّ صعوبةً.

لكنَّ الأقدار على الأبواب. بدأت آمال الرجال تتضاءل  
إذ راحت الغيوم السوداء المنخفضة تتشكل في الجنوب.

- مهلاً شيكو! الجنوب!

- إنَّ أسرعنا تجاوزنا الأمر.

- سنصبح على بعد يومٍ.

مع تهديد عاصفة الجنوب، غدا البحر أشدَّ غضباً.

أنَّ المركبُ بصوتٍ أعلى، وازداد البردُ، وضربت الأمواج  
القوس، واهتز المركبُ فوق صفحة الماء.

ومضى النهار كأن الساعات تسير باتجاه البحر؛ وأمرُ  
الجنوب يقترب، وباتت الغيوم أدكنَّ لوناً وأقربَ مسافةً.



دعا شيكو أصحابه، وآن أن الشجاعة.

- سنتجه جنوباً. يمكننا تجاوز الأمر والعبور ربما من منتصف قناة ساو روك دون أن نقع في حبالله؛ فماذا ترون؟ نواصل أم ننعطف؟

أعطى روسو رأيه:

- يا صاحبي؛ أنا لستُ سوى ذئبٍ مسيٍّ في هذا البحر، لكني أضمن أن علينا التعامل مع عاصفة الجنوب. ربما فات الأوان أصلاً، فالغيوم قريبة جداً.

- قد تكون على حق يا روسو؛ لكنها ستستغرق وقتاً طويلاً ريثما تشتد؛ فتكون الفوضى أكبر!

- وأنت يا أوزيبو؟

- يمكنك المضي. أعتقد أن بإمكاننا الخروج من هذا دون حدوث أي شيء. ما لا يستهويني هو الوقوف بلا حراك في هذه المناطق الخطرة.

فكر شيكو للحظة وقال:

- أتعلمون أيها الرجال؟ إذا كان إعصار الجنوب قادماً لا محالة، فعلينا أن ندركه إما على الشاطئ أو في البحر، واحتمال اصطدامنا به هنا كاحتمال اصطدامنا به على الشاطئ؛ فهل تريدون المضي قدماً؟

- نعم. فليكن.



- إذن هلموا بنا. البحر مصنع الأشاوس. فلنواصل  
الإبحار إذن...

\* \* \*

جرى كل شيء في اليوم التالي وفق ما يرام، لكنهم لم  
يصلوا إلى منتصف قناة ساو روكي.

كل شيء حدث بسرعة البرق.

هدأ البحر، وبقي ساكناً للحظة؛ أما الرياح فكانت  
دافئة خفيفة الهبوب جداً بحيث بدا أن المركب لا يشعر  
بتأرجح الأمواج.

ارتعد الرجال.

- عاصفة الجنوب!

تراكمت الغيوم في غضب جنوني على شكل قوس؛  
فصرخ شيكو مهلوساً.

- أنزلوا الأشرعة وإلا...

لم يسمعوا صوته؛ لكنهم همّوا بإنزال الأشرعة استجابةً  
لغريزة البقاء الرهيبة فيهم، فارتقى جيسوينو سلماً من  
الحيال؛ والرياح تعصف بزئير رهيب، واستعان روسو ببعضلاته  
المفتولة للإمساك بعجلة القيادة، بينما حاول أوزيبو أن  
يفلّ حيال الشراع؛ ولكن الوقت لم يكن مسعفاً؛ فقد اشتدت  
الريح مزمجرةً، وتعاظمت الأمواج المتلاطمة تقذف المركب



يمنةً ويسرةً، واجتاح البحر كل شيءٍ؛ بينما كانت عينا شيكو  
 تراقب تلك الكارثة الطامّة؛ وأسنانه تصطكُّ بقوةٍ. كان كل  
 شيءٍ يُقذف من جانبٍ لآخر، والأشياء تتطاير في الهواء؛  
 وفجأةً، ضرب دويٌّ صاخبٌ هامَ المركب؛ فإذا بصواريه  
 تتصدع فاختفى جيسوينو.

لقد غمر البحر كل شيءٍ، وتأرجح شيءٌ ما في الفضاء  
 فخرّ بشدةٍ على أكتاف شيكو.

كانت ضربةً موجعةً خلفت كتفاً محطماً وجسداً أعرج  
 خرّ على سطح السفينة.



## الفصل الثامن الظماً

**فتح** عينيه ببطء؛ فشعر بألمٍ حادٍّ فيهما. كان الظل يغمر شقه الأيسر. شعر بالدوار ولم يكن يدري ما الذي جرى.

حاول الجلوس؛ لكن ألماً أشدَّ اكتسح ذراعه اليمنى؛ فاتكأ على يسراه واستطاع الجلوس. ذلك عينيه والظلُّ لا يزال يغطي شقه الأيسر؛ فتذكر كل شيءٍ. إنها العاصفة وصاعقة إعصار الجنوب. المركب. نعم، مركب «صنع الله». إنه على متنه. لقد تذكر كل شيءٍ الآن. نظر حوله فرأى الدمارَ سيدَّ المشهد.

كانت الأشرطة ممزقةً إلى أشلاء؛ كما اختفت سارية التتبع؛ فكأنما هي جذعٌ قد قُدَّ؛ أما الشراع الرئيس فلا يزال

مربوطاً، لكنه في العموم متدلّ مهترئٌ متشظٌّ مهشمٌ مترنحٌ  
قد هوى فغطى قمرة القيادة.

تراكمت الألواح المكسورة في كل زاويةٍ، وتصدع  
الدرابزين، وفقد القوس مقدمته، وكانت الحبال تتدلى  
مقطعةً .

كانت عاصفةً عنيفةً؛ فكيف صمد المركب هكذا؟ إنها  
مجردٌ معجزةٌ سماويةٌ أو عقوبةٌ ربما .

كان رأس شيكو يؤلمه جداً؛ لكنه عاد إلى وعيه تدريجياً .

شعر بلمسٍ ثلجيٍّ يلف ساقيه، فرأى أن المياه قد  
اجتاحت كل شيءٍ بسبب العاصفة، وأنه كان جالساً وساقاه  
مغمورتان تماماً. أراد الزحف والبحث عن مكانٍ أعلى، لكن  
الألم في ذراعه كاد يُفقداه وعيَه. لقد بدأ يشعر به. كانت  
يمناه متصلةً بجسده؛ لكنها إذ كُسرتْ باتت بلا حولٍ ولا قوةٍ.  
ارتفعت أصابعه، وتدلى كتفه فتلملم وداهمه ألمٌ رهيبٌ. ثم  
جلس، وهو لا يزال في حالة ذهولٍ، وبدأ في البكاء .

ثم تذكر الظل الذي كان موجوداً يترنح فوق عينه اليسرى؛  
فرفع يده إلى جبينه واكتشف السبب. لا بد أنه أصيب بشيءٍ .  
لقد شجَّ من أعلى رأسه حتى حاجبه؛ فكان الدم قد تجلط  
فمنعه من الرؤية بوضوح .

نظّف الجرح بعنايةٍ بأنّ بلّ يده في ماء المركب المغمور



ودلك به جبينه برفقٍ حتى بدأ الدم يزول؛ وسرعان ما اختلط الدم الأسود بالماء. كان البحر، باجتياحه المركب، قد أذاب كامل شحنة الملح الموجودة في المخزن.

كان الماء الذي استخدمه شيكو الآن لتنظيفه مختلطاً بالملح فحرقه إلى أن كاد يفقده وعيه مجدداً.

استراح لبعض الوقت، وأغلق عينيه إلى أن سكن ألم الإصابة.

وعندما فتح عينيه، كان يرى بشكلٍ أفضل.

هنالك ذكر رفاقه، فصرخ ونادى بصوت يائسٍ على أوزيبيو وروسو وجيسوينو. صبر للحظةٍ عساه يسمع تلبيةً، ثم صرخ مرةً أخرى بمزيدٍ من القوة والألم؛ لكن الصمت لم يكسر. ما الذي حلّ بأصحابه؟ قد يكون بعضهم أحياءً أو مصابين مثله...

كان بحاجةٍ إلى التحرك، فغيّر مكان جلوسه بحثاً عن مكانٍ لا يلسعه فيه الماء بهذه الطريقة على الأقل. ظهرت على شفثيه أولى علامات الظمأ.

لم يستطع حساب الوقت الذي قضاه في الخارج، ولا كم من الوقت قضاه دون أن يشرب. جرّ نفسه قليلاً وتشبث بحبلٍ يمسكه؛ واركأ على ذراعه اليسرى لينهض فانتابه ألمٌ حادٌ من الجانب الآخر فجلس مرتبكاً؛ لكنه كان بحاجةٍ للنهوض

والقيام بعملٍ ما في محاولةٍ لإنقاذ ما تبقى له من روحٍ في ذلك الجسد؛ حتى لو أدى ذلك لإغمائه مرةً أخرى فإنه سيحاول النهوض. صرَّ على أسنانه وتشبث بالحبل وشعر بكتفه الأيمن قد انفصل، وببصره قد أومض كما لو كان على وشك الإغماء. لكنه تمكَّن من الوقوف أخيراً. اتكأ على سارية الشراع الممزق المكسور على شكل زاويةٍ حادةٍ كبيرةٍ. تنفس ببطءٍ، فهبَّت من البحر ريحٌ قبَّلت وجهه.

نظر إلى بقية المركب فإذا بكل شيءٍ قد تحطم. لم يكن هنالك شيءٌ سليمٌ؛ أما إذا ما قاوم الهيكل كل تلك المقاومة أثناء العاصفة، فذاك من قبيل الصدفة.

ومشى فانحنى عند حافة القارب كيلا يسقط؛ فكان في كل خطوةٍ يُصاب بالدوار: فرأسه مشجوجٌ، وكتفه مكسورٌ، وذراعه تتدلى كعكازٍ مسحوقٍ. عليه أن يفكر في الأمر. رأى شراع الصاري الرئيس مبتلاً قد سقط فغطَّى الفتحة؛ فجلس على القبو؛ وتحسس بسبابته اليسرى خصره؛ ومن حُسن حظه أن كان سكينٌ صراع الأذرع موجوداً. أخرجه من غمده، وقصَّ بصعوبةٍ قطعةً من الشراع الرئيس. كان يتألم، لكنه اضطر للعمل بيده واحدة؛ زد على ذلك أنها اليسرى أيضاً. لكن الحبل انفصل عن الشراع؛ فراح حينها يربط عقدةً بأسنانه ويده ضاغطاً عليها فغدا الطوق جاهزاً لوضعه حول رقبتة وتعليق ذراعه المتدللية فيه. ولأنه قد يفقد وعيه؛ فقد علقها برويةٍ،



فانساب على وجهه خيطٌ عرقٍ باردٍ. كان ذلك ضرورياً. رفع ذراعه ببطءٍ، وصرَّ على أسنانه، لكن هذا لم يمنع زئير صدره من الخروج. رفعها أكثر قليلاً، وفتح الطوقَ بأسنانه ليضع ذراعه داخل قماشه؛ فانهمرتِ الدموع على وجهه. يا له من ألم! جلس وأسند رأسه إلى الصاري المكسور، وجسده مغموراً بالعرق، وأسنانه تصطك من التأثر، وعيناه ترتجفان. بدا موضع الكسر لاسعاً كما لو أن فيه ثغرةً هائلةً.

بيدو أن الحمى هاجمته.

لكنه كان مضطراً للتصرف؛ فربما وجد الخلاص. ملَّس جبهته بيده اليسرى ونهض شاعراً بالضعف؛ ولكنه بإسناد ذراعه إلى ذلك الطوق الريفي، بات قادراً على المشي بصعوبةٍ أقل. كان عليه أن يتفقد بقية المكان ويرى ما إذا كان أحد من رفاقه بحاجةٍ إلى المساعدة. توجه إلى قمرة القيادة التي عُطيت بتهاووي الصاري الرئيس. أطلَّ عبر الفجوات الخشبية باحثاً عن أحدهم؛ فكانتِ الفوضى تعم كل شيءٍ في الداخل: فالأسرة مفككةٌ على الأرض، والأشياء محطمةٌ متناثرةٌ في كل ركنٍ، ولم يكن هناك من أحدٍ. التفت إلى الحافة الجانبية فاتسعت عيناه في رعبٍ حينما رأى أن الدفة قد تحطمت إلى قسمين بفعل الصاري المتداعي، وتحت كل تلك الأنقاض مات روسو بطريقةٍ مؤثرةٍ جداً؛ فقد أدى تحطم رأسه إلى خروج دماغه مهشماً ملتصقاً فُتاتُه ودمه المتخثر بأرضية المركب.

كانت إحدى عينيه الزرقاوين قد خرجت من محجرها وقُذفت مسافةً بوصةٍ من وجهه، وهي تنظر إلى الأعلى.

ارتجف شيكو، وغطى وجهه المشجوج بخرقيةٍ؛ فتلك العين الناظرة وصمةٌ عارٍ على المركب.

لم يستطع إخراج روسو من هناك. فقط لو أن له القوة في ذراعيه الاثنتين معاً، إذن لرحف تحت الصاري المكسور وحاول سحبه للخارج.

ثم لجرَّ عجلة القيادة المكسورة وأخرج رفيقه من تحتها وألقاه في البحر. نعم، سيفعل ذلك. دمعت عيناه مرةً أخرى حين شعر بعجزٍ كعجز جثة صديقه.

إن لم تصل المساعدة قريباً، فسيبدأ روسو في التعفن في مكانه دون أن يكون في وسعه ما يفعله.

روسو المسكين! بعد كل حبه للنساء بات الآن كلحمٍ مفرورٍ يباع في السوق.

جاء شيكو القارب ليرى ما إن كان بإمكانه العثور على أوزيبينو أو جيسوينو؛ فلم يعثر لهما على أثرٍ. كان الضرر الذي لحق بالقارب أكبر من أن يستطيع ذلك. إنه دمارٌ انتشرت فوضاهُ في كل مكانٍ.

وأوزيبينو؟ ربما يكون قد سقط في البحر فهو يسبح الآن. لا. لا أحد يستطيع النجاة بالسباحة في هذا البحر



الهائج. من المحتمل أنهما سقطا في البحر فمزقتهما الرياح العاتية. لا شك أنهما باتا طعاماً للأسماك، أو أن بطنيهما الممتلئان يطفوان في مكانٍ بعيدٍ. لم يكونا على متن المركب.

اختلس شيكو نظرةً خاطفةً على القبو؛ فكانت الألواح قد زحفتْ نحو المقدمة، واستطاع رؤية أكياس الملح الذائبة في الماء. لقد أذاب الماء الملح فلم تنزل هنالك طبقةً بيضاءً تجول في الوسط، تتلاعب بها الأمواج جيئةً وذهاباً.

ضاع ملح السيد داماسينو تماماً كما سيبقى مركبه عديمَ النفع إلى الأبد.

ولكن؛ لكي تدمر الميأة الحمولة بهذه الطريقة، كان عليها أن... نعم... لا بد أن العاصفة استمرت لفترةٍ طويلةٍ. كل شيءٍ يشير إلى أن العاصفة استمرت يومين على الأقل، وأنه طوال ذلك الوقت كان تحت رحمة الكارثة فاقداً للوعي. لم يحدث له مكروهٌ. لا شيءٍ مقارنةً بنهاية الآخرين.

عندها تذكر أن ينظر حوله ليرى ما إذا كان بإمكانه رؤية اليابسة. مستحيل! لا يرى في جميع الجهات سوى البحر الهادئ الوادع الذي أزهد بلا رحمةٍ ثلاثة أرواح قبل ساعاتٍ قليلةٍ، وجعل من زورقٍ متينٍ شجاعٍ زورقاً



عديم الفائدة.

لم يكن يملك أية فكرةٍ عن مكان وجوده. لعله في الليل يجد طريقه. لا، ولا ذاك كذلك، فهو لم يقبل أن يتعلم أبداً، ولطالما ظن فيما مضى أن من الغباء الاستهداء بالنجوم؛ أما الآن، فتمنى لو كان يعلم... تذكر أنهم حين فوجئوا بالعاصفة، كانوا في بداية قناة ساو روك؛ لكن هذا لا يعني شيئاً إذ لا يمكن أن تكون الرياح قد أخذت المركب في اتجاهٍ معاكسٍ تماماً. ربما دفعت التيارات البحرية الأخرى القارب نحو نقطةٍ بعيدةٍ أخرى. لو كان بإمكانه رؤية اليابسة، لأمكنه ربما اتخاذَ وجهةٍ ما. تمنى لو أن سفينةً أو مركباً آخر يأتي لمساعدته.

أما في تلك الأثناء، فكان تحت رحمة الأمواج تحمله أتى أراد البحر؛ أما السيناريو المأساوي الآخر فكان احتمال ألا يحتمل الهيكل الأمواج المتلاطمة أو الرياح القوية؛ ولكنه كان مضطراً للانتظار. كم يوماً؟ الإجابة متروكةٌ للقدر. جلس محبطاً تلسعه الشمس بشكلٍ رهيبٍ. واصلت شفتاه طلب الماء؛ فوضع يده على فمه فألفاه جافاً وقد فتك به الظمأ، ولم يكن على متن السفينة من ماءٍ ولا طعام. لقد بحث فلم يجد شيئاً. بطبيعة الحال، اجتاحت موجات العاصفة السفينة، وجرفت ما كان فيها؛ فكان الجوع شيئاً يمكنه الصبر عليه ريثما تصل المساعدة؛



أما العطش فلا. لا يستطيع أحدٌ تحمل العطش لفترةٍ طويلةٍ؛ ولذا لا بد من وصول المساعدة. لا مناص من ذلك. في تلك الأثناء، كانت الشمس تحرق كل شيءٍ، وبدأ النهارُ كأنه يأبى الانقضاء؛ فهو أشبه بمركبٍ تجرّه أمواجُ كسلى.

لو أنه على الأقل يصادف تياراً، إذن لبُعِثَ فيه أملٌ ما في العثور على مركبٍ من المراكب الشراعية. لقد بات كل ما يتعلق بشيكو قيد الغيب ورهنَ الأمل، وكان الانتظارُ خياره الوحيد.

ضعفت الشمس أكثر؛ ودنا الأصيل بروية، فكانت الريحُ غائبةً عن المشهد، والهدوءُ مؤلماً. قريباً يخيم الظلام، وتبدأ حرارة الجو بالتناقص وهو بلا مأوى يستتره. نظر إلى الشراع الرئيس الذي جف في سطوع الشمس؛ ففطن إلى أنه سيفي بالغرض فعلاً؛ ففرز السكين في قماشه، فما سمع من صوتٍ سوى صوت السكين في خيوط القماش.

تغطى به بعد أن بحث عن مكانٍ قليل الغمر بالمياه لينام فيه.

سيحاول النوم؛ فمن يدري؟ عسى أن يتحسس في اليوم التالي ساحلاً، أو يرصد قاربَ صيدٍ أو حتى سفينةً.

تذكر مكان عالياً أصلح للمنام بجوار قمرة القيادة؛ بيد  
 أنّ هنالك جثمان روسو المسحوق! لم تكن هناك سبيلٌ  
 أخرى؛ فربما يكون سطحُ المركب أكثرَ جفافاً مع شروق  
 شمس اليوم التالي. سينام هناك اليوم فقط؛ ولكن هل  
 سينام بجوار الجثمان؟ جثمان رجلٍ مشجوج الرأس، ووجهه  
 مغطى بقطعة قماشٍ لُفَّ بها؛ غطى بقطعة قماشٍ العين  
 المنتفخة الناظرة للأعلى.

شعر بقشعريرة تنسكب في عموده الفقري. إنه سبيله  
 الوحيد. كان السببُ الوحيدُ في ترده في النوم هناك هو  
 انبعاثُ الرائحة النتنة من رفيقه المسن.

ها هو يضطجع. حلّ الليل ببطءٍ؛ وتمايلتِ النجوم في  
 السماء متبعةً لعبة أمواج البحر، ولم يستطع الصاري  
 المكسور في «صنع الله» لعبَ البلياردو بكرات النجوم،  
 ولا الانقضاضَ عليها كعصا البلياردو لقتفها في جميع  
 الاتجاهات. نظر إلى الأعلى بحزنٍ ورأى جثة روسو. كان  
 روسو نائماً. لن يزال نائماً. إن هبتِ الرياح من جانب  
 الجسم المهشم، فستفوح منه رائحةٌ كريهة؛ لكن الرياح  
 لحسن الحظ هبت في الاتجاه المعاكس.

لم يزل كتفا وذراعا شيكو المحطمان تحرقه دون  
 توقفٍ أبداً؛ أما عطشه فكان يستفحل به حتى بدأت  
 الحمى تصيبه بالدوار. وضع رأسه على شقه الأيمن؛ لكن



ارتعاشين تعاقبا عليه، ارتعاش البرد وارتعاد القشعريرة.  
اصطكت أسنانه اصطكاك أسنان المرضى. أغمض عينيه  
ونام.

هبت ریحٌ باردةٌ عند الفجر؛ ولما طلع النهار انبجستِ  
الشمس من أحشاء الماء؛ فاستيقظ شيكو وقد خف ألمه  
قليلاً، سواءً ألم رأسه أو ألم أوصاله عديمة النفع. شعر  
أن جانبه الأيمن بالكامل قد تورّم وازداد وزناً.

ونهض. كانت رياح الصباح تهب من الجانب الآخر،  
أما الرائحة الكريهة فتتصاعد من جسد صديقه المتحلل  
بحيث سيستحيل أن ينام ليلةً أخرى بجوار هذا الجسد.  
بصق جانباً مشمئزاً.

نظر ويده فوق جبينه محاولاً أخذ لمحةً عن شيءٍ  
ما في الأفق البعيد؛ بيد أن شيئاً لم يظهر هنالك سوى  
الماء المترامي في كل جهةٍ: في الشمال والجنوب والشرق  
والغرب؛ والأسوأ من ذلك هو عدم معرفة جهة مسيره  
بالنسبة للشمال.

جلس محبطاً ينظر إلى الصواري المكسورة والأشربة  
العاجزة. كان المركب أكثر من مجرد جثة. كان قربةً، إن  
لم تغرق، دفعتها الريح والبحر إلى الجانب الذي يريدانه.  
سيطر الحزن على شيكو. ما كان عليهم أن يغادروا بعدما  
اقتربت العاصفة كثيراً كأنما هي نذيرٌ؛ فظنوا أنهم

يستطيعون الوصول إلى مركز قناة ساو روك دون وقوع الكارثة.

ظل يفكر في جوانينيا ماريسيا. لا بد أنها في تلك الساعة تصلي كما تصلي زوجات رفاقه المتوفين.

لم يستطع أن ينسى كذلك ضحك ملاخاي المسن الذي ظل يردد في وجهه: «احترس من القلط».

لقد رأى السحابة الشريرة الخطرة التي بدت في السماء على شكل قطة. لم يصدّق نبوءة الرجل المسن فبات لزاماً عليه الآن أن يرجو رحمة الله لتلك القوقعة المتصدعة التي تتهادى في بحر مترامي السواحل.

كانت الشمس قد بدأت في التسخين فعلاً. ربما يجف غطاء المركب فلا يضطر للنوم بجانب روسو المتعفن النتن.

كان عطشه يزداد فتكاً.

مرّ اليوم وتم تأجيل الأمل بقارب النجدة إلى اليوم التالي.

كان الليل يمضي سريعاً لأن الحمى والألم والنوم والبرد عوامل تساعد في ذلك جداً. كان حلقه يطلب الماء... الماء!... الماء!...

حلّ الظلام... وانتشرت الدمعة الأولى من النجم الأول



في السماء، ثم جاءتِ الأخريات، ثم هبط الليل. شيكو الآن ملفوفٌ في الشراع الرئيس مرتجفٌ، وحلقه الجاف بدأ يحترق فأكثر. تخلل لعبه طعمٌ مالح، وقد أمضى اليوم يحاول ابتلاع ريقه؛ فقام بحركة الابتلاع، ولكنه كان يسمع حشرجةً صدره عند كل حركةٍ من تلك الحركات.

من حسن الحظ أن جففت الشمس الحارقة السطح. جعلته شمس النهار الطويل محبباً؛ لكنه أجبر جسده المنهك على البحث عن الظل في كل لحظةٍ إذ مسّه شيءٌ من الرحمة قد حين جففت الشمس السطح على الأقل؛ فبات يستطيع المبيت والنوم هناك. نعم؛ النوم. ألقى بجسده المتألم على تلك الألواح ونام؛ يساعده في ذلك تهادي الأمواج. راحت الحمى تضغط على عينيه، وبات الهذيان جليسه؛ فكان أحياناً يستيقظ خائفاً ظاناً أنه سمع أصواتاً؛ فيتوقف مصغياً راجياً أن يسمعها مرةً أخرى، ولكنه يدرك ألا صوت إلا صوت الماء المنساب تحت المركب؛ فيغلق عينيه بشدة، وتعاوده الحمى التي تلتهمه عساها تريحه قليلاً حاملةً له النوم.

في جوف الليل بدت الصواري المتداعية المتهاكمة في السماء المرصعة بالنجوم كطيفٍ مشوهٍ. سمع صوتاً؛ فجاء يصرخ باكياً!

هبّ شيكو مسرعاً إذ عرف ذلك الصوت، فتفحص



ما وراء المركب، وإذ بطيفٍ أبيضٍ يدنو منه؛ فسكن ألم  
ذراعه وتوقف عن إزعاجه، وباغتته عاطفةٌ جياشةٌ؛ فدنا  
صوت الطيف.

إنها ليديا. ليديا؛ الفتاةُ المجنونةُ من بورتو دو روكادو.

- ماءٌ؟ المزيدَ من الماء؟

إنها هي. هو يعرف صوتها. لقد تذكرها تماماً. توقفت  
ليديا.

كان إبريق الماء يتلألأ في يديها. واستأنفت ذاك هناك  
في الخلف.

على شيكو أن يشرب حتى لو اضطر لقتلها. هنالك  
ماءٌ حلُّقه في أمسِّ الحاجة إليه.

اتسعت عيناه بفزعٍ؛ فركعت ليديا المجنونةُ، ووضعت  
الإبريقَ على شفتي جثة روسو؛ فتقدم نحوها مهلوساً  
ليتعثر بشظيةٍ خشبيةٍ، وسقط على جسد روسو المتفسخ.

أيقظه الألم واكتشف ألا شيء هناك. لا ليديا، ولا ماء.  
وحده الجثمان المتعفن والرائحة التي تزداد نتناً. لقد  
عظمت مشاعره حتى أنسَّته آلام السقوط. كان شيكو  
هنالك يحتضن جثةً. نهض بسرعةٍ فأحسَّ بسائلٍ نتنٍ  
الريح يسيل على وجهه، ففركه بيده واستغفر الله من كل  
ما بدر منه من تحرشٍ بالجسد المسحوق المتحلل. نكص



وهو يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه إلى مكان منامه فكان قماش الشراع هناك. جلس وكل عضلاته ترتعد. اتكأ برأسه على حافة المركب، وبدأ ينتحب ويهز بصدره.

لِمَ لَمْ يَمِتْ وحسب؟ لِمَ لَمْ يرحمه الله قليلاً من كل هذا البؤس؟ ما الحكمة من كونه شيكو؟ وكونه ملك مصارعة الذراع؟ وأقوى رجلٍ تطأ قدماه أرض ماكاو؟ لا شيء. ها هو الآن هنالك يبكي. يبكي كطفلٍ منبوذٍ يتوسل الموت كالمجنون؛ يرى السراب، ويسمع صوت ليديا التي ينبغي أن تكون في كوخها حينها، وينام بحالٍ بين حالي الكلاب الضالة والقطط الهزيلة؛ يعاني الحمى، ويكتم العطش حلقه حتى أراه السراب. أين يمكن أن يكون؟ إلى أي مياهٍ غريبةٍ يأخذه القدر؟ لم يكن يعرف. مستحيلٌ أن يمرّ قاربٌ صيدٍ إذ تبدو جميعُ السفن قد توقفت عن السفر في هذه المياه. حتى الله لا يريد رحمته؛ ولذا عليه أن يلقي بنفسه في البحر وينتظر أسماك القرش لتتغذى على جيفته البشرية. لقد كان جسداً!

وقف قلقاً ينظر في كل اتجاهٍ لعله يرى ضوءً منارةً في الظلام. لكنه لم يفلح. كان الليل يقضم الصمت؛ ومياه البحر لا تفتأ تضربُ المركبَ المهشم وتهزه.

جلس مرةً أخرى بجسدٍ بطيءٍ، ثم أغمض عينيه برفقٍ،



ونام ليواري بنومه بعض ألم يأسه .

استيقظ في الصباح والشمس تلعقُ وجهه . فتح عينيه فأحسَّ فيهما احتراقاً، ولم تكد قواه تعينه على النهوض . لم يعد جائعاً بعد؛ بل جف حلقه تماماً، وطرد العطشُ جوعَ جوفه .

أقالها له شخصٌ ما أم كان هو؟ لم يذكر تماماً . هنالك من قال له إنّ الموتَ جوعاً أخفُّ وقعاً على النفس البشرية من الجنون ظمأً .

نهض بصعوبةٍ بالغةٍ، ونظر إلى الأفق؛ فبدا له من بعيدٍ أن ظاهرةً غريبةً أخذتُ في التطور . فرك عينيه بظاهر يده، وانحنى على الدرايزين بقلبي . أحقُّ ما يراه؟ هل يمكن أن يكون هذا حقاً؟ بدا من بعيد أن هناك أمواجاً متكسرةً؛ ومعلومٌ أن ذا علامةً على وجود يابسةٍ أو شاطئٍ أو ساحلٍ رمليٍّ قريبٍ . كانتِ الرياح تحاول مساعدته بأن دفعتِ القاربَ في ذلك الاتجاه؛ أما هو فراح يحدق بياسٍ يرقبُ تقلص المسافة . لا . لا شيء هناك . لا شيء على الإطلاق . لم تكن هنالك أيةٌ أمواجٍ متكسرةٍ . ليس سوى بحرٍ ككلٍ بحرٍ تتهادى أمواجه بشكلٍ طبيعيٍّ كأي أمواجٍ أخرى .

ثنى ساقيه الضعيفتين؛ واجتاحه حزنٌ شديدٌ لموت هذا الأمل، فتهاوى جالساً وطأطأ رأسه .

لم يعد يطيق نهوضاً؛ فقد أزفَ أجله؛ وإنَّ لم يسعفه مسعفٌ



هذا اليوم، فلن يكون بعد هذا اليوم خلاص. بدأ جسده في الانهيار؛ وعافت قوته سُكناه، وبدا حلقه يتصدع، وانتفخ لسانه داخل فمه؛ فلا يستطيع حتى محاولة ابتلاع ريقه؛ وتسبب نقص لعبه بالألم مبرح؛ فكأنما هو رجلٌ ميتٌ يُحاسب ويدفع ثمن خطاياها؛ بيد أنه لم يكن يستحق أن يُطهر بهذه الطريقة إذ لم يكن بالشخص السيئ. ما كان يعلمه هو أنه ليس شخصاً خالصاً أيضاً؛ ففيه كغيره خطايا أيضاً؛ ولكن أن يموت عطشاً؟ ويجفّ حلقه هكذا؟ لا. لم يكن يستحق ذلك القدر؛ كما أنها كانت أكبر عقوبةٍ يمكن أن تُنزل بأي شخصٍ.

تشققت شفثاه، وبدأ بمسح جسده. أتلاشى الألم قليلاً، أم أنّ ضعفه جعله عاجزاً عن الشعور بالألم كسابق عهده؟ كان لحمه يترهل، وذراعُه المثالية تضمّر، وراح جلده بفقدان وزنه يغدو داكناً رقيقاً مهزولاً. كانت الشمس هنالك حارقةً، لكنه لم يعد مهتماً؛ بل تمنى لو أنه بقي مع روسو تحت ذاك الصاري الطويل الثقيل فسحقه على أرضية السفينة؛ فربما كان ذلك أفضل إذ سيموت من فوره. يا لروسو المسكين! لقد انقضّ في تلك الليلة على جثمانه معتقداً أنه رأى مجنونة بورتو دو روكادو. لا بدّ أن ديداناً تولد في اللحم البشري قد أجهزت روسو. تدفقت على جسده مياهُ لزجةٌ كالمياه التي كانت تتدفق على أقدام عمال الملح النحيلة.

كان النعاس يداهمه في كل دقيقة. تحرك شيكو إذ كان



يخشى أنه إن نام بضعفه ألا يستيقظ مرةً أخرى. إنه صراع الإنسان مع ذاته في استجابته لغريزة البقاء والحفاظ على الذات. كان تارةً يريد الموت فيدفع أي شيءٍ مقابل أن يموت، وتارةً أخرى يستهضه أملُ النجدة ويحفزه على فتح عينيه بشكلٍ بطوليٍّ.

أراد أن يعيش! أراد أن يعيش! أراد أن يعيش! أن يعيش ليرى مجدداً ما اعتاد أن يراه منذ أن كان بمقدوره أن يراه.

لكن عينيه كانتا تغلقان بشدةٍ فيفتحهما مرةً أخرى. لم يكن يريد أن يموت هكذا؛ وإن كان الربُّ قد أبقاه حياً، ونجّاه من الموت في تلك العاصفة، فذلك لأنَّ قدره أن يعيش.

كان منهكاً تماماً؛ متصدعَ الحلق، متشقّق الشفتين واللسان، مجبراً بحمّاه على إغلاق عينيه. كان يتعب لمجرد التنفس إذ كان الهواء الذي يدخل من أنفه وفمه ساخنًا ومؤلماً. لم يكن يقوى على جر نفسه لمجرد البحث عن ملجأ في الظل، ولذا ترك جسده في أحضان الشمس.

في نعاسه، وفي هذيانه الذي يهاجمه من وقتٍ لآخر، لم يكن يفكر إلا في البقاء. كان يتخيل أنه في سيكون في مأمن، أو أن يختأً كبيراً بأشعةٍ مشرّعةٍ سيدنو منه، فيستطيع أن يقرأ في مقدمته الجميلة، وعلى عارضته



الأنيقة تحديداً، اسم ريكاردو باريتو. في أوقاتٍ أخرى؛ كان يظن نفسه واقفاً، وأن كل شيءٍ بخيرٍ؛ وأنه يرى الشاطئ مع روسو الذي لم يمت؛ وأنهم يعلمون أنهما مروا بعاصفةٍ، لكن مكروهاً لم يحدث؛ فهم في أحسن حالٍ، ويبتسمون لكل شيءٍ وهم يشاهدون شواطئ ماكاو؛ فيشير إليه روسو ويقول:

- لدينا يختُّ يا شيكو؛ وأوركا دو توبارو أمامنا هناك؛ فإذا دنونا منها، سنرى بيكو دو كابوجي. إذن فقد بتنا قرييين جداً من ماكاو.

وأنَّ قد هبَّت رياحٌ ميمونةٌ فحملتِ المركبَ المتهاوي إلى أوركا دو توبارو، وهم يضحكون سعداء.

في أوقاتٍ أخرى يهبط الليل فيسمع صوت أوزيبو وهو يشير إلى ضوء المنارة في ساحل ميل؛ فيتجادلان:

- هذه ليست منارة ساحل ميل يا أوزيبو. إنها منارة الأغاما. نحن قرييون جداً من ماكاو.

- بالفعل. وأنا الذي أزعم أنني بحارٌ مسنٌ أستطيع رؤية أضواء تلك المصايح الأمامية...

لكنهم لم يصلوا البتة. عندما فتح شيكو عينيه المحمرتين، كان عليه أن يرى ذات المشهد، ويشعر بمزيد من الألم والعطش. وبدأ اليأس.

كم يوماً قضى محاصراً هناك؟ أياكون مصيرُهُ أن يموت  
يائساً على متن هذا القارب؟ وأن يجدَ رائحةً روسو النتنة  
تغزو المكان؟ لم يكن يعلم ذلك؛ لكنه لا شك يعاني منذ  
مئة عامٍ.

كان متأكداً من أنه لن ينجو؛ فأراد أن يلقي نفسه في  
البحر، لكن قواه خانته حتى في فعل ذلك؛ فقد كانت  
ذراعاه اليسرى عديمة النفع كيُمناه. ولماذا يبذل المرء  
الكثير من الجهد ليلقي نفسه في البحر، والموت قريبٌ  
أصلاً؟ لا يهم إن مات هنا، أم في فم حوتٍ!

لن يساعده أحدٌ وسيموت حتماً. سيموت. سيموت حتماً  
في لحظةٍ ما فيبدأ في التعفن، وتخرج الديدان من أحشائه  
فتأتي ديدانُ روسو لمساعدة ديدانه. وهنا؛ حتى لو اقترب  
يختُ أبيضٌ بأشعةٍ ضخمةٍ، فسيكون الأوان قد فات. فات  
أوان كل شيء. لم يكن يريد حتى أن يعيش بعد الآن؛ فبعد كل  
ما جرى، لن يرغب أي إنسانٍ آخر في البقاء. أما إن بدت له  
الحياةُ حياةً تستحق الشفقة، فإنه لا ريبَ سيصاب بالجنون  
كما أصيب به أنطونيو ماكاييا إذ ركض عارياً وألقى بنفسه  
في مستنقع نهر آكو الرمادي.

تأخر الوقتُ كثيراً فلم يعد قادراً حتى على التنفس بشكلٍ  
صحيح، وكان لسانه يتدلى من داخل فمه أسود اللون. كانت  
الأصواتُ بهيمةً كصور الهديان؛ فتظهر ليديا وتضع الإبريق



على شفثيه فيرفض الشرب، وتتشكل القطط من السحاب  
 فتموء في مسامعه فلا يكثرث، وتخلع جوانينيا ماريسيا  
 سترتها الصفراء وتظهر له ثدييها القاسيين وفي عينيها  
 تلك الشهوة الندية والرغبة في جماعه؛ فيرفض ذلك أيضاً؛  
 وتكون ذراعه اليمنى في نزالٍ مع فاييانو، فيحرق الجمر  
 ظاهر يده فلا يلتفت. كان الوقت متأخراً هنا، وجيداً على  
 الجانب الآخر من الحياة التي لم يعد يريد أن يحيها، ولا أن  
 يداعب فيها جوانينيا. أراد الموت؛ ووُحوش الموت؛ ومداعبة  
 الموت المرع مع الديدان الفاسدة.

لن يقاوم كثيراً، ولن يكون أمامه أكثر من يومٍ واحدٍ  
 يعيشه. رائع!

فتح عينيه؛ فسمع صوت الأمواج تضرب جنبه...

\* \* \*

لقد فقد الوقت معناه، وتراكمت الساعات، واندمجت  
 الشمس بالليل في استهتار النعاس المستمرة.

فجأة توقف القارب، واصطدمت العارضة بشيء فسُمع لها  
 دويٌّ رهيبٌ إذ بدا الأمر كما لو أن القارب انقسم إلى قسمين؛  
 فتأوهت أخشاب الهيكل بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، وجنح المركب  
 قليلاً نحو الميناء وتوقف.

فتح شيكو عينيه على اتساعهما فوق صفحة وجهه  
 الذي اتخذ ملامح جثمانية، فأراد أن يصرخ لكن لسانه

الأسود المتورم المتدلي من فمه لم يُعنه على ذلك؛ فقد كان ظمئاً.

على بعد خطواتٍ قليلةٍ من الحياة، أدرك شيكو أن البحر قد توقف.

بدأ تفكيره يعمل ببطءٍ وبشكلٍ مثاليٍّ. هو لم يمت بعد. هو يعلم أن البحر لم يتوقف؛ والبحر لا يتوقف فعلاً. لا بد أنها يابسةٌ. اليابسة!

رفع رأسه فلم تكدرقبته تحمل مثل هذا الوزن؛ لكنها اليابسة، واليابسة قد تعني الحياة. ربما لم يفت الأوان. يمكن أن تأتي النجدة.

جر جسده مستنداً على الدرايزين واستدار، فحاول النعاسُ أن ينال من عينيه مرةً أخرى؛ بيد أنه كان بحاجةٍ للنهوض فهناك اليابسة. رفع ذراعه اليسرى التي كانت تزن متي كيلوغرام، وحرك أصابعه المتيبسة وقبض بها على حافة المركب؛ فما كانت قوتها هي ما رفعت ذاك الجسد المتهالك؛ بل هي غريزة البقاء، والرغبة الدائمة في القتال. استتهض جسده فتهض تماماً، واتكأ على الدرايزين. إنها اليابسة. نعم. اليابسة.

لكنها أرضٌ لا حد لها. إنَّ ذا الأمرُ غريبٌ جداً لم يسبق له أن رأى له مثيلاً؛ فقد كانت مساحاتٍ من رمالٍ لا نهاية لها؛ يابسةٌ واسعةٌ بشكلٍ لا يصدق. جحظت عيناه



في محجريهما فباتتا كبيرتين بشكلٍ غير معقولٍ، فكأنهما  
تلتهمان المشهدَ.

بدأت الأرض المبيضةُ كما لو خرجت لتوها من البحر،  
وفيها بقايا مختلفةٌ كقطع طوبٍ متراسةٍ شكَّلت أجزاءً  
من جدرانٍ قديمةٍ يميل لونها للبياض.

ما الذي يمكن أن يكون ذا؟ لم يكن هنالك شكٌ في  
أنها كانت يابسةً. وقف المركبُ بلا حراكٍ كمن تقطعت  
به السبلُ.

عندها سيطر عليه الجنون.

جاء صوتٌ من جميع الجهات؛ صوتٌ أجشٌ لضحكةٍ  
مألوفةٍ تصدر عن شيخٍ طاعنٍ في السن، فكأنما هي  
ضحكةٌ زمنٍ رتت في دماغه المحموم. إنه يعرف ذلك  
الصوت، وتلك الضحكة الجهنمية.

إنه ملاحاي الشيخ.

- شيكو... ملك مصارعة الأذرع...

نظر حوله ليقع على مصدر الصوت؛ لكنه كان يصدر  
من جميع الجهات.

- لم تكن خائفاً مني، شيكو!

توقع الفتى أن يظهر وجهُ المشعوذ المتجعدُ أمامه في أية  
لحظةٍ بكل ما فيه من تجاعيدٍ وشقوقٍ، وفمٍ هزيلٍ، وأسنانٍ



صفراءً من كثرة التدخين؛ لكنه لم يظهر.

- ألم أخبرك؟ انظر الآن إلى هذه الأرض البيضاء الخارجة من الماء. هذا قبرك، وذئ لعنتك.

هل ترى هذه الرمال التي انبجست مؤخرًا من قاع البحر؟ لقد عُمرت منذ عام ١٨٢٥. نعم يا شيكو، منذ عام ١٨٢٥.

تذكر شيكو وقَّع هذا التاريخ في ذهنه؛ فقد سأل عنه القس هونوريو ليرى ما إذا كان لهذا التاريخ علاقة بوجود جزيرة مانويل غونسالفيس.

- حسنًا، إنها الجزيرة يا شيكو. جزيرة مانويل غونسالفيس التي كذبت بوجودها وبكونك ستموت عالقًا فيها. لقد كان فيها الكثير من الحياة والقتال والدماء والقتلى. إن هذا الرمل وهذا الطين اللزج الذي كان محبوبسًا في قاع البحر لعلامة على وقت عصيب جاء كعقاب من الله بأن ابتلع المدُّ كلَّ شيءٍ: ابتلع كلَّ عظمة وبؤسٍ وأحلامٍ وابتساماتٍ ودموع. ستظهر في يومٍ من الأيام، وهذا فألٌ طيبٌ، وعلامة على أن النفوس التي عاشت هنا قد عُفِر لها، وأنَّ خلاص الجزيرة قد اكتمل؛ أما أنت...

توقف الصوت، ثم تابع:



- طلبتُ منك أن تحتاط، وحذرتُك من علامةٍ قديريةٍ مصيريةٍ رأيتها في غيوم السماء؛ وبذا فقد تخليتَ عن الحياة بملء إرادتك. والآن عادت الجزيرة ووُلدت من جديد؛ أما أنت فستموت لأنك كنتَ سيئاً؛ فقد هجرتَ البر الرئيس بدافع الشر؛ والآن، شاهد ما أنت عليه. ها أنت أكثرُ ضموراً، ووجهك مشوهٌ. هل تراه؟ ولسانك أسودٌ متدليٌ يطلب ماءً، وحلقك جافٌ لم يعد يعينك. إنه العطش؛ العطشُ الذي شقَّ الأرض التي تخليت عنها ببؤسٍ، والتي لم تستطع نسيانها وعاشت في ذاكرتك دائماً. أنت الآن ظمآنٌ. إنه الظمأ.

أنت معاقبٌ بعطشٍ مفترسٍ كالعطش الذي التهم الأرض التي أحببتها وتركتها وراءك. لسانك متشققٌ كالأرض المحترقة. لكنها لم تمت يا شيكو. الأرض لم تمت. لم تشأ أن تقف معها بسبب العطش؛ فانظر الآن كم من الماء هنا. لعلك تريد أن تشرب منه، لكنك لا تستطيع أن تشرب من ماء البحر... انظر إلى كل هذه الأرض. أرضٌ فسيحةٌ لا ماء فيها! الأرض أكثر جفافاً مما تتخيل.

واخترقتِ الفضاء ضحكةً شريرةً مجنونةً؛ لكن الصوت استأنف:

- ستموت يا شيكو. أمامك معاش ساعةٍ واحدة، فاترك هذا الجسد يتألم. ثم من يدري أن روحك لن

تبكي تلك الأماكن التي هجرتها؟ كل شيء جافٌ ها هنا؛ جافٌ ومفقودٌ منذ عام ١٨٢٥؛ أما هناك، وأنت تعرف ما قصدي بقولي «هناك»؛ فقد أحال المطرُ الآن كلَّ شيءٍ أخضرَ مرةً أخرى. الخضرة تعود. الحياة خضراءُ في كل مكانٍ. لقد أفل الجفاف، وامتلاً أبودي بالماء، وسقى نهر آكو غابةً سرمديةً من الجذوع الخضراء، والشمس تُنعم عليها وترطب جوفها بالنسغ والحياة؛ أما وادي سيريدو الآن فلم يكن يوماً بهذا الجمال. الرجال يقفلون فيباركون المياه، ويعودون بلطفٍ إلى أعمال الأرض المفعمة بالحياة؛ تلك الأرض التي فشلت في حبها يا شيكو، والتي حسبتها ميتةً هي الآن هنالك جميلةً مفعمةً بالحياة. أما أنت... ثم ساد صمتٌ عظيمٌ. صمتٌ دام للأبد.

كان شيكو مشرفاً على الموتِ عطشاً؛ وعمّا قريبٍ تبدأ غشاوةُ الموت في التوسع في عينيه.

اتكأت عظامه المكسرةً على درابزين المركب، كانت مقدمة «صنع الله» تشير إلى الموت؛ أما جسده النازف فينظر ويحدق في كل شيءٍ دون أن يشعر حتى بألم جراحه؛ بل كان في أنفاسه الأخيرة يشعر بألم في قلبه. نعم. لقد فهم أنه أخطأ إذ ترك تلك الأرض؛ خيرَ صديقٍ للإنسان. كان ألم قلبه يزداد، وكذا جفافُ عينيه فما عادتا تبيكان الآن. نظر إلى الأفق ببصرٍ قد ضعف فتلاشت جزيرة



مانويل غونسالفيس.

في مكانها، حدث تحولٌ عجيبٌ.

إنه التاسع عشر من أكتوبر. كان بيدرو أزيفيدو متكئاً بالقرب من الطاحونة ينظر إلى الأفق، ويشاهد غروب الشمس؛ فهو عيد ميلاده. ضاقت عيناه بابتسامةٍ سعيدةٍ.

- لا. لن يكون هنالك جفافٌ. لن يكون هنالك جفافٌ مرةً أخرى في براري ريو غراندي دو نورتي؛ فالشمس الغاربة محاطةٌ بسحبٍ ماطرةٍ؛ كما أن الطوق الأحمر الذي ينذر بالجفاف قد اختفى. ستخضّر الأرض. ستمطر!

الآن باتت البراري خضراءً حقاً. ظهر شيكو يسعى نحو المزرعة؛ فترجّل من على صهوة حصانه ليبرداد، واقترب من عرابه مبتسماً.

- لا مزيد من الجفاف، أليس كذلك أبتاه بيدرو؟

- لا مزيد من الجفاف يا شيكو.

- حسناً، لقد رحلتُ يا بادرينو بيدرو. لقد تركتُ هذه الحياة المخزية ورحلتُ.

- أعلم أنك ستعود يا بني؛ فمن أحبّ الأرض عاد إليها. لا يمكنك البقاء بعيداً عنها؛ فهي موطن قلبك الحقيقي. انظر إلى هذه الأراضي الخضراء يا شيكو! إلى تلك الحقول والجبال، وإلى كل شيءٍ حوى ذكرياتٍ



حياة الناس. انظر يا شيكو.

نظر شيكو فبدأ يرى شريط حياته يتكشف أمام عينيه  
الساحرتين.

شاهد نفسه صبياً تجرّه يدُ العراب نيكو فيُفرج  
وجهُ نياروزا عن ابتسامةٍ له ولابنه، ثم شاهد عراكاتِ  
المدرسة، وألعابَ جوان كالامات التي لعبوها أمام  
مزرعة بوكيرو، والسباقَ مع لبيراتو، والاستحمامَ في  
نهر بوتتجي، والسباحةَ ضد التيار، والمرةَ الأولى جاب  
فيها حقولَ القطن ركضاً فكان كل شيءٍ أخضر جداً. لم  
يكن هناك أدنى أثرٍ للعطش. حدّق في المزرعة القديمة،  
والفأسُ يميل في زاويةٍ منها، وقَطَعُ الحطب ينتظره. لا  
تزال حرارة مسامير ذلك الفأس محفوظةً في يده.

نظر إلى الحظيرة التي كانتِ الجمالان الصغيرة تقفز  
فيها وتجري إلى ضروع أمهاتها فتجذبها بقوةٍ ونفاد صبرٍ  
لترضع حليبها الدافئ.

ثم ركب حصانه وسعى وراء الماشية في الحقل  
رابطاً قميصه بالسرج، مشرّعاً صدره للريح ليعود عند  
حلول الظلام مشوشاً بامتزاج أصداء الجبال، وموسيقى  
الأصيل، وحدّوه الحزين.

- صباح الخير أندورنيا.. وووووو... الأميرة!... وووووو...

صباح الخير، أيتها البارونة بينتادادا وفرانجينا... وووووو...



رأى نفسه مختبئاً في الغابة بجانب السد ينظر خلسةً  
إلى أفضاخ الغسالات الذاهلات، أو ممسكاً ببندقية الصيد  
الخاصة بليبيراتو منبطحاً على الأرض، ويصفر ويصفر  
عند الفخ، إلى حين وفود الحمام أسراباً لشرب الماء.

ويسحب الحزام القطني متعرقاً يغني كما لو أنه  
يحدو للمواشي. تذكر ما درجت دونانا على قوله حين  
يتهاهى صوته في أصداء الجبال وظلام الليل فيملاً أذان  
القرويين بالسحر، من أن شيكو كان خيرَ من غنى وحدا.

وجد نفسه يمسك بسحليةٍ تَأْكُل بيض غينيا، فيزيل  
جلدها اللامع المتقشر. كانت البراري خضراءً بهيجةً.

ستمطر. البرق العظيم يشقُّ السماء، والرعد ينفجر  
فوق سلسلة جبال آرارا فيضيءُ ببرقه صليبَ المجنون.  
ستمطر.

ها هي الحقول تفغر أفواهها الخضراء الضخمة  
لترتشف رشفاتٍ كبيرةً من الماء الذي يتدفق من سحب  
السماء فيغمر كل شيءٍ.

سيكون الحصاد هذا العام وفيراً، وستشتعل رؤوس  
شجيرات القطن شيباً بكاملها، ثم إنها ستتلوى على  
إيقاعات أغاني الرياح، كما ستدور الطواحين فتغرف  
سطلوها في إيقاعٍ جميلٍ، ووقعٍ رتيبٍ سرمدٍ؛ وتتأوه  
الريحُ بين أجنحتها المتمحورة حول محورها، وستعود

العجول الصغيرة للاحتماء في باحات معمل قطاف  
القطن؛ وتثغي في الزريبة الأغنام مجتمعةً...

سيفيض السد؛ فالسما تمطر. لن يكون في البراري  
جفافاً مرةً أخرى. يظهر شيكو وهو يسعى على حصانه  
ليبرداد عابراً غابة النباتات الشائكة؛ فتحاول الأشواك  
الرطبة خدش ساقيه المحميين بحذاءٍ جلديٍّ، ثم يصل  
إلى المزرعة فيداعب شعر أطفال نياروزا الأشعث،  
ويفك الحيوان فيتجه نحو ضفة السد:

- بركاتك يا بادرينيو بيدرو.

يستمتع بادرينيو بيدرو، بالقرب من البوابة، إلى الضوضاء  
التي يُحدثها شيكو أثناء استحمامه مع حصانه.

وحانت احتفالات رقصه الثور فلم يغب عنها شيكو.  
لقد كان حاضراً يموت ضحكاً من النكات الإباحية  
اللطيفة واللذيذة، فيصفق لريفالدو الذي لم يتوقف عن  
الرقص أبداً.

وسلسلة الجبال؟ الجبال التي ارتقاها سعيًا ينتظر  
ظهور القمر على دُراها، والتي استلقى فيها على صخرة  
موكو الكبيرة حالماً بأشياء تحدث في عوالم أخرى بعيدة؛  
عوالم فيها بحرٌ شديد الخضرة، ورجالٌ عراة الصدر  
يعملون على متون القوارب؛ لكنه لن يتخلى عن البراري  
أبداً، ومهما كان المقابل؛ ففيها بدأ وقضى حياته، ومنها



استمد قوته. قد يطالها الجفاف؛ بل جفاف العالم كله، لكنه لن يغادر أبداً أرضاً أحبها كثيراً... بل سيقاوم إلى جانب بيدرو أزيفيدو، فيسحل الماشية الساقطة، ويقود القطيع إلى مرعاه الثاني على سفح الجبل. سيخيم اليوم بطوله تحت الشمس يرعى الماشية التي يحتاجها، لكنه لن يتخلى عن البراري أبداً. أبداً...

وحين يحين قطاف القطن، سيمارس لعبة السباق القديمة المعتادة لمعرفة من يجمع أكبر قدرٍ منه؛ فيقرص خلسةً - بينما هم يتسابقون - سيقانَ بنات العراب فينانسيو الثخينة، العراب فينانسيو الذي لم يكن يرضى لهن الرذيلة؛ أو أن يقلن همساً كلماتٍ بذيئة، أو يضحكن فيتعرضن للاستغلال...

ويُقام قداسٌ ميلادٍ جميلٌ في المزرعة، فيعترف الجميع للقس أديلينو.

ولكي الماشية، تُربط وتوضع العلامات الحديدية في الفحم فتكوى بها أفخاذ الحيوانات. كانت الحياة على هذا النحو.

أنى نظرت ترى اللون الأخضر طاعياً. لا أحد يتذكر الجفاف. من داخل السد تنزف المياه فيفيض السد بها. إنه الشتاء.

لن تموت البراري بعد الآن؛ فخُضرة الأشجار والصبّار  
تكسو جميع الجبال والحقول.

حتى المِرج الموجود على حافة البركة كان مزيناً باللون  
الأخضر والضوء. كان الدُّرى الخُضراء العظيمة لجميع  
الغابات.

كان الرجال سعداء. لن يعود الجفاف ثانية؛ فقد عاد إلى  
العالم الماء الذي يمنح الحياة لكل الموجودات.

- انظر يا شيكو، إنها البراري التي تحبها.

ويأتي صوت بيدرو أزيفيدو من داخل الأرض ذاتها،  
ومن أعماق قلب شريكه في الوطن، فيلتقط أنفُه  
رائحة الأرض التي تبللت بهطولاتِ المطر الأولى؛ فيستمد  
كل طاقته من الأرض السوداء. كل ما فيه كان أرضاً.

ها هو يقف هنالك مرةً أخرى كحارسٍ للوقت؛ فيمسح  
الأفق مبتسماً بسعادةٍ لأن الجفاف لن يعود مجدداً.

إنه الآن يتحدث إلى شيكو بذلك الصوت الذي أحيا  
الأرض:

- لقد عدت يا شيكو. لقد عدت يا شيكو...

- بركاتك أبتاه بيدرو... أنا...

\* \* \*



جسد شيكو عالقٌ داخل المركب هامدٌ تماماً، والبحر  
شديد الخضرة مستمرٌ في التآرجح مهدداً هيكلَ المركب،  
والأمواجُ تتننٌ منشدةً أغنيةً حزينةً وعذبةً جداً.  
ثم تجرّ الأمواجُ العاتيةُ المركبَ إلى قاع البحر...





## الفصل التاسع الطين الأبيض

**بات** في علم الجميع الآن أن شيكو لن يعود؛ لا هو ولا روسو ذو العين الواحدة، والذي لا يتحدث؛ حين يتحدث؛ سوى عن النساء؛ كما رحل معهما كلُّ من جيسوينو وأوزيبينو. الكل بات في قاع البحر.

تلفحتْ جوانينيا بالسواد، وأرهقتْ عينيها بالبكاء حزناً وكمداً جعل الكثير من الناس يظنون أنها ستصاب بالجنون مثل ليديا، كما انفطر قلب زوجة جيسوينو التي كانت تنتظر طفلاً، ونال أوزيبينو من عائلته وأصدقائه من الشوق والتوق الكثير؛ أما روسو الذي لم يكن لديه أحدٌ، فكان أقلَّ المرثيين نصيباً من الدموع.

لن يعودوا أبداً؛ فأمامهم رحلةٌ طويلةٌ جداً...

انتظر الناس شهراً، لكن أحداً لم ير مركب «صنع الله».

لا مَنْ يَأْتِي بالأخبار، ولا بالآمال. لن يُرَى لهم طيفٌ مرةً أخرى.

لم يكن هنالك مجالٌ لإشعال شمعةٍ داخل يقطينةٍ لمعرفة ما إذا كانت جثتهم قد وُجدت أم لا؛ فقد كان البحر كبيراً جداً.

لا جدوى من ذلك. كان مركباً مجنوناً قد اختفى في بحرٍ متلاطمٍ...

\* \* \*

كان دوم ميغيل خلف المنضدة يفكر. أطلق سراح وجهه من قضبان سجن يديه، ومشى ببطءٍ نحو الباب. نظر عالياً بجانب أكوام الملح فكانت جاثمةً هنالك بيضاءً رهيبَةً قاتلةً.

تذكر شيكو الذي فقد في البحر إلى الأبد. روحٌ شابةٌ وجميلةٌ جداً ضاعت وضاع كل شيءٍ، وضاعت إسبانيا؛ والجميع يعرف ذلك. لقد خسر برشلونة، وفي برشلونة تمثالٌ كولون الكبير المشير إلى أمريكا، أو لعله يشير إلى العالم المفقود هناك. لقد ضاع كل شيءٍ. نظر إلى المسطحات الملحية مرةً أخرى. قريباً ينطلق الرجال إليها فيدفنون فيها جذوعهم، ويضيعون حياتهم،



ويفقدون أنظارهم، ويخسرون آمالهم.

كانت ليديا تنتقل في البعيد تحمل القربة على رأسها  
وتغني لازمتها:

- ماء؟ المزيد من الماء؟

لن يتوقف ضوء الشمس عن الانعكاس عن الملح  
الأبيض أبداً. هو لم يكن ملحاً أبداً، بل قبراً من طينٍ  
أبيض؛ قبراً تُزهق فيه الأرواح.

فجأة، وفي بداية الشارع، بدأ صوت سويبا يصدح  
ويتردد:

كومبرا جوا

جوكا...

كوينا-كوينا

انجليكا

موتامبا...

وضاع هذا الصوت في ضوء النهار الساطع.

هذا النهار ثابتٌ أبداً. مدينة الملح بيضاءً أمداً.

وبمجرد وصولها، بدأ صوت العجوز سويبا يتلاشى في  
المسافة، كما لو كان يجتازُ الأبدية.

ربما كانت دقيقةً أبديةً؛ كما لو أن الدقيقة الأبدية لم  
تكن بحجم الأبدية...





## ملحق

**وُلد** خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في ٢٦ فبراير ١٩٢٠ في بانغو، ريو دي جانيرو لأسرة فقيرة معدمة، فعاش صباه مع أعمامه في ناتال، عاصمة ريو غراندي دو نورتي، وهناك أمضى طفولته وشبابه. تدرّب الصبي في ربيع التاسع على السباحة في مياه نهر بوتنجي في ذات المدينة، وكان حلمه أن يصبح بطلاً. أحبّ القراءة أيضاً، فعشق بشكلٍ خاصّ روايات بولو سيتوبال، وغراسيليانو راموس، وخوسيه لينس دو ريغو، وهذان الكاتبان الإقليميان هما من رواد الأدب البرازيلي.

كانت أنشطة طفولة خوسيه ماورو بمثابة حجر الزاوية في حياته برُمتهها: من روح المغامرة والأنشطة البدنية، إلى الأدب والكتابة في الوقت نفسه، وكذا السينما والفنون الجميلة والمسرح وصولاً إلى الحساسية والحيوية البدنية؛

لكن بدون أكاديمية الآداب والحياة الاجتماعية اللاتي تخضعان للقواعد وألعاب الكواليس. ويصبح خوسيه ماورو رجلاً لامعاً. نعم؛ ولكن بسيطاً جداً.

التحق حين كان في ناتال بكلية الطب مدة عامين، لكنه لم يستطع المقاومة: إذ دفعته شخصيته المضطربة إلى العودة إلى ريو دي جانيرو مرتحلاً على متن سفينة شحن، وليس معه من متاع الدنيا سوى حقيبة بسيطة من الورق المقوى. من ريو دي جانيرو بدأ رحلة حج طاف فيها جميع أنحاء البرازيل: كان مدرب ملاكمة وناقلاً للموز في العاصمة كاريوكا، وصياداً على ساحل ريو دي جانيرو، ومعلماً في مدرسة ابتدائية في مركز صيد في ريسيفي، ونادلاً في ساو باولو...

أفضت به تجربته ذي وذاكرته وخياله المتميزان، وتمكنه الميسر من سرد القصص، إلى إثراء الأدب بأعمال أدبية ذات جودة معترف بها دولياً: ٢٢ كتاباً تشمل الروايات والقصص القصيرة، وبتجمات منشورة في أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية واليابان، بل لقد حازت بعض كتبه على نسخ سينمائية ومسرحية.

كانت أولها حين بلغ ربيع الثاني والعشرين، من خلال رواية «الموزة الشجاعة» (١٩٤٢)، والتي تصور الرجل البليد في مناجم غوياس سيرتو، في الغرب الأوسط من



البرازيل. على الرغم من بعض المقالات الإيجابية التي كُتبت عن الرواية، إلا أنها لم تحقق النجاح، ثم جاءت رواية «الطين الأبيض» (١٩٤٥)، والتي جاءت خلفاً لكلٍ من «مسطحات ملح ماكاو»، و «نهر الشمال الكبير»؛ إلى أن بلغ المؤلفُ الشريانَ الإقليمي مع «البغاء الأحمر» (١٩٥٣)، و «طحينٌ يتيّم» (١٩٧٠) و «مطرٌ استوائي» (١٩٧٢).

كان منهاجُ عمله يتسم بخصوصيةٍ فريدةٍ؛ فقد اختار مواقع سيناريوهات حكاياته ثم انتقل إليها؛ فقبل كتابة «البغاء الأحمر»، سافر حوالي ثلاثة آلاف ميلٍ عبر باكلاوند، وأجرى منها دراساتٍ مكثفةً استندت عليها الرواية.

قال للصحفيين: «أكتب كتبي في غضون أيام قليلة؛ لكني في المقابل، أمضي سنواتٍ في اجترار الأفكار؛ فأنا أكتب كل شيءٍ على الآلة الكاتبة، فأقوم بإنجاز فصلٍ كاملٍ، ثم أعيد قراءة ما كتبتَه. إنني أكتب في أي وقتٍ، ليلٍ نهار؛ فإذا ما بدأتُ بالكتابة بلغتُ النشوة فلا أتوقف عن الضغط على مفاتيح الجهاز حتى تؤلمني أصابعي.»

إنَّ تأثرَ حياته الهائلَ بالعيش مع الشعوب الأصلية (إذ اعتاد الذهاب إلى «وسط الأدغال» مرةً واحدةً في السنة على الأقل) قد ظهر لاحقاً في أعماله؛ ففي عام ١٩٤٩، نشر كتابه «بعيداً عن الأرض»، فسرد فيه تجربته وسلط

الضوء على الضرر الذي لحق بالثقافة المحلية بسبب الاتصال بالأشخاص البيض. كان هذا الكتابُ أوَّلَ كتابٍ من قائمةٍ واسعةٍ من الكتب الأصلية:

Arraia de Fogo(1955)

Rosinha, Minha Canoa (1962)

O Garanhão das Praias (1964)

As Confissões de Frei Abóbora (1966)

Kuryala: Capitão e Carajá (1979)

تمخض هذا الإنتاج عن مجهودٍ كبيرٍ بذله الشابٌ خوسيه ماورو مع إخوانه البرازيليين في فيلاس-بو، والسيرتيين والسكان الأصليين للمناطق النائية في منطقة أراغوايا في الغرب الأوسط من البلاد. قاد الإخوان فيلاس بوا: أورلانديو وكلوديو وليوناردو؛ رحلةً رونكادور-شينغو التي بدأت في عام ١٩٤٣، فربطت الداخل البرازيلي بسواحل البرازيل فاحتكوا بشعوبٍ أصليةٍ غيرٍ معروفةٍ ورسموا خرائطَ أراضيتهم، وشقوا طرقاً إلى وسط البرازيل.

كان النجاحُ العظيمُ الأوَّلُ من نصيب كتاب «زورقي الوردية الصغير» الذي يقابل فيه ثقافة البدائيين بالثقافة المفترسة الفاسدة للبيض المتحضرين، لكن العمل الذي سيحقق قدراً أكبر من الاعتراف العام سيأتي بعد ست



سنواتٍ تحت عنوان «شجرتي شجرة البرتقال الرائعة»؛ وفيها يروي الكتاب قصةً طفلٍ فقيرٍ غيرٍ مفهومٍ يفر من العالم الحقيقي إلى شعاب الخيال؛ فجذبت الروايةُ القراء البرازيليين من أقصى الشمال إلى الجنوب محطمةً جميع أرقام المبيعات القياسية. قال الكاتب في ذلك الوقت: «لديّ جمهور تتراوح أعمارهم من ٦ إلى ٩٣ عاماً. لا هنا في ريو دي جانيرو أو ساو باولو وحسب، بل في جميع أنحاء البرازيل؛ كما أن كتابي «زورقي الورد الصغير» يُستخدم في دورة اللغة البرتغالية في جامعة السوربون في باريس».

ومن أكثر ما أثار إعجاب النقاد هو أن «شجرتي شجرة البرتقال الرائعة» كُتبت في ١٢ يوماً فقط. قال خوسيه ماورو: «لكنها ظلت في صدري عشرين سنة؛ وحين تُسج في مخيلتي كلُّ خيوط القصة، أبدأ بالكتابة؛ فأنا لا أكتب حتى أشعر بالسرد الروائي يُفرز من شتى مسام جلدي، فتري كلَّ شيءٍ ينسكب سريعاً».

بيع من «شجرتي شجرة البرتقال الرائعة» أكثر من مليوني نسخة، وتضاعفت الترجمات: ونُشرت «الطين الأبيض» في المجر والنمسا والأرجنتين وألمانيا؛ كما نُشر «البيغاء الأحمر» في ألمانيا والنمسا وسويسرا والأرجنتين وهولندا والنرويج؛ وقد تم نشر «شجرتي شجرة البرتقال

الرَّائِعة» في حوالي خمسة عشر دولةً...

«دعونا ندفع الشمس» (١٩٧٢)، و «مجنون» (١٩٦٣) هما عنوانان شكلا مع "شجرتي شجرة البرتقال الرَّائِعة" سيرةً خوسيه مورو الذاتية على الرغم من أن المؤلف بدأ الثلاثية بقصة مراهقته وشبابه في «مجنون». «بعيداً عن الأرض» و «اعترافات الراهب يقطينة» تحتوي أيضاً على عناصر تشير إلى حياة المؤلف. كما تتضمن قائمة أعمال خوسيه ماورو أيضاً كتباً تركز على الأعمال الدرامية الوجودية: «الجزر» (١٩٥١)، و «طريق حافٍ» (١٩٦٩)؛ و «الوجبة» (١٩٧٥) وغيرها كانت موجهةً لجمهورٍ أحدث سنّاً؛ ومنها ما يتعامل مع القضايا الإنسانية: «قلبٌ من زجاج» (١٩٦٤)، و «القصر الياباني» (١٩٦٩)، و «المراكب الشراعية الكريستالية» (١٩٧٣)، و «الفتى الخفي» (١٩٧٨).

إلى جانب إريكو فيريسيمو من ريو غراندي دو سول، وخورخي أمادو من باهيا، كان خوسيه ماورو أحد الكتاب البرازيليين القلائل الذين يمكنهم العيش من مجرد حقوق النشر؛ ومع ذلك، فإن موهبته لم تتألق في الأدب وحده. فبالإضافة إلى كونه كاتباً، فقد عمل صحفياً ومذيعاً ورساماً ونموذجاً وممثلاً؛ ونظراً للياقته البدنية الجميلة، فقد لعب دور المعبود في العديد من الأفلام والمسلسلات؛ فحصل على جوائز عن أدائه في «نموذج المحفظة ١٩»،



و «الجزيرة والمرأة والملايين»؛ كما كان بمثابة نموذج لـ «نُصب الشباب» المنحوت في حديقة وزارة التعليم السابقة في ريو دي جانيرو عام ١٩٤١، للنحات برونو جيورجي (١٩٠٥-١٩٩٣)، وهو نحاتٌ برازيليٌّ مشهورٌ عالمياً.

لم ينجح خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في مجالٍ وحيدٍ؛ إنه المجال الأكاديمي. في أربعينات القرن العشرين، حصل على منحةٍ دراسيةٍ من إسبانيا، لكنه قرر بعد أسبوعٍ أن يتخلى عن الحياة الجامعية والسفر إلى أوروبا؛ فقد كان صوتٌ روحه المغامرة أعلى.

يعود نجاح المؤلف بشكلٍ أساسيٍّ إلى سهولة تواصله مع قرائه، وقد أوضح خوسيه ماورو ذلك بقوله: «لعل ما يجذب جمهوري لي هو بساطتي. أعتقد أنها البساطة؛ فشخصياتي تتحدث اللغة الإقليمية؛ لغةً أناسٍ بسطاءً مثلي، وأنا كما أسلفتُ، لا أبدو ككاتبٍ على الإطلاق؛ فشخصيتي تظهر في أدبي مصورةً ذاتي.»

توفي خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في ٢٤ يوليو ١٩٨٤ عن عمرٍ ناهز ٦٤ عاماً.

